الشوارع
حواديت

الشوارع حواديت

أحمد علي كامل

رواية

رقم الإيداع: ١٦٢٧٢/ ٢٠٢١

تدمك: ٦ـ ٤٩ـ ٦٧٩٨ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨

تدقيق لغوي: أسامة مسعود

أخراج فني: د. بولا وجيه

إشراف عام: رباب الشهاوي

الطبعة الأولى: يونيو ٢٠٢١

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما ـ أمام جنينة مول ـ مدينة نصر

Alfouad_Publishing@hotmail.com

-

الشوارع حواديت

أحمد علي كامل

رواية

الفؤاد للنشر والتوزيع

لقاء لم يتم

أسدل الليل ستائره، ورحلت شمس الشتاء الباهتة، وبقى القمر وحيداً يصارع من أجل أن يسقي الأرض بنوره، بعدما أبت السحب المعتمة أن تفك أسر خيوطه الفضية، خلت الشوارع من المارة، فنصّب الصمت نفسه ملكاً على المدينة، وبين الحين والآخر تمرق سيارة شاردة فتحدث جلبة طفيفة، تتململ على أثرها الكلاب في رقدتها وتلوي أعناقها، بعدما أزعجها الصوت المفاجئ. تكرر المشهد عدة مرات وكأن شريط الحياة قد أصابه عطب ما فأخذت الصورة تعاد أكثر من مرة، لحظات قليلة ودوى من بعيد بوق سيارة الشرطة، فقطع ثوب الليل الساكن، وظهرت من خلف الستائر المسدلة على النوافذ وجوه دفعها الفضول لاستكشاف ما يحدث، اقترب الصوت أكثر فأكثر، حتى ظهرت في نهاية الشارع ثلاث سيارات نصف نقل أو ما يطلق عليها اسم "البوكس "، تتقدمهم سيارة دفع رباعي، برز من نافذتها الخلفية فوهة مدفع رشاش مصوبة للشارع بتحفز، بينما جلس على الكرسي الأمامي ضابط برتبة رائد، أخذ ينفث دخان سيجارته بقوة وهو يرمق الشارع الساكن بعين خاوية من أي تعبير، قبل أن يشير للسائق بأن يقف بمحاذاة الرصيف.

وما إن ترجل من السيارة حتى تقدمت السيارات الاخري وقطعت الطريق، بينما قفز من الجزء الخلفي عدد من الجنود، حمل بعضهم حواجز مرورية وقاموا برصها بعرض الشارع، وبين الحين والآخر يقوم أحد أمناء الشرطة بالصراخ

في وجوههم لحثهم على الانتهاء من نصب اللجنة أو الكمين كما يحلو للبعض تسميته. استند الضابط بمؤخرته على السيارة وقد أطل الملل من عينيه، دقائق معدودة مرت قبل أن تظهر أول سيارة فتقدم الأمين نحوها وطلب من سائقها الاطلاع على الرخص، تناولها وتطلع فيها لثوان قبل أن يعيدها له ويشير للجنود بإزاحة الحواجز.

سار الوقت ببطء شديد، كأنه عجوز طاعن في السن، يخطو خطوة للأمام وما يلبث أن يعودها للخلف، كان الأمين يدقق أكثر في السيارات كلما تأخر الوقت، مما أدى لتكدس السيارات، خرجت رؤوس السائقين من النوافذ، في محاولة منهم لمعرفة سبب الزحام، أطفأ بعضهم محرك سيارته، بينما انشغل البعض الآخر بهاتفه، ومنهم ذلك الشاب الأسمر، الذي انتفخت جفونه من الإرهاق وقلة النوم، وفشلت نظارته في إخفاء السواد الذي نمى أسفل عينيه، عبث في خصلات شعره الناعم بيده المرتكنة على النافذة، وبيده الأخرى قبض على هاتفه، بعدما مل منه وأغلقه، لحظات مرت وهو يقلبه بين أصابعه قبل أن يلقي به على المقعد المجاور له، رفع رأسه ليتجول ببصره في السيارات المجاورة له، فلم يجد ما يقتل به الوقت، فهم بتناول هاتفه مرة أخرى لكن.. وقعت عيناه على مشهد جعله يتسمر في مكانه، فتعلقت يده في الهواء قبل أن تصل لهاتفه، وقعت عيناه على وجه برعت يد الخالق في نحته، ملامح تقف عاجزة أمامها ريشة أروع الرسامين، لم يخطر بباله يوماً أن يصادف مثلها، صمتت الموجودات

من حوله، شعر ببرودة تجتاحه فارتجف لها جسده، لكن الغريب أن يصاحب الرجفة شعوراً بالدفء أحاطه كهالة تحميه وتعزله عما حوله، التصقت عيناه بها وأبت أن تتحرك، رجفة قوية عصفت به حينما التفتت تجاهه، غرق في نهر العسل المتدفق من عينيها، فظهر عليها الارتباك بعدما تفاجأت بمشهده، سرق من شفتيها ابتسامة قبل أن تهرب ببصرها بعيداً، فعاد للواقع وقبض على باب سيارته. كان قد اتخذ قراراً جنونياً بالذهاب لها، وفجأة دوي صوت نفير قوي أعقبه صوت تحطم رهيب تخللته صرخات مدوية، فحاول أن يلتفت لفتاته كي يطمئن عليها لكنه فشل، بعدما أظلمت الدنيا من حوله وسكت كل شئ.

صخب شديد لم تشهده المنطقة منذ وقت طويل، أشخاص يهرولون في مختلف الاتجاهات، أصوات متداخلة يصعب أن تحدد فحواها، مزيج من النحيب المختلط بأنين متقطع، أضواء مبهرة تزيد من صعوبة الرؤية، حطام في كل مكان صُبغ بلون أحمر، قطع لحم مهترأة من أجساد فقدت ملامحها، رجال شرطة غرقت وجوههم في الدهشة والألم، حاول أكثرهم أن يتماسك ويمد يد العون للمسعفين الذين تعثرت خطواتهم وارتعشت أيديهم من هول المنظر.

وعلى جانب الطريق وقف ضابط الكمين ينفث دخان سيجارته، مصدوم لا ينطق بكلمة، وبين الحين والآخر يهز رأسه يميناً ويساراً، وكأنه ينفض عنها الكابوس الذي مر به، عيناه المضطربة ترتعش بقوة، شاردة.. تسترجع المشهد

من بدايته، حينما دوى صوت نفير قوي لسيارة نقل كبيرة محملة بأطنان من البضائع، رفع عينيه ليجد السائق وقد فقد السيطرة عليها، فتحولت النقل لكائن أسطوري يحطم بمخالبه كل ما يعترض طريقه، صراخ الضحايا مازال يدوي في أذنه، عشرات السيارات تحولت في لحظة لكومة من الخردة المعجونة بالدماء والأشلاء، سحب نفساً عميقاً من سيجارته ثم ألقى بها بعيداً، وفجأة تناهى لمسامعه صوت أحد المسعفين يصرخ منادياً على زملائه، بعدما وجد شخصاً حياً وسط الحطام، هرول الضابط نحوه ومعه بعض المسعفين، ليجد الشاب الأسمر وقد تلطخ جسده كله بالدماء، كأنه ينزف من كل جزء فيه، ومع ذلك ظهر صدره وهو يعلو ويهبط بأنفاس الحياة.

التف الجميع حوله ومن بينهم الضابط، في محاولة لانتزاعه من بقايا السيارة المحبوس بداخلها، مرت دقائق عصيبة قبل أن ينجحوا في تخليصه، وقاموا بعدها بوضعه على نقالة تحرك بعضهم بها بسرعة نحو أقرب سيارة إسعاف، ولكن قبل أن يصلوا ارتفع الصوت ثانية بالعثور على شخص آخر على قيد الحياة.

ارتسمت الفرحة على وجه الضابط، واندفع سريعاً للمشاركة في عملية الإنقاذ، لكن هذه المرة لم يستغرق الأمر ثوان معدودة، حتى أنه لم يكد يصل للمكان، حتى وجد أحد المسعفين وقد خلع سترته ليغطي جسد فتاة ضئيلة الحجم، تمزق رداءها وكشف عن جسدها الملطخ بالدماء، لم ينتظر الضابط أن يأتوا بالنقالة

بل حملها بين ذراعيه وانطلق سريعاً نحو سيارة الإسعاف، وهناك تلقفها منه المسعفون وأغلقوا باب السيارة التي تحركت على الفور، وخلفها وقف الضابط وسط الحطام يتابعها ببصره حتى ابتلعها الطريق.

بدأ الليل يعزف لحناً متقطعاً بقطرات المطر، فلمعت الشوارع جرّاء بريق السماء، تناحرت السحب فدوى صوت عراكها، فحجب صوت السيارة التي نهبت الطريق بسرعة جنونية، وبداخلها شاب نحيف، حاد الملامح، يكاد يختفي وجهه خلف شاربه الأشقر، كزّ على أسنانه وهو يطبق بقوة على مقود السيارة، ودواسة البنزين تكاد تصرخ تحت وطأة قدمه، تناثرت المياه من حوله بعدما اخترق بركة كبيرة في وسط الطريق، لم يطرف له جفن أو تهتز ملامحه ولو للحظة، فقد كان يسير بنصف عقل فقط، أما النصف الثاني فقد سبقه لتلك المستشفى، التي هاتفه أحد موظفيها ليخبره بوقوع حادث أليم لصديقه "عمرو".

دارت الدنيا من حوله، وكاد يسقط مغشياً عليه حينما جاءه الخبر، فعمرو بالنسبة له ليس مجرد صديق الطفولة، بل هو الأخ الذي وهبه الله إياه، لم يشعر بمعنى تلك الكلمة إلا معه، صحيح أن له شقيقين، لكنه لم يشعر معهما يوماً بدفء الأخوة، قد يكون فارق السن الكبير بينهم هو السبب، لكن على أي حال

فقد عوضه الله بعمرو، الكل يعلم أن عمرو و جمال توأم ملتصق، ولولا اختلاف الملامح بينهما لأقسم الجميع على أنهما أشقاء.

من بعيد ظهرت المستشفى، كان المكان ينافس في صخبه أشد الأسواق الشعبية ضجيجاً، رجال شرطة في كل ناحية، مسعفون يهرولون ويتخبطون في بعضهم البعض، جمع من الناس التصقوا بأسوار المستشفى بحثاً عن إجابة تقتل فضولهم. ركن جمال سيارته بعيداً، وأسرع نحو باب المستشفي، استوقفه أحد أفراد الأمن، فأخبره بما دار في المكالمة بعجالة، فأفسح له الطريق، شعر أن الهواء ينسحب من حوله فضاق صدره وأخذ يفتح فمه بقوة بحثاً عن نسمة هواء، تسمر في مكانه لا يدري ماذا يفعل، يد تزيحه جنباً وأخرى تدفعه ليصطدم بالجدار، مشهد لن يمحى من ذاكرته، ممر المستشفى امتلأ عن آخره بالمصابين، أطباء تلطخت معاطفهم البيضاء بدماء الضحايا، كسا اللون الأحمر كل شيء... الأجسام... الأرض... الحوائط.

ابتلع جمال ريقه بصوت عالي، وبصعوبة استطاع أن يستوقف أحد الممرضين ويسأله بكلمات متقطعة عن عمرو، فأجابه وهو يجري مسرعاً أن يتجه لنهاية الممر حيث مكتب الاستقبال، هز جمال رأسه موافقاً وهو يتحرك بخطوات متعثرة، قبل أن يستعيد رباط جأشه ويسرع نحو مكتب الاستقبال، وهناك لمح ثلاث أو أربع موظفين، وكل منهم يمسك بسماعة هاتف وقد بدا عليهم الاضطراب، فتقدم وعلى وجهه علامات الخوف الممزوج بالتردد، وما إن رفع

أحدهم عينيه تجاه جمال حتى سأله عن عمرو، فالتقط الموظف كشفاً كبيراً من أمامه وأخذ يرجع الأسماء قبل أن يرفع رأسه ويجيب بأن عمرو مازال في غرفة العمليات بالدور الثاني، فهز جمال رأسه شاكراً واتجه سريعاً للطابق الثاني. وجد أمامه ثلاثة أبواب، فوقف حائراً لا يدري أيهم يقبع خلفه عمرو، لكن لم تطل حيرته، إذ خرجت ممرضة من إحدى الغرف فأسرع نحوها وسألها، فأجابت بأن هناك أكثر من حالة بالداخل، ومن الصعب أن تتعرف على عمرو، ونصحته أن ينتظر قليلاً، تابعها جمال وهي تهبط درجات السلم قبل أن يلتفت للغرفة ولسانه يلهج بالدعاء.

لحظات قاسية مرت عليه وهو يغدو ذهاباً وإيابا أمام الغرفة، قبل أن ينفتح الباب ويظهر سرير يدفعه أحد الممرضين، فوثب جمال من مكانه واقترب منه ليجد عمرو وقد اختفي جسده وجزء كبير من وجهه خلف الضمادات. همّ أن يسأل الممرض لكن فجأة فتح الباب مرة أخرى، ليظهر من خلفه الطبيب، والذي بدا عليه الإرهاق، فتردد جمال للحظات قبل أن يحسم أمره ويسأله عن حالة صديقه، فالتفت له الطبيب وأجابه بصوت خافت:

ـ الوضع غير مستقر للأسف... الإصابة اللي في رأسه قوية جداً ولسة مش عارفين هيحصل إيه.

تسمر جمال في مكانه للحظات مصدوماً لا يدري ماذا يقول، هم الطبيب بالانصراف فاستوقفه جمال قائلاً:

ـ معلش أنا أسف يا دكتور.. طيب ممكن أعرف إيه اللي هيتم دلوقتي مع عمرو؟

ـ هو مش محتاج للعناية المركزة.. بس هيفضل تحت الملاحظة في غرفته وخلال الساعات اللي جاية هتبان كل حاجة إن شاء الله... بعد اذنك.

ارتسمت شبح ابتسامة على شفاه جمال وهو يتابع الطبيب ببصره قبل أن يتراجع للخلف ويسند ظهره على الحائط، ويطرق رأسه أرضاً مفكراً فيما دار بينه وبين الطبيب، قبل أن يعتدل ويتحرك لمكتب الاستقبال ويسأل عن غرفة عمرو.

تحرك سريعاً باتجاه الغرفة بعد أن عرف رقمها، وقف أمام الباب متردداً، وفي النهاية دفعه ليظهر من خلفه جسد عمرو ممدد على السرير، والعديد من الأسلاك تخرج من جسده لتصل إلى أجهزة تزدحم بها الغرفة. أطل الحزن من عيني جمال وهو يشاهد صديق عمره في تلك الصورة، ورغماً عنه وجد الدموع تتساقط على وجنتيه، دون أن يستطيع إيقافها. تحرك بخطوات بطيئة ووقف بجواره صامتاً، مر أمام عينيه شريط طويل من الذكريات، مواقف لا تنسى ومشاهد من الحياة جمعته بعمرو دون غيره، لم يفترقا عن بعضهما أبداً، لا في المدرسة ولا حتى في الجامعة، فرغم اختلاف كليتيهما لكن جمعهما حرم جامعي واحد.

التحق عمرو بكلية الآداب قسم إعلام ودخل جمال كلية التجارة؛ كانت مواعيد المحاضرات مختلفة، لكن في نهاية اليوم كان لابد وأن يجتمعا للرحيل سوياً، لم تكن بيوتهما قريبة من بعض، لكنها في نفس المنطقة...

ـ حضرتك قريبه؟

انتزعه الصوت من عالم ذكرياته وعاد به للواقع، فهز رأسه والتفت خلفه ليجد ممرضة صغيرة السن حسنة المظهر تنظر له بابتسامة رقيقة، فنظر لها دون أن يجيب على سؤالها، فظهر عليها الارتباك وهي تعيد السؤال، فأشاح جمال ببصره بعيداً وهو يهز رأسه نافياً قبل أن يرد بإجابة مقتضبة:

ـ أكتر

ساد بينهما الصمت للحظات، فتسمرت الممرضة في مكانها لا تدري ماذا تقول، حتى عاود جمال التحدث لها قائلاً:

ـ الورق ساعات بيكون كداب، لأن القرابة والصلة مش مجرد كلام بيتكتب.

ـ شكلكم أصحاب من زمان

أجابها باكياً:

ـ من زمان أوي.

ـ إن شاء الله يقوم بالسلامة وربنا يجمعكم على خير.. اللي له صاحب زيك يبقى أكيد ربنا بيحبه.

ارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة وأجابها وهو ينظر لعمرو:

ـ أنا اللي ربنا بيحبني إنه رزقني بأخ وصديق زي عمرو.

ابتسمت الممرضة وتحركت نحو عمرو وأخذت تنظر للشاشات المحيطة به بشكل روتيني وقبل أن تنصرف سألت جمال إن كان يحتاجها في شيء، فشكرها على اهتمامها وأوصاها بعمرو، فأشارت نحو زر بجوار السرير وقالت:

ـ لو احتجتني في أي وقت دوس على الزرار ده هتلقيني على طول قدامك.

هز جمال رأسه موافقاً ثم عاد ينظر لصديقه، لم يدر كم مر من الوقت وهو واقف في مكانه، إلى أن شعر بوجع يتسلل من أسفل قدميه وحتى رأسه، فأخذ يحرك ساقيه في الهواء لتجري فيهما الدماء مرة أخرى، تلفت حوله فوجد كرسي وأمامه منضدة صغيرة لم ينتبه لهما في أول الأمر، فتوجه لهما وألقى بجسده المنهك على الكرسي قبل ان يتأوه بصوت عال، ثم فرد ساقيه أسفل المنضدة وأرجع رأسه للخلف، قبل أن يغمض عينيه لثوان قليلة، وفجأة اعتدل في مكانه وكأنه تذكر شيئاً ما، تحسس الحقيبة الجلدية المعلقة على كتفه وفتحها بقوة، ملتقطاً رزمة من الورق وقلم، ألقى بهما على المنضدة، فهذه الأشياء لا تفارق حقيبته أبداً، إذ لم تستطع وظيفته الحسابية أن تنسيه هواية الكتابة، فهي الطريقة المثلى لتجسيد أحلامه وأفكاره وهمومه، فتتحول إلى بشر من لحم ودم، نظر لصديقه وابتسم بعدما قرر أن يبقى بجواره حتى يستعيد وعيه، وأمسك بالقلم وأنكب على أوراقه في محاولة منه للخروج من واقعه الحزين.

أولت ظهرها للباب ووقفت أمام النافذة، تطالع شمس الشروق وهي تزيح ستار السماء، لمحت أوراق الشجر تتمايل بنعومة، فأزاحت الستائر بعيداً وفتحت النافذة تلتمس من الهواء رشفة تروي ظمأها، حبست في صدرها نفساً عميقاً تسلل لعروق جسدها، وأكسبها نشوة لذيذة جعلتها تبتسم في هدوء، وقع ضوء الشمس على عينيها العسليتين فمنحها بريقاً يخطف القلوب، انسدلت خصلات شعرها الناعم على وجهها فأزاحتها بكفها الصغير، ثم أسندت رأسها على النافذة متأملة المشهد الجميل في صمت، حتى أنها لم تشعر بباب الغرفة وهو يُفتح، لتظهر من خلفه فتاة محجبة، سمراء إلى حد ما، قصيرة، تخفي جسدها الممتلئ خلف ملابس فضفاضة، تقدمت بهدوء نحو الفتاة الواقفة أمام النافذة، حتى صارت خلفها، والأخيرة مازالت على وقفتها لا تشعر بما يدور من حولها، فتنحنحت المحجبة بصوت خافت، وهنا انتفضت الفتاة بقوة، والتفتت خلفها وقد ارتسم الذعر على ملامحها، فتسمرت المحجبة في مكانها، مرتبكة مما حدث وخرج صوتها مبحوحاً وهي تقول:

ـ أنا آسفة يا بلسم مكنتش أقصد أخضك.

وضعت بلسم يدها على صدرها، الذي أخذ يعلو ويهبط بقوة جراء المفاجأة، ثم رجعت للخلف وأسندت ظهرها لحافة النافذة، وهي تأخذ نفساً عميقاً وتزفره بقوة، ولوحت بكفها للبدينة قائلة:

ـ لا يا حبيبي ولا يهمك... انتي مش غلطانة يا مي، أنا بس اللي كنت سرحانة على الأخر ومسمعتش الباب لما انفتح.

ابتسمت مي وتقدمت نحو بلسم وأمسكت بكفها الصغير، واحتضنتها برفق وهي تقول:

ـ حبيبتي..أنتي مش متخيلة أنا كنت عاملة أزاي التلات شهور دول... خوف وقلق ومفيش حد من الدكاترة بيقولي حاجة تطمن، يااااه الحمد لله أوي على اللي أحنا فيه.

ألقت بلسم بنفسها على السرير وهي تفرد ذراعيها للخلف وتنظر لسقف الغرفة قائلة:

ـ وحشتني أوي شقتنا والقعدة في الشرفة ساعة المغربية... يااااه... كأني بقالي عشر سنين مشوفتهاش.

تقدمت مي من الدولاب وفتحته لتلتقط شنطة كبيرة من داخله، وتضعها بجوار باب الغرفة ثم التفت لبلسم وسألتها بخبث:

ـ الشقة بس اللي وحشتك؟

قامت بلسم من رقدتها ونظرت لمي وقد عقدت حاجبيها:

ـ قصدك إيه إن شاء الله؟

ضحكت مي بصوت عال ثم عقدت ذراعيها أمام صدرها وأجابتها والابتسامة الساخرة مازالت عالقة بشفتيها:

ـ يمكن عايزة تطمني على الناس اللي بقلها أسبوع مش بتعدي عليك.

توردت وجنتا بلسم بحمرة الخجل وأشاحت بوجهها بعيداً وهي تقول:

ـ أنتي أخت أنتي؟! والله أنتي زبالة.

ـ ربنا يسامحك يا ستي... أنا مؤدبة ومش هرد عليك.

نهضت بلسم من على السرير ووقفت أمام المرآة تتأكد من تمام هندامها قبل أن تلتفت نحو مي وتسألها:

ـ تفتكري هو بيعمل كده ليه؟

ـ وهي دي عايزة عبقرية... واحد من ساعة الحادثة وهو بيسأل عليك ومتابع مع الدكاترة حالتك أول بأول بالرغم من عدم وجود صلة أو سابق معرفة... يبقى هيكون بيعمل كده ليه؟

مطت بلسم شفتيها للأمام وهزت كتفيها متعجبة، وقبل أن ترد ارتفعت طرقات هادئة على الباب لينفتح وتظهر من خلفه ممرضة بدينة بيضاء قصيرة جداً تكاد تختفي عينيها خلف وجنتيها المكتظتين، وما إن شاهدت بلسم واقفة حتى تهللت أساريرها وصفقت بيدها بطريقة طفولية وهي تقول:

ـ الله... ألف ألف مبروك يا أنسة بلسم... الحمد لله أنك قمتي وخلاص هتخرجي بالسلامة.

قالت بلسم: الله يبارك فيكي يا عزة... عاملة ايه؟

ـ الحمد لله... خلاص هتمشي والمستشفى هتضلم.

تقدمت بلسم نحوها وربتت على كتفها بحنان وهي تقول:

ـ المستشفى عمرها ما تضلم طول ما فيها ناس روحها حلوة زيك.

أطرقت عزة رأسها خجلاً وهي تجيب:

ـ ربنا يخليكي يا أستاذة.

تناولت مي حقيبتها ومدت يدها بداخلها ثم أخرجتها وهي قابضة على شيء ما ثم وضعته في جيب عزة التي حاولت أن تتراجع مبتعدة وأن تزيح يد مي لكن الأخيرة أصرت فتخضب وجهها خجلا قبل أن تقول:

ـ ليه بس كده يا أستاذة مي... أنا معملتش حاجة.

ـ دي حاجة بسيطة، وبعدين يا ستي أنا عاملة حسابي أنك أول واحدة هنعزمها عندنا أول ما تخرج بلسم.

ـ تسلمي يا يارب أنتي وأستاذة بلسم.

أفسحت عزة الطريق للفتاتين وفتحت الباب وهمت أن تنصرف قبل أن تنادي قائلة:

ـ صحيح يا أستاذة بلسم مقولتليش أعمل إيه مع الظابط اللي كان بيطمن عليك من وقت للتاني؟

تسمرت بلسم في مكانها ونظرت لمي التي حاولت جاهدة أن تخفي ابتسامتها قبل أن تلتفت الأخيرة لعزة وتسألها:

ـ إيه ده!! هو لسة بيجي؟

عزة بابتسامة ماكرة: كان بيجي لحد الأسبوع اللي فات لكن مجاش خالص الأسبوع ده... .تحبي أقوله حاجة لو سال عليكي؟

ـ لا طبعا.

أشارت لها مي بالصمت قبل أن تلتفت لعزة وتحدثها:

ـ بصي يا عزة... أنا عايزاكي تعرفي هو عايز إيه وبيسأل على بلسم كده ليه؟

شهقت عزة بصوت مرتفع وهي تضرب بيدها على صدرها قائلة:

ـ يا خبر أسود... أنتي عايزاني أسال ضابط بوليس!! أنتي عايزاه يحبسني؟!

ـ إيه الفزع ده كله!! هو أنا بقولك اقتليه؟ ده أنا بقولك افهمي منه إيه الموضوع بشكل ظريف كده بحيث إنه ميخودش باله... ولو حسيتي من كلامه إنه شاب محترم ابقي...

وهنا تلفتت مي حولها مما جعل عزة تتلفت بدورها قبل أن تقترب مي وتقول بصوت منخفض:

ـ اديله نمرة بلسم... مش هي معاكي؟

ـ اه

ارتسمت الدهشة على وجه بلسم وفتحت فمها غير مصدقة ما تقوله مي قبل أن تصرخ بوجهها بقوة:

ـ هو إيه ده؟ إيه اللي بتقوليه ده يا مي نمرة مين اللي..

ـ ششششش أسكتي أنتي دلوقتي... .(تلتفت لعزة) فهمتني؟

ـ تمام يا أستاذة عيب عليكي.

وهنا تمسك مي بيد بلسم وتبدأ في السير بخطوات هادئة وهي تلوح بيدها لعزة التي وقفت مبتسمة تتابعهما ببصرها قبل أن يبتلعهم زحام المستشفى.

تعلقت عيناه بدوامة الأتربة التي تحركت أمامه، وأخذت تلقم ما تقع عليه من فتات الأرض، فزادت رقعتها وارتفعت سريعاً، قبل أن تقذف كيساً بلاستيكياً نحو وجهه فلطمه بقوة. تراجع للخلف وهو يزيحه بكفه، ويمسح بالمرة قطرات العرق التي طفت على جبينه، إذ لم يفلح كشك الحراسة القابع بداخله، من أن يصد سياط الشمس الحارقة فوضع بندقيته بجواره، والتقط زجاجة المياه ورفعها عالياً ليسكبها على رأسه المشتعل، قبل أن يدنيها من فمه ويتجرعها بضيق، بعدما أحالته الحرارة لماء دافئ، وهنا لمح بطرف عينيه ضابطاً يتقدم نحوه، فألقى بالزجاجة بسرعة واعتدل في وقفته.

تقدم الضابط بخطوات سريعة وعلى وجهه ابتسامة هادئة، وحينما شاهد ما فعله المجند اتسعت ابتسامته أكثر وهز رأسه متعجباً، قبل أن يقف أمامه صامتاً، فرفع المجند يده بقوة مؤدياً التحية العسكرية، فأومأ الضابط برأسه قبل أن يلتقط شيئاً ما من الكيس الذي يحمله، ويلقى به في وجه المجند الذي تحرك سريعاً وأمسك بما قذفه الضابط والذي لم يكن سوى زجاجة مياه مثلجة، فأحتضنها بقوة بين يديه ولسانه ينهال بعبارات الشكر على الضابط الذي اكتفي

بابتسامة هادئة وأكمل طريقه نحو باب المبنى، الذي تصدرته لافتة كبيرة، كتب عليها بخط بارز " قسم شرطة حدائق القبة".

تابعه المجند ببصره حتى اختفى داخل المبنى، ثم هز رأسه في سعادة وهو يسأل نفسه لماذا لا يكون كل ضباط القسم مثل الرائد مراد، طيب.. هادئ..يعطف على كل من حوله.. وفي الوقت نفسه يخشاه الجميع ويعلمون ان غضبه أشبه بالعاصفة العاتية التي لا يمكن أن يقف أمامها أحد، تنهد المجند بصوت عال قبل أن يعود لمراقبة الطريق.

أما داخل القسم، فقد دوت خطوات مراد الحازمة في المكان كله، فنهض المجندون من على مقاعدهم وأفسح له الأمناء الطريق وهم يؤدون التحية العسكرية، فجاوبهم بتحية مماثلة وابتسامته البسيطة لا تفارق وجهه، وحينما اقترب من غرفته نهض المجند الرابض أمامها وفتح له الباب سريعاً، ثم وقف أمام مكتبه مشدود القامة في انتظار أوامر مراد، الذي جلس على مقعده وخلع قبعته ووضعها أمامه، ثم رفع عينيه للمجند وسأله عن أخباره بشكل سريع قبل أن يطلب منه فنجاناً من القهوة، وهنا حاول المجند أن يقنعه بضرورة تناول الفطور أولاً قبل احتساء القهوة، وكعادته تقبل مراد النصائح بصدر رحب لكنه أصر في النهاية على طلبه، فلم يجد المجند مفراً من تنفيذ أوامره، وخرج وأغلق الباب خلفه، وهنا تراجع مراد للخلف بظهر كرسيه، ووضع ساقاً على

الأخرى، قبل أن يخرج علبة السجائر من جيب بنطلونه ويلتقط منها واحدة ثم يلقي بها على سطح مكتبه.

أشعلها ثم نفث دخانها في الهواء، فتشكل على هيئة الغبار الناجم عن ذلك الحادث الأليم الذي وقع منذ ثلاثة شهور وراح ضحيته الكثير، نفث دخانه مرة ثانية فشاهد تلك الفتاة الرقيقة وهم ينتزعوها من أنياب سيارتها المحطمة وجسدها مخضب بالدماء، أما في المرة الثالثة شاهد نفسه وهو يقف متسمراً أمام سريرها في غرفة العناية المركزة وجسدها النحيف يكاد يختفي خلف عشرات الخراطيم والأسلاك المتصلة به، وجهها الملائكي لا يفارق مخيلته، لايكاد يغلق الباب أمامه حتى يجده يطرق باباً اخر داخل أورقة عقله، ومن وقتها قرر أن يستسلم له، وأصبح يتردد على المستشفى مرات ومرات، وفي كل مرة كان يسوق حجة مختلفة، حتى نضب نهر أفكاره وبات أمره مكشوفاً لبعض الممرضات، فصرن يتغمزن كلما وقعت أعينهن عليه، وبالرغم من هذا لم يتوقف عن زيارتها.

فجأة ارتفع صوت طرقات منتظمة انتزعته من شروده وعادت به للواقع، فاعتدل في جلسته وأمر من يطرق بالدخول، ففتح الباب وظهر خلفه ضابط يحمل نفس رتبة مراد، قوي البنيان، طويل، وجهه مستطيل، تحت أنفه الطويل يرقد شارب كث، وبمجرد أن وقع بصره على مراد حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، واستند بذراعه على مقبض الباب، قبل أن يقول:

ـ إيه يا كمال يا شناوي... عامل إيه؟

مط مراد شفتيه في ضيق وأطفأ سيجارته بعنف، وأشاح ببصره بعيداً، فتجاهل الضابط ما حدث وتقدم باتجاه مراد، قبل أن يجلس على المقعد المواجه له قائلاً:

ـ هي بقت كده يعني!! بتنفضلي يا مراد؟

رفع مراد حاجباً وانزل الآخر وهو يطرق بكفه على سطح المكتب، ثم التفت له وهو يرد بغضب مصطنع:

ـ عايز إيه يا زفت أنت؟

ـ زفت!! ماشي يا عم مقبولة منك... أنا مؤدب ومش هرد عليك... خلينا في المهم..إيه الأخبار؟ وصلت لحاجة جديدة؟

ـ بالنسبة لإيه؟

ـ بقولك إيه... مش عايز استعباط... لخص وهات من الأخر.

تنهد مراد بصوت عال وهو يهز رأسه يميناً ويساراً، ثم أخذ يعبث بعلبة السجائر وقال ليوسف دون أن ينظر له:

ـ مش عارف... أنا أول مرة يحصل معايا كده... كأني رجعت مراهق تاني، وكل اللي عايزه أشوف بنت الجيران من بعيد لبعيد.

ـ بس دي مش بنت الجيران يا صاحبي ولا أنت لسة مراهق... لازم تعرف أنت عايز إيه بالظبط من البنت دي... مش هينفع تعلق نفسك بحبال وتكتشف في الأخر إنها دايبة.

ـ عندك حق... بس فعلا مش قادر أقابلها واقعد معها... وكل اللي عرفته اسمها وبس.

ـ اسمها إيه؟

ـ بلسم.

ـ طيب..انت مش بتقول إنها فاقت الحمد لله واحتمال كبير تخرج خلال الأيام اللي جاية.

ـ اه.

ـ خلاص يا معلم دي فرصتنا عشان نعرف كل حاجة عنها من غير ما تحس.

عقد مراد حاجبيه ونظر ليوسف وسأله باستغراب:

ـ قصدك إيه؟ مش فاهم!!

ـ بص يا سيدي... هروح أنا المستشفى وهجبلك المفيد.

وما إن أنهى يوسف جملته حتى نهض من على مقعده، وتوجه للباب فقام مراد هو الآخر مسرعاً واعترض طريق يوسف متسائلاً:

ـ أنت رايح فين وسايبني كده؟ مش تفهمني هتعمل إيه؟

ـ بقولك إيه أنا سيبتك كتير وقلت يمكن تتنيل تعمل حاجة، لكن مادام أنت خيبة كده يبقى لازم تسيب الليلة دي للعالم اللي زي.

وهنا مد يوسف يده نحو مقبض الباب فأمسك مراد بذراعه وقال:

ـ يوسف... أوعى تعمل حاجة تبوظلي الدنيا.

ابتسم له يوسف وربت على كتفه، ثم فتح الباب وخرج مسرعا، تاركاً اياه فريسة للقلق ينهش عقله.

ما بعد الغياب

توجه بخطواته البطيئة لمدخل البناية، يرمق ما حوله بعين شاردة تلتهم تفاصيل المكان، وأمام السلم وقف ثوان معدودة بدأ بعدها رحلة الصعود لشقته في الطابق الثاني، وحينما وصل دلف بسرعة وأغلق الباب خلفه ثم وقف يلتقط أنفاسه بعد رحلة الصعود المرهقة.

استند بظهره على الباب ووقف يلتهم تفاصيل المكان بعينيه، شعر وكأنه غاب لسنوات، صحيح أن أثاث الشقة لم يتحرك قيد أنملة، لكنه أخذ يتمم عليه ويراجع مواضعه بدقة، صالة كبيرة تنقسم لجانبين، الأيمن كان يحتوى على كنبة على جانبيها أربع كراسي تتقدمها منضدة خشبية صغيرة، أما على يسار الصالة فقد استقرت سفرة طويلة بثمانى مقاعد، وخلفها بوفيه ضخم تزينه مرآة كبيرة أكسبت المكان مساحة أكبر، وبجوار السفرة ربض ذلك الكائن الأسطوري المتواجد في كل بيت مصري أصيل المسمى بـ " النيش "، بحرص شديد نزع حذاءه وسار على أطراف أصابعه نحو ممر طويل يتوسط الصالة تتواجد به غرف الشقة والمطبخ والحمام.

توجه مباشرة نحو باب الغرفة التى تقع في نهاية الممر، وبحذر شديد أدار المقبض وطل برأسه لداخل الغرفة، وقعت عينيه على سرير خالٍ، وبجواره منضدة صغيرة تراصت عليها العديد من علب الأدوية. تسللت خيوط الشمس حتى وصلت لأرجل السرير الخشبي، فتصاعدت ذرات الغبار في

الهواء وفوق السجادة السميكة، لتكسب المكان دفئاً ساحراً، مد رأسه أكثر فلمح جسداً يولي ظهره للباب، مستقراً على كرسي جلدي يشبه كراسي الشركات، وجهته للنافذة الزجاجية، ويظهر وكأنه أمسك شيئاً في يده، تطلع فيه بقوة وجعله ينفصل عن العالم الواقي حتى أنه لم يشعر بوجود عمرو، الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ووقف ينظر لهذا الجسد بعين حانية.

بقى عمرو على وضعه للحظات، يتأمل الشخص دون أن ينبس بكلمة واحدة، وفجاة اعتدل الجسد ورفع رأسه عن الشىء القابع على ركبتيه، وكأنه أحس بما يجري خلفه، دار بالكرسي، فوقعت عليه أشعة الشمس، سيدة تخطت الخمسين أو أكثر، سمراء بعض الشىء، ممتلئة الوجه، أنف كبير تستقر عليه نظارة طبية أخفت وراءها عينين ضيقتين، شعر أبيض ناعم تسللت خصلاته من أسفل الإيشارب البني، الذي ربطت به رأسها.

بيد مرتعشة نزعت النظارة من على وجهها، أغلقت المصحف الموضوع على ركبتيها، ترقرقت عيناها بدموع جاهدت في كبحها، لكنها فشلت فجرت على خديها وتساقطت على المصحف الشريف. وهنا وبرغم ألمه أسرع نحوها، وألقى بنفسه تحت قدميها، ممسكاً بيديها يقبلها ودموعه المنهمرة تبللها، شعر بيدها الأخرى تتحسس شعره برفق وتربت على رأسه، قبل أن يسمعها تقول:

ـ وحشتني أوي يا حبيبي.

رفع عمرو عينيه وتحسس وجهها بلطف ثم قال:

ـ وأنتي أكتر يا نور عيني... وحشتيني جدا حاسس أني مشفتكيش من سنين.

ـ أنت السبب.. مش أنت اللي قلت لجمال ميجبنيش المستشفى؟

ـ يعني كنتي عايزة تشوفيني وأنا في الحالة دي.

تأملت وجهه لثوان قبل أن تنطق بصوت هامس:

ـ حبيبي... ربنا يخليك ليا يارب وما يحرمنيش من وجودك جنبي.

ـ أنا مش جنبك، أنا تحت رجلك يا ست الناس دي كلها.

أنحنت الأم تقبل رأس عمرو الذي أنهال هو الآخر بالقبلات على يديها ووجهها وكأنه يعوض ما فاته من أيام سابقة حرم فيها من أمه، أراح رأسه على ركبتيها وسألها:

ـ أكيد وحشك الأكل من ايد حبيبك؟

ـ يااااااه... الأكل بس اللي وحشنى... كل حاجة فيك كانت وحشاني... لو حيطان البيت والعفش بيتكلموا كانوا هيقولوا إنك وحشتهم هم كمان.

نهض عمرو بصعوبة وهو مازال ممسكاً بيد أمه قائلاً:

ـ هريح شوية واقوم أعملك احلى أكل في الدنيا.

هزت أمه رأسها يميناً ويساراً وهي تلوح بيدها رافضة قوله، فابتسم قائلاً:

ـ مش عايز أسمع ولا كلمة... اللي عندي قولته وخلاص..بعد أذنك يا حبيبي.

تحرك بخطوات بطيئة نحو باب الغرفة، وما إن وصل حتى التفت ورائه فوجدها تنظر له بعين حانية، فأرسل لها قبلة في الهواء قبل أن يخرج ويغلق الباب خلفه.

تراقصت غصون الشجر برفق، وعلا حفيف أوراقها بعدما هبت نسمات الربيع، لتصنع لحناً ساحراً تطرب له الآذان، وعلى أرض الطريق الهادئ، رسمت أشعة الشمس بخيوطها لوحة متشابكة مع فروع الأشجار، التى تراصت على جانبي الشارع الساكن، ومن بعيد ظهرت سيارة زرقاء اللون صغيرة الحجم، اقتربت من بيت في منتصف الشارع، يتألف من طابقين وحديقة صغيرة يحوطهما سور حديدي، يرتفع عن الأرض بنحو مترين أو أكثر، تتوسطه بوابة أكثر طولاً، وما إن توقفت السيارة أمام البيت، حتى نزلت منها مي سريعاً، والتفت لتساعد بلسم على النزول من الباب المجاور، فوقفت الأخيرة تتأمل الشارع للحظات، إلى أن أخرجتها مي من شرودها، وحثتها على المضي قدماً نحو البيت.

تأبطت بلسم ذراع أختها، وتحركت بهدوء نحو باب الحديقة، لمعت اللهفة في عينيها وتراقصت البسمة على وجهها الرقيق، وقفت في وسط الممر الذي يتوسط الحديقة الصغيرة، تنظر بشغف لزهورها وأشجارها القصيرة، فربتت مي على كتفها ودفعتها برفق للأمام، داخل البيت وقفت للمرة الثانية تنظر لكل

ركن فيه وكأنها تراه للمرة الأولى، محاولات مضنية خاضتها مي لأقناع اختها الصغيرة بتغيير ديكور المنزل لكنها كانت تصطدم دوماً بالرفض القاطع من بلسم، التي كانت تعشق التفاصيل القديمة للمكان، وتعتبر أثاثه ذكرى تحمل رائحة والديها الراحلين.

كانت تصر على ألا تقحم تفاصيل حديثة للمنزل إلا في أضيق الحدود، أستغرقت بلسم وقتاً طويلاً قبل أن ترسل قبلة في الهواء لأختها، وتتوجه إلى السلم الخشبي المؤدي للطابق العلوي، صعدت درجاته بهدوء متأملة الصور المعلقة على الحائط، شغف والدها الراحل بالتصوير جعل كل ركن من أركان المنزل كأنه استوديو تمتلئ حوائطه بالبراويز، كل لحظة من حياتهم كانت مسجلة، يوم ولادتها هي وأختها.. أعياد ميلادهما... رحلاتهم الصيفية؛ لم يغفل عن تصوير شيء، حتى بعد أن اشتد عليه المرض، لم تفارقه آلة التصوير. وقفت بلسم طويلاً أمام صورة معلقة في نهاية السلم، ظهر فيها والدها ممدداً على سرير غرفته وعلى وجهه ابتسامة مرتعشة، وبجواره جلست والدتها تنظر له بحزن عميق، كانت هذه الصورة هي الأخيرة لأبيها، قبل أن يتوفى بعدها بساعات قليلة.

أطرقت بلسم رأسها أرضاً وهي تتذكر تلك الأيام الصعبة، فلم يجل ببالها يوماً، أن ترى أباها، الطبيب المشهور الذي عالج بعلمه ومهارته أشد الحالات

صعوبة، والتي اعتبرها العديد من أقرانه حالات ميئوس منها، يقع في النهاية فريسة للمرض ينهش جسده دون رحمة.

وصلت بلسم للطابق الثاني، الذي يضم كل الغرف بالإضافة إلى المطبخ والحمام، فتوقف أمام غرفة والديها وفتحت بابها، تسمرت في مكانها للحظات، مشت بعينها لنهاية الغرفة، فطالعها مقعدان كانا الجلسة المفضلة لهما، تخيلتهما جالسين يتجاذبان أطراف الحديث وهما يحتسيان القهوة كعادتهما بعد صلاة العشاء.

تنهدت بصوت عال وأغلقت الباب، ثم ذهبت لغرفتها، وهناك.. ألقت بجسدها على سريرها الصغير، خلعت حذاءها وألقته أرضاً، وعقلها مازال يفكر في والديها. طالما حلمت بقصة حب مثل قصة حبهما، لم تر أحدهما يسئ للآخر أو يغضبه، بل كانت الحنية هي وسيلة تعاملهما، حتى الموت فشل في أن يفرقهما عن بعض، ففي نهاية الأسبوع الذي رحل فيه أبوها، رحلت أمها، وكأنهما تعاهدا على ألا يعيش أحدهما وحيداً. هنا خطر ببالها ذلك الضابط الذي كان يسأل عليها من وقت لآخر، تحرك بداخلها الفضول وتمنت أن يأتي مجدداً للمستشفى ويأخذ رقمها، وأن يهاتفها، وحينها قد تبدأ قصتها هي الأخرى، عند تلك النقطة توقف أنسياب أفكارها، فارتسمت على شفتيها ابتسامة هادئة وأغمضت عينيها لتغرق في نوم عميق.

كانت الحركة بداخل المستشفى قد هدأت، بعدما انتهى موعد الزيارات، واقتصر الأمر على العاملين في المكان، مما جعل ظهور يوسف في المستشفى بقامته الطويلة وبناينه القوي محل تساؤل من الجميع. كان الأخير يضرب الأرض بخطواته الواثقة دون أن تشغله النظرات الفضولية التي حاصرته، فتقدم نحو مكتب الاستقبال وأبرز هويته للموظف المختص الذي اعتدل في وقفته وسأله باهتمام عن طلبه، فأجابه يوسف بأنه يبحث عن معلومات قد تفيده في التحقيقات الجارية بشأن حادث وقع منذ فترة لشابة كانت نزيلة بالمستشفى.
تجهم وجه الموظف للحظات وظهر عليه الارتباك قبل أن يعاود سؤال يوسف عن أي شابة يقصد، فتناول الأخير ورقة وقلماً من على المكتب وكتب عليها اسم بلسم، ثم أدار الورقة للموظف الذي نظر للورقة وأعاد قراءة الاسم بصوت عال، وكأنه يتأكد من صحته، وهنا توقفت تلك الممرضة التي كانت تمر من خلف يوسف وتخطته بعدة أمتار، لكنها التفتت ورائها بسرعة حينما سمعت الاسم. تسمرت الممرضة – التي لم تكن سوى عزة ـ بمكانها للحظات، إلى أن حسمت أمرها وتقدمت نحو يوسف وقالت له:
ـ مساء الخير يا فندم... حضرتك بتسأل على مريضة باسم بلسم؟
التفت لها يوسف وقد امتزجت بوجهه علامات التعجب بالصرامة، ومط شفتيه للأمام وهو يسألها:
ـ هو انتي بتردي السؤال بسؤال؟

ارتبكت من رده الجاف وحاولت أن ترسم على وجهها ابتسامة خرجت مرتعشة رغماً عنها، وهي تجيب:

ـ لا يا فندم مش قصدي.. بس كل الموضوع أنه كان في مريضة هنا بالاسم ده وحبيت أتاكد أن هي اللي حضرتك بتسأل عنها.

صمت يوسف للحظات تفرس فيها ملامحها قبل أن يلتقط الورقة من أمام الموظف ويناولها لعزة، التي نظرت للاسم وتأكدت من صحته، فرفعت عينيها ليوسف وسألته بتلعثم:

ـ طيب ممكن أعرف حضرتك تقربلها ايه؟

ـ أنا الرائد يوسف الجبالي... مباحث

ـ اهلا بحضرتك يا فندم نورت المستشفى... بس معلش هو أنا ممكن أسال حضرتك على حاجة تانية؟

عقد يوسف ساعديه أمام صدره وقال بنفاذ صبر:

ـ خير؟؟

تقدمت نحوه بضعة خطوات وهي تتلفت حولها قبل أن تسأله بصوت خافت:

ـ سيادتك بتشتغل مع الضابط اللي كان بيجي هنا ويسأل على أستاذة بلسم؟

صمت يوسف للحظات متأملاً وجه عزة، وكأنه يريد أن ينفذ لرأسها وينتزع منه ما يريد دون الدخول في حوار طويل معها، لكنه في النهاية حسم أمره، وشكر الموظف بكلمات مقتضبة، ثم أشار لعزة كي تتبعه، فسارت خلفه

بخطوات مرتبكة وضربات قلبها تكاد تخترق ضلوعها، قبل أن تجد نفسها خارج المبني وأمامها يوسف الذي توقف بعدما أطمأن لكونهما بمفردهما. أخرج علبة سجائره وتناول منها واحدة أشعلها وهو يتفرس في ملامحها، فحاولت أن تبتسم لكنها فشلت، ساد بينهما الصمت للحظات قبل أن يسألها بشكل مفاجئ:

ـ أنتي عارفة الضابط ده يا...

ـ عزة... عزة يا باشا.

ـ اه..اه... ماشي... المهم تعرفي الضابط؟

ـ لا يا باشا... بس كنت بشوفه كتير، وأوقات تانية كنت أنا اللي بطمنه على حالة أستاذة بلسم.

ـ تمام... واضح أنك مركزة مع الأستاذة ومع الناس اللي بيطمنوا عليها.

ـ ولا مركزة ولا حاجة يا باشا... أساساً ست بلسم مكنش حد بيسأل عليها غير أختها، أصلها يا عيني يتيمة الأب والأم.

ـ اه... قولتيلي بقى... طيب يا عزة انتي بتشتغلي هنا من زمان؟

ـ من حوالي سبع سنين.

هنا أخرج يوسف حافظته وتناول منها بعض النقود ومد بها يده لعزة التي تراجعت للخلف رافضة أن تأخذ منه شيئا لكنه أصر فأخذتها باستحياء وعلى

وجهها ابتسامة عريضة ولسانها يلهج بعبارات الشكر، نفث دخان سيجارته وسألها:

ـ تعرفي إيه تاني عن أستاذة بلسم؟

ـ كل خير يا باشا... هي عايشة مع أختها مي في بيتهم اللي في الضاهر وبتشتغل في شركة من شركات الاتصالات، أما أختها بتشتغل مهندسة... أبوها الله يرحمه كان دكتور كبير وسبلهم فلوس معيشاها كويس هي وأختها.

ـ أنتي قولتي إن أمها كمان متوفية... صح؟

ـ اه يا عيني ماتت بعد أبوها على طول.

هز يوسف رأسه متفهما ثم أطرقها أرضاً وظل يعبث بطرف حذائه في حشائش الحديقة قبل أن يسألها:

ـ تعرفي عنوانها فين بالظبط؟

ـ اه يا باشا.

أخرج ورقة وقلمًا أعطاهما لعزة التي كتبت العنوان ورقم بلسم ثم أعادتهما إليه. تأمل الورقة لينعقد حاجباه متسائلاً عن ماهية الرقم، فارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة وهي تجيبه:

ـ ده رقم أستاذة بلسم.

هنا وللمرة الاولي ابتسم يوسف في وجهها وهز رأسه شاكراً قبل أن يبتعد بخطوات واسعة، تتابعه عزة بعينها حتى خرج من باب المستشفى فأسرعت

بإخرج هاتفها واتصلت ببلسم، انتظرت طويلاً وحينما لم تجد ردًا اتصلت بمي التي أجابتها سريعاً فقصت عليها ما حدث بأنفاس متقطعة، وأكدت أنه لو حدث جديد ستبلغها فوراً، فشكرتها مي على ما فعلته وأنهت المكالمة على موعد بلقاء قريب.

غرقت والدة عمرو في نوم عميق، فلم تدر أن الليل قد حل، وبدأ يفرد أجنحته على الشوارع، فغرقت غرفتها في ظلام دامس، لم يشقه سوى ضوء عامود الإنارة المتسلل من فتحات الشباك الخشبي، ليظهر جسدها الممدد على السرير، وقد نبتت على جبينها قطرات من العرق، تبللت على أثرها ياقة جلبابها، وفجأة دوى رنين هاتفها فانتزعها من النوم العميق وأتى بها فزعة لعالم الواقع.

أنفاسها المتلاحقة تتعالى مع رنين الهاتف الذي لم يكف عن الصراخ، فمسحت وجهها بيدها قبل أن ترد بصوت مبحوح:

ـ ايه يا سوسو عاملة ايه؟

ـ انتي اللي عاملة ايه؟شكلي كده صحيتك من النوم؟

ـ حطيت دماغي على المخدة محسيتش بأي حاجة... هي الساعة كام دلوقتي؟

ـ الساعة سبعة وربع... ايه... تحبي أجيلك نقعد مع بعض شوية؟

ـ لا يا حبيبي متشغليش بالك أنا تمام الحمد لله.

ـ طيب... لو عوزتي أي حاجة أطلبيني على طول... فاهمة؟

ـ تمام... تسلميلي يا حبيبي ربنا يخليك... يلا سلام.

ألقت والدة عمرو بهاتفها على السرير، وحاولت جاهدة أن تخترق ظلمة المكان ببصرها لكن فشلت، فنهضت بكسل وتحركت لتقف أمام غرفتها تسترق السمع، فجاوبها الصمت المطبق، عندئذ تحركت بخطوات هادئة في أنحاء الشقة بحثاً عن عمرو، وحينما لم تجده هزت رأسها وكأنها فطنت لمكانه، اتجهت للمطبخ لتجد ورقة كبيرة أصفر لونها ملصقة على باب الثلاجة، مكتوب عليها " أنا عند جمال "، ابتسمت بعدما تأكدت من صحة توقعها، وفتحت الثلاجة وأخذت أطباق الطعام ثم جلست على المنضدة الصغيرة التي تتوسط المطبخ.

كانت تلوك الطعام ببطء وهدوء شديد، وعينيها شاردة كأنها مرأة تعكس ولا ترى، ذهبت بعقلها لآخر مرة كانت تجلس فيها مع عمرو قبل الحادث، وكيف تطرق حديثهما لزواجه وكيف أنه قد تخطى الثلاثين بعامين أو ثلاثة ومازال عازفاً عن فكرة الارتباط، كانت تعاتبه على رفضه المستمر لكل بنت ترشحها له، وظنت أنه يريد واحدة بعينها لكنه أكد عدم وجود من تشغل باله، لان عقله وقلبه متعلقين بالفعل بواحدة فقط دون غيرها، وهي أمه؛ حينها لمح الدموع تتلالئ بعينيها، فهو يعلم مدى تعلقها به، وكيف أنها تعاني من صراع مرير بداخلها، ما بين أن تراه عريساً وبين أن ترى غيرها تفوز به وتأخذه لعالمها بعيداً عن حضنها.

رحيل أبيه المبكر وعدم وجود أخوة له، جعلهما كتوأم ملتصق، تنفصل أجسادهما بسبب عمله لكن لا تنفصل روحاهما، قلبه بات أشبه بأرض بور تأبى أن تنبت بزهرة الحب، أحياناً كان يرفض قلبه الانصياع ويميل رغماً عنه لإحداهن، حينئذ كان يتكفل عقله بالأمر ويوأد عاطفته في مهدها. محاولات زملائه في الجريدة لإثنائه عن موقفه كانت أشبه بسهام خشبية تتكسر على سور حجري، حتى جمال أقرب شخص له في الدنيا لم يفلح في زحزحته ولو قيد أنمله عن رأيه، ستظل هي حبه وسيظل هو ابنها وأخوها وزوجها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً؛ وحينما وصل عقلها لتلك العبارة، نهضت من على المقعد ولثمت الورقة التي كتبها عمرو ثم أطفأت النور وذهبت من حيث أتت.

ظلت عينا مراد متعلقة بنافذة المكتب المطلة على عدد من البيوت السكنية، والتى تلآلات شققها بأنوار مختلفة، صخب أصواتها وصل لمسامعه دون أن يميز أحدهم، خلف ستائرها المعتمة تتوارى حكايات يعيش أبطالها على أرض الواقع، ضجيج لا يتحمله عقل اعتاد عليه وبات يشعر بالوحشة إن لم يصله يوما.

أطفأ نور الغرفة وتسمر أمام النافذة مكتفياً بضوء الأباجورة، تحرر عقله من قيود الزمان والمكان وعاد إلى ذلك اليوم الذي رأى فيه بلسم للمرة الأولى، شاهد جسدها النحيل مستسلماً بين أنياب الحطام، وجهها الملائكي يشع نوراً

بالرغم من الجروح التي طالته، لا يدري كيف تحرك قلبه وسط هذا الزخم، وكيف رأها بصورة لم ير بها غيرها، وكيف سيطرت على حياته؛ حياته الصارمة التي عاشها بقلب شاعر فنان مرهف الحس، فلم تكن يوماً كلية الشرطة هي مبلغ حلمه، وإنما عاش أيام مراهقته يتنقل بقلبه بين الكليات الأدبية التي يعشقها، لكن حبه لأبيه جعله يمتثل لرغبته ويلتحق بتلك الكلية؛ ورغم كرهه لها، استطاع أن يتفوق فيها، ويتفوق على جميع أقرانه.

حينما تخرج، وجد نفسه في إحدى محافظات الصعيد، وهناك تفتح عقله على تجارب حياتية أصقلت خبراته كثيراً، فالصعيد بتقاليده وموروثاته كان أشبه بمدرسة تتعلم فيها وتكسبك مهارات، لم تكن لتنالها ولو بعد عدة سنوات. ربما كانت الوحدة هناك قاتلة، لكنه اعتادها.

كانت الإجازة بمثابة جولة صراع دورية بينه وبين أمه، إذ كانت تلقى على مسامعه في كل مرة محاضرة طويلة عن أهمية الزواج، وكيف أنه الحل الوحيد للخروج من دوامة الوحدة التي كانت تبتلعه وتجذبه لأعماقها؛ وفي كل مرة كان رده أنه لم يحن أوان الارتباط، خاصة أنه يرفض الزواج بطريقة الصالونات، ويريد أن يكتب قصة حبه بيديه وبيد الفتاة التي ستشاركه الحياة.

محاولات أمه لم تهدأ، بل صارت أكثر جنوناً بمجرد انتقاله للعمل بالقاهرة، وصار فريسة سهلة بين يديها، فكان الحل هو السهر والتأخر في القسم قدر استطاعته، كي يتجنب هذا الصراع المرير. قناعته الشخصية في كونه سيجد من

تخطفه لعالمها لم تهتز ولو للحظة، حتما سيجدها. علت على باب غرفته طرقات هادئة، فعاد لزمانه والتفت للباب قائلاً:

ـ أدخل.

أطل يوسف برأسه، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، تبخرت بمجرد أن وجد الغرفة غارقة في الظلام الدامس، فعقد حاجبيه وهو يتساءل بصوت عال:

ـ إيه يا بني الرعب اللي انت قاعد فيه ده؟ انت مضلمها كدا ليه؟

ـ بطل رغي وولع النور وتعالى.

مد يوسف يده للمفتاح وأنار الغرفة وهو يواصل صياحه:

ـ يا سلام أيوة كدا... الكلام اللي جاي مينفعش يتقال في الجو الكئيب دا.

ـ اخلص بقى.

تقدم يوسف بخطوات بطيئة، ثم جلس على المقعد المقابل لمكتبه، وقص ما حدث بشكل سريع، وما إن أخرج له الورقة التي أعطتها له عزة حتى التقطها مراد بقوة وتطلع فيها لمدة طويلة دون أن ينبس بكلمة واحدة حتى انتزعه يوسف من شروده صارخاً:

ـ إيه يا عم الحج رحت فين؟

نظر له مراد والشرود مازال عالقًا بملامحه، قبل أن يجلس على مقعده ويسأله:

ـ هو أنا مفروض أعمل إيه دلوقتي؟

ـ نعم!! تعمل ايه!! النمرة معاك ولسة بتسألني؟ ايه تكونش عايزني أكلمهالك كمان؟؟!

ـ يا يوسف متبقاش تنح كدا وامشي معايا واحدة واحدة... يعني هو ينفع أكلمها من غير ما تكون هي اللي مدياني النمرة؟

ـ أنت أهبل ياض؟ أنا مش عارف مباحث إيه اللي أنت شغال فيها... هو أنت فاكر أن البت الممرضة دي ادتني النمرة كدا من نفسها؟!

ـ قصدك أن...

ـ اسم الله عليك... أهي بدأت تنور الحمد لله.

ـ معقولة؟ مظنش يا يوسف.

هب يوسف من على مقعده وهم بالانصراف، فأسرع مراد ونهض من على مقعده وأمسك بساعده هاتفاً:

ـ رايح فين بس يا عم أنت.

نزع يوسف ساعده من بين يد مراد وهو يصرخ غاضباً:

ـ اوعى يا عم هي ناقصة شلل... أنا أروّح لعيالي أحسن.

ـ طيب استنى بس وحياة أبوك... خلاص والله هعمل اللي هتقول عليه.

رمقه يوسف بنظرة نارية قبل أن يلوح له بأصبعه قائلاً:

ـ طلع موبايلك وكلمها.

وبالفعل أمتثل مراد لأمره وأخرج هاتفه وتتطلع فيه للحظات، ثم نظر له وسأله بارتباك:

ـ هقولها إيه؟

هز يوسف رأسه متعجباً، وارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة، ثم تقدم من مراد ونظر في عينيه مباشرة وهو يشير بإصبعه نحو قلبه:

ـ قولها على اللي في قلبك.

تجهم وجه مراد للحظات قبل أن تنتقل الابتسامة لوجهه هو الآخر، فغمز له يوسف ثم خرج وتركه غارقاً في بحر حيرته.

تسللت نسمات الهواء من خلال النافذة المفتوحة، فأزاحت ستائرها بنعومة، وداعبت وجه مي الواقفة أمامها، فسحبت نفساً عميقاً في استمتاع قبل أن تزفره في هدوء، وهي ترمق الشارع الساكن. تناهى لمسامعها صوت الحلل الموضوعة على البوتاجاز فالتفت بجانبها وتحركت باتجاهها، تزيح أغطيتها وتقلب الطعام بداخلها، لحظات وحانت منها التفاتة لساعة الحائط، فاعادت الأغطية لمواضعها وأطفأت النار ثم توجهت لغرفة اختها، طرقت بابها بدقات هادئة وانتظرت لثوان، وحينما لم تجد رداً، أدارت مقبض الغرفة وتسللت للداخل، فشاهدت بلسم وقد غطت في نوم عميق. ارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية واقتربت منها بهدوء ومررت أصابعها على شعرها وهي تهمس:

ـ بلسم..حبيبي... مش هتقومي بقى؟

بدت حركة طفيفة من جسد بلسم، وفتحت عينيها ببطء، وحاولت أن ترسم ابتسامة على وجهها، قبل أن تعتدل وترجع بجسمها للوراء وتسنده لظهر السرير، وتلتفت متسائلة:

ـ هي الساعة بقت كام؟

ـ داخلة على تمانية يا حبيبي، لولا أني عايزة أأكلك مكنتش صحيتك لحد متشبعي نوم.

ـ لا كدة حلو أوي.

غمزت لها مي ودفعتها برفق وهي تقول:

ـ لا يا جميل، انت لسة ما سمعتش الحلو اللي عندي.

اعتدلت بلسم في جلستها وبرقت عيناها متلهفة لسماع الجديد، فقصت عليها مي ما دار بينها وبين عزة، وكلما تعمقت في الحكي ازدادت عيناها اتساعاً غير مصدقة ما حدث. حينما انتهت مي وجدتها شاردة لا تنطق بكلمة واحدة فحركت يديها امام عينيها للاعلى واسفل وهي تسألها:

ـ ايه؟ رحتي فين يا بنتي؟

جفلت بلسم وكأنها تستيقظ من نوم عميق، قبل أن تلتفت لها وتسألها:

ـ هه... طيب هنعمل ايه دلوقتي؟

ـ مفيش.. مش إحنا اللي هنعمل هو اللي أكيد هيعمل.

ـ تفتكري؟

ـ هنرجع للهبل من تاني بقى... أبوس ايديكي أسمعي كلام اختك وقولي حاضر... خلاص؟

هزت بلسم رأسها موافقة، فأردفت مي:

ـ تمام... يلا فوقي كده وقومي خدي شاور سريع عقبال ما أجهز للبرنسيسة بتعتنا السفرة.

خرجت مسرعة، تتابعها بلسم بعينيها، قبل أن تنهض بدورها وتتجه للحمام.

وعند السفرة وقفت مي ترص الأطباق بهدوء، وتقترب بين الحين والأخر من الدخان المتصاعد من الطعام وتستنشقه في استمتاع وهي تثني على نفسها وعلى مهارتها في إعداد الطعام، لحظات وظهرت بلسم وهي ترتدي منامة وردية أكسبتها جمالاً فوق جمالها، وحينما رأتها أختها أسرعت وسحبت أحد مقاعد السفرة وهي تدعو أختها لتناول الطعام بحركة استعراضية، وبالفعل شرعت بلسم في تناول الطعام، وفي كل قضمة كانت تظهر معالم الانبهار بروعة وجمال الأكل، فكانت ترسل قبلة على الهواء لأختها بين الحين والأخر، وفجأة ارتفع رنين هاتفها، فتسمرت بمكانها وفمها ممتلئ بالطعام الذي فشلت في ابتلاعه بعدما سمعت صوت الرنين، أما مي فقد برقت عيناها ونهضت مسرعة لتلتقط الموبيل من على البوفيه وتنظر لشاشته قائلة:

ـ ده رقم غريب... خدي ردي بسرعة يمكن يكون هو.

مدت يدها بالموبيل لبلسم التي ابتلعت الطعام بصعوبة، وظلت تتطلع لها في صمت دون أن تأخذه منها، فصرخت مي:

ـ امسكي يا زفتة... يلا.

ترددت بلسم للحظات قبل أن تلتقطه من أختها بيد مرتعشة، فكاد يسقط منها لولا أن لاحقته، ثم نظرت لشاشته لثوان قبل أن ترد بصوت مبحوح:

ـ ألو.

جاءها من الطرف الثاني صوت مراد الهادئ وهو يقول:

ـ مساء الخير... أنسة بلسم معايا؟

ـ أيوة... مين معايا؟

ـ أنا الرائد مراد الراوي... الضابط اللي كان موجود في الكمين ساعة الحادثة.

ارتعشت يدها أكثر وأكثر وشعرت وكأن أحدهم يقبض على قلبها بيد مثلجة، فنظرت لأختها بعين زائغة وهي تشير بيدها الأخرى للهاتف وتهز رأسها بأنه هو، فأشارت لها مي أن تتماسك وتتابع حديثها، فحاولت لكن خرجت الكلمات متلعثمة وهي ترد:

ـ اه أهـ أهلاً بحض بحضرتك... خير يا فندم؟

ـ يا ترى عاملة إيه دلوقتي؟ أنا عرفت أنك خرجت من المستشفى الحمد لله.

ـ الحمد لله... خرجت النهارده.

ـ ربنا كتبلك عمر جديد... تعرفي أنك الناجية الوحيدة من الحادثة ومعاكي حالة تانية وبس؟

ـ إيه... لا طبعاً معرفش... .للدرجة دي كانت الحادثة بشعة؟

ـ قدر الله وما شاء فعل... المهم دلوقتي أنك رجعتي تنوري بيتك من تاني.

ـ شكراً لحضرتك.

ـ تعرفي إني كنت بطمن عليكي على طول؟

ارتسمت ابتسامة على وجهها الذي تورد خجلاً وهزت رأسها ايجاباً دون أن تنبس بكلمة واحدة فأردف مراد:

ـ طبعاً عايزة تسأليني اشمعنى انتي بالذات اللي كنت بسأل عليها... صح؟

ـ صح.

ـ بصراحة... أسباب كتيرة خلتني عايز أعرف أخبارك وأطمن عليك أولاً بأول... من ضمنها أنك الوحيدة اللي خرجتها بنفسي من بين العربيات المدغدغة.

ـ انت اللي أنقذتني؟

ـ مش بالظبط... أنا سمعت المسعف بيقول إن في شخص حي فجريت عليه وهناك لاقيتك وكنتي للأسف في حالة صعبة أوي... ساعتها محستش غير وأنا شايلك لعربية الإسعاف بنفسي.

ـ بجد مش عارفة أشكر حضرتك ازاي على اللي عملته معايا.

ـ متقوليش كده... أنا معملتش غير واجبي.

ترددت بلسم لبعض الوقت قبل أن تسأله:

ـ أنت قلت إن في أسباب كتيرة خليتك عايز تطمن عليا باستمرار، ومع ذلك مقولتليش منها غير سبب واحد..يا ترى ممكن أعرف الباقي؟

ـ أكيد طبعاً بس... قبل ما أقول أي حاجة عايز منك طلب وياريت توافقي عليه.

ـ ايه هو؟

ـ ممكن نتقابل في أي مكان تحبيه؟

اتسعت عيناها في دهشة وكأنها لم تكن تتوقع طلبه، فالتفتت لأختها وأشارت بيدها شارحه لها ما يقول، فهزت مي رأسها أن أقبلي طلبه، فظهر الارتباك على ملامح بلسم وخرج صوتها متلعثماً وهي تسأله:

ـ نتقابل!! خير يا فندم هي الأسباب دي مينفعش تقولهالي في التليفون؟

ـ بصراحة لأ... أنا عايز أشوفك يا آنسة بلسم وأقولهالك وجهاً لوجه.

ـ حضرتك كده قلقتني... وبعدين أنا مش متعودة أخرج مع حد خاصة وأن مفيش سابق معرفة بينا.

ـ آنسة بلسم..آخر واحد ممكن تقلقي وانتي معاه هو أنا... أرجوكي وافقي وصدقيني مش هتندمي أبداً... وأول ما تبقي عايزة تمشي هتتفضلي طبعاً... هه قولتي إيه؟ موافقة؟

وللمرة الثانية تهز رأسها دون أن تنطق بكلمة مكتفية بخفقات قلبها التي تكاد تصل لمسامعه وترد عليه بدلاً منها.

يوم متقلب المزاج، دارت في ساعاته القليلة الفصول الأربعة، فالساعة لم تتجاوز الحادية عشرة صباحاً، ومع ذلك شعر الناس بالبرد والحر وتعبقت أنوفهم برياح محملة بالأتربة، مما جعل عمرو يقف متردداً أمام البناية، لا يدري أيكمل طريقه أم يصعد لشقته مرة أخرى. كان يشعر بالاشتياق للشارع وحكاياته التي لا تنضب، منذ زمن وهو يعشق السير في الطرقات، لا يستحي أن يلقي بمسامعه على حوار يدور هنا أو يلصق أذنه بمكالمة تدور هناك، يكتفي بالصمت والمشاهدة كأنه آلة تصوير تلتقط تفاصيل الموجودات من حوله.

قد تكون عادة تطبع بها كونه وحيد أبويه، إذ كان الصمت هو السمة الغالبة لمنزلهم، فحاول أن يملأ ذهنه بحكايات من حوله، أما العادة الأخرى التي لم تفارقه يوماً فكانت القراءة، كان ينهل من أي كتاب تقع عليه يداه، فبات صديقه الثاني بعد جمال.

تزاحمت الأفكار بعقله فسار شارد الذهن، تحركه قدماه بشكل لاإرادي نحو طريق دأبت على السير فيه، وهو طريقه نحو مكتبة عتيقة تقبع بأحد شوارع وسط البلد، هناك يجد متعته، ليس فقط لكونها تضم تشكيلة يصعب العثور

عليها في مكان آخر، بل لأنها توفر جواً ساحراً ينقله من عالمه الواقعي إلى عالم حر لا توجد به قيود.

أوقفته قدماه أمام المكتبة، ببابها الخشبي الذي طفقت على سطحه تجاعيد الزمان، تراصت خلف واجهتها الزجاجية كتب عاصرت الحياة لأكثر من خمسين سنة أو أكثر، أغلفتها العتيقة نافذة تطل على زمن ولى ولن يعود، ارتسمت ابتسامة هادئة على وجه عمرو وهو يتأمل الكتب المرصوصة على الأرفف الخشبية العملاقة التي تستند على حوائط المكتبة، وفي المنتصف كانت هناك طاولة تمتد بطول المكان، تراصت عليها هي الأخرى مجموعة من الكتب، وفي نهايتها قبع مكتب معدني قديم، جلس خلفه عم عباس، صاحب المكتبة، بجسده البدين، ووجهه الأبيض المشرب بالحمرة، رغم سنوات عمره التي جاوزت السبعين، خيوط من فضة كست رأسه، فلمعت تحت مصابيح المكان، شارب فضي دقيق قام بتهذيبه فصار أقرب لشارب نجوم السينما في الأربعينيات.

تذكر لقاءهما الأخير قبل الحادث حينما تغيب لفترة كبيرة عن الحضور، حينها لاحقه عم عباس بأسئلة عديدة عن سر تغيبه طوال الفترة السابقة، وهو يطمئنه بإجابات مقتضبة، وبعد أن أفرغ ما في جعبته، هم بالصعود للدور الثاني من المكتبة حيث جلسته المفضلة، فاستوقفه عم عباس ومد يده نحو درج مكتبه والتقط منه ورقة، ثم ناولها له فأمسكها وتطلع بها للحظات، ثم رفع عينيه متسائلاً:

ـ كانت فين دي؟

ـ كالعادة... محطوطة في آخر كتاب كنت بتقرأ فيه قبل الغيبة الطويلة دي.

عاود عمرو النظر للورقة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة دفعت عم عباس لسؤاله:

ـ مش خسارة الخواطر اللي بتكتبها دي وبعد كده بترميها؟

ـ أومال أعمل بيها إيه يعني؟

ـ أنا برضه اللي هقولك تعمل بيها ايه... هو أنت يا بني مش صحفي أد الدنيا؟ ما تشوفلك دار نشر تجمعهالك في كتب وتنزلها في السوق.

ـ يا عم عباس دي مجرد خواطر مش كتاب ولا رواية ولا حتى شعر عشان حد يتحمسله ويطبعه... ده غير انها خواطر عادية مش حلوة حتى... أنت بس اللي عشان رجل جميل بتشوف اللي حواليك زيك.

ـ لا والله يا بني انت فعلاً قلمك حلو وكلامك عشان طالع من قلبك وبصدق يقدر يوصل بسهولة لأي قلب ويلمسه.

ـ ربنا يخليك يارب.

وبنهاية الجملة توقف شريط الذكريات عن الدوران، وعاد عمرو يتطلع للواجهة الزجاجية للمكتبة، وقد مد يده نحو مقبض الباب ينتوي الدخول، لكنه عاد وأرخى ذراعه لجانبه وبدا وكأنه تراجع عن قراره، ثم ألقى نظرة أخيرة على عم عباس وأدار ظهره مبتعداً حتى ابتلعه زحام الشارع.

الموعد

لملمت الشمس خيوطها الذهبية وتأهبت للرحيل، فاكتست السماء بسحب نصف مظلمة ونصفها الأخر مشتعل بحمرة خجولة توشك على الخمود، فتحت أعمدة الإنارة أبصارها لكن بعيون مازال يملؤها العبوس، فخرجت أضوائها ضعيفة بالكاد تنير أمامها لعدة سنتيمترات، أما الشارع فكان كعادته لا يزال يعج بالسيارات والمارة، كعجلة لا تكف عن الدوران.

أمام أحد المولات الشهيرة بمدينة نصر، توقفت مي بسيارتها، وبجوارها جلست بلسم وقد ارتدت سترة قطنية خفيفة طُبع على ظهرها رسم جميل لغصن يمتلئ بالورود، وأسفلها بنطلون جينز أبرز جمال قوامها، كان جسدها ينتفض رغم اعتدال الجو، مما جعل مي تلتفت لها وتقول:

ـ إيه يا بنتي؟ حرام عليكي وترتيني... من ساعة ما نزلنا وأنتي مبطلتيش فرك.. استهدي كده بالله وان شاء الله هيبقى يوم حلو.

ـ يارب يا مي... أنا مش عارفة هقعد ازاي معاه كده... ونتكلم ونفتح في مواضيع... انتي عارفة أنا مليش في الجو ده.

ـ عارفة والله... بس ده شكله شاب محترم ومش بتاع حوارات.. انتي بس حاولي تهدي عشان تقدري تكوّني عنه رأي سليم.. اتفقنا؟

هزت بلسم رأسها موافقة فأردفت مي:

ـ يلا بقى أنزلي عشان تلحقي ميعادك... يلا.

دفعتها مي برفق في كتفها، ففتحت الباب وسارت لباب المول بخطوات متعثرة، تفرك أصابعها بقوة ولسان حالها يلومها على مجاراة اختها. على الجانب الأخر جلس مراد داخل الكافيه، وعيناه معلقة بباب المكان، ينظر بين الحين والآخر لساعته، ثم يرجع بجسده للوراء ليتأكد من تمام هندامه من خلال المرآة التي تحتل الحائط المجاور له، يمرر يده بين خصلات شعره البني، يحرك ياقة القميص بشكل عصبي، وفجأة تسمرت يده على وضعها بعدما لمح بلسم تقف مرتبكة عند الباب. قام مسرعاً نحوها وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، وما إن لمحته بلسم يتقدم حتى تضاعفت رعشة جسدها وودت لو أنها التفتت تجاه الباب وأسرعت للخارج، لكن يده الممدودة لها استوقفتها، فتسمرت مكانها وحاولت أن تتماسك وهي تمد يدها لتصافحه، لكن الرعشة أبت أن تفارقها، بل تحولت لانتفاضة قوية ما إن لمست يده، فحاول أن يطمئنها بابتسامته الهادئة وصوته الذي خرج خافتاً وهو يقول:

ـ ازيك... عاملة إيه؟

ـ الحمد لله.

تنحى جانباً وهو يشير لإحدى الطاولات قائلاً:

ـ اتفضلي هنا.

تقدمت بخطواتها المتلعثمة فأسرع بجذب المقعد ليجلسها ثم دار حول الطاولة ليجلس على المقعد المقابل لها. لحظات من الصمت مرت وكأنها ساعات، لم

ينبس أحدهما بكلمة واحدة، فاصل من الابتسامات والنظرات الخاطفة، وكأنها مبارة لم يحن موعد انطلاقها، حتى استجمع مراد شجاعته وقرر أن يتحرر من خجله. حكى لها عن الحادث وكيف كانت الأحداث متلاحقة بشكل مخيف، روي لها اللحظات الاولى لإنقاذها واصفًا لهفته وخوفه عليها رغم أنها المرة الأولى التي يراها فيها. شعرت بالبرودة تجتاح أطرافها فأخذت تفركها بقوة لعلها تبعث فيهما الدفء من جديد، لاحظ ارتباكها فأدار دفة الحديث نحو عائلته فحكى لها كيف يعيش حياة هادئة مع أمه وابيه، بينما تعيش أخته الوحيدة مع زوجها في إحدى دول الخليج، سألها عن حال أختها، فارتسمت الدهشة على وجهها للحظات قبل أن تسأله باستغراب:

ـ أنت تعرف أختي؟

ـ مش بالظبط... بس عرفت أنكم عايشين لوحدكم في بيتكم اللي في الضاهر بعد وفاة الحاج والحاجة.

ولأول مرة منذ جلست معه، تنظر لعينيه مباشرة وتسأله بصوت هامس:

ـ أستاذ مراد... ممكن أعرف أنت بتجمع عني المعلومات دي ليه؟

غرق بدوره للحظات في عينيها العسليتين، ثم ابتسم بهدوء قائلاً:

ـ خطفتيني.

فغرت فمها وارتعشت جفونها بقوة، ثم ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تُرجع بيدها خصلات من شعرها الناعم خلف أذنها، وحينها تماسكت سألته بصوت مبحوح:

ـ نعم؟!!!

ـ قبل ما أجيلك فكرت كتير في إجابة للسؤال ده لأني كنت عارف إنك هتسأليه وللأسف ملاقتش رد مناسب غير ده... بلسم... انتي فعلاً خطفتيني مش بكدب أو بعمل عليكي حوار... لأول مرة في حياتي أشوف إنسانة بكل حتة فيا... والله مش عيني بس اللي شفتك... ده عقلي.. وقلبي.. وكل حاجة فيا حستك... مش هكدب وأقول إني حبيتك لأني أصلاً معرفش يعني إيه حب... لكن كل اللي أقدر أقوله إني من لحظة ما شوفتك وأنا عايز أفضل جنبك... جايز أكون في نظرك مجنون أو متسرع لكن أنا مفكرتش في أي حاجة غير إني عايز أكون معاكي. حتى احتمالية أنك تكون مرتبطة بإنسان تاني محطتهاش في دماغي... يمكن عشان مزعلش أو جايز يكون عندي أمل بأن مفيش حد تاني.

تخضبت وجنتاها باللون الأحمر حتى كادت الدماء تتفجر منهما، بللت شفتيها بطرف لسانها في محاولة منها لاسترداد وعيها الذي ذاب من كلماته، فجاء صوتها الهامس ليزيدها جمالاً:

ـ أستاذ مراد أنا... أنا متلخبطة أوي ومش عارفة أقول أي حاجة... أنا إنسانة طول عمرها عايشة لأهلها وشغلها وبس... حتى في كليتي كانت علاقاتي في حدود الدراسة وبس... ونفس الشيء عملته في شغلي.

ـ يعني أفهم من كده أنك مش مرتبطة؟

أجابته سريعا وبصوت عالي:

ـ لالالالا.

وحينما شاهدت الابتسامة المرتسمة على وجهه لإجابتها السريعة المتلهفة، أطرقت رأسها خجلاً وأخذت تعبث بأصابعها في المنديل الموضوع أمامها، ولم ينقذها سوى الجرسون الذي جاء بالمشروبات ووضعها أمامها، فالتقطت الكوب وارتشفت منه رشفة صغيرة تبلل حلقها الجاف قبل أن تسمعه يقول:

ـ بلسم أنا مش هسببلك قلق أو ارتباك أكتر من كده بس هطلب منك حاجة ويارب توفقي عليها.

ـ إيه؟

ـ ممكن تدخليني حياتك عشان نعرف بعض أكتر؟

ـ مش شايف أنها كلمة غريبة شوية؟

ـ بالعكس دي اكتر كلمة مناسبة ممكن نبتدي بيها... لان مستحيل أعرض عليك الارتباط واحنا لسة منعرفش حاجة عن بعض

ـ ارتباط!!!

ـ أيوة ارتباط... مالك اتخضيتي كده ليه؟ هو الموضوع ده مش محطوط في دماغك ولا ايه؟

ـ لا طبعاً موجود بس القصة أني محستش بأي واحد عرض عليا الموضوع ده قبل كده.

ـ تمام... ومعايا أنا... حاسة بإيه؟ يعني عايزة تكملي ولا مفيش أمل؟

أطرقت رأسها أرضاً وعلى وجهها ابتسامة خجولة وأجابت دون أن تنظر له:

ـ بجد مش عارفة.. كل اللي حاسة بيه لخبطة فظيعة مخلياني لا عارفة أفكر ولا عارفة أعمل إيه... بس....

ـ بس إيه؟

ـ بس بالرغم من ده كله في حاجة جوايا مخلياني عايزة أسمعك.

ـ وأنا مش عايز أكتر من كده في الوقت الحالي... هتسمعيني واسمعك..اتفقنا؟

حانت منها نظرة لعينيه المتلهفة فأخذت تدور في المكان هرباً منها لكن في النهاية عادت واحتضنته بعينيها وهي تهز رأسها موافقة على طلبه، حينئذ تهللت أساريره واقترب منها هامساً بدفء:

ـ صدقيني... مش هتندمي.

كان الهدوء يلف المكان في ذلك الوقت المبكر من الصباح، فزحفت أشعة الشمس لتنير الطابق الذي تقع فيه شقة عمرو، والذي فتح باب شقته وبحوزته

حقيبة سوداء، حملها على كتفه بحرص شديد، أغلق الباب خلفه بهدوء وهم بالنزول لولا أن استوقفه صوت أنثوي ناعم يناديه. التفت خلفه ليجد شابة جميلة في العقد الثاني من عمرها، قصيرة، رشيقة القوام، ترتدي فستاناً أنيقاً يقترب في لونه من حجابها، تزين وجهها بابتسامة هادئة، انتقلت بدورها إلى فم عمرو وهو يسألها عن أحوال أبويها وعملها، فطمأنته بشكل سريع قبل أن تنهال عليه بعشرات الأسئلة، عن صحته وأحوال عمله وأحوال أمه...

كل هذا وعمرو كعادته يجيبها دون أن يشعرها بملله، فهذا المشهد كان يتكرر بشكل شبه يومي، مما جعله يعتاد عليه، خاصة أنه يعلم شعورها تجاه.

هند... هي قصة الحب المعتادة، بنت الجيران التي تلاحق جارها بنظرات الإعجاب التي لا يمكن إغفالها، صحيح أنه لم يشجعها يوماً أو يظهر لها إعجاباً متبادلاً، لكن عدم صده لها جعلها تتعلق بالأمل أكثر فأكثر، وتنتظر يومًا يتحطم فيه الحاجز الموضوع بينهما.

طالت الوقفة عن كل مرة، لم يدر ماذا يفعل، وإذا به يسألها أمراً لم يجل بخاطرها أو خاطره هو شخصياً، لكن يبدوا أن ما مر به كان فوق احتمال البشر، فأراد أن يكسر روتين حياته ولو بالكذب، فسألها أن كان من الممكن أن تقبل دعوته على العشاء. للوهلة الأولى تسمرت في مكانها غير مصدقة ما سمعته، استغرقت لحظات كي تستوعب ما قاله، وحينما أفاقت ضحكت بصوت عال وهي تخبره بموافقتها، فأسرع بالنزول من على درجات السلم وهو يخبرها بالمكان والموعد،

وكأنه يهرب قبل أن يغير موقفه. وبينما هو مسرع إذا بتوازنه يختل ويسقط من على درجات السلم، لتظلم الدنيا أمام عينيه؛ وكما أظلمت فجأة عاد النور فجأة، ليجد نفسه مازال واقفاً أمام الباب وكل ما سبق ما هو إلا مشهد من فيلم ذكرياته الذي بات يدور هذه الايام دون سابق إنذار، فهز رأسه لينفض عنها تراب الماضي، ثم مضى في طريقه متمهلاً حتى خرج من باب البناية وقد بدا على وجهه القلق. سار بخطوات متعثرة غير مصدق ما وقع، فعقد حاجبيه والتفت خلفه باتجاه البناية، وكأنه يهم بالعودة، لكن في النهاية عاد واستأنف سيره، بعدما أقنع نفسه بأنه مجرد تشوش عقلي جراء الحادث الذي وقع له، وهنا لانت ملامحه وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة بعدما توصل عقله للصيغة التي أراحته.

على عكس صخب الشارع الرئيسي، كان هذا الشارع الجانبي غارقاً في الهدوء التام، فكادت تخلو جنباته من الحركة، لولا سيارات سكان المنطقة التي كانت تخرج من الجراجات القابعة أسفل كل بناية، وأمام إحدى بنايات الشارع توقفت سيارة مي الزرقاء، لتترجل منها بلسم وعلى وجهها ابتسامة ساحرة، قبل أن تنحني لشقيقتها توصيها بأن تسير بحرص حتى تصل لشركتها هي الأخرى بسلام. طمأنتها الأخيرة قائلة إنها ستعود إليها في تمام السادسة لتقلها للمنزل، فهزت بلسم رأسها موافقة وهي تتجه إلى داخل البناية. توقف بها المصعد في الطابق الخامس، لتخرج منه بخطواتها الواثقة التي ارتفع رنينها في

المكان وكأنها تعلن وصولها، فتحرك الجميع باتجاهها، عبارات التهنئة والمباركة بسلامة الوصول حاصرتها من جميع الجوانب، عشرات الأيادي مُدت إليها وهي تحاول أن تتحرك نحو مكتبها، عاصفة لم تستغرق سوى لحظات لكنها كانت كافية أن تفرغ المخزون البدني لها، فأسرعت بإلقاء جسدها المنهك على مقعدها وهي تهز رأسها وتلوح لهم من بعيد، ثوان مرت عليها حاولت أن تستجمع فيها شتات أفكارها، قبل أن تنظر لحاسوبها وتمد يدها لتشغله، تطلعت لشاشته السوداء للحظات لكنه لم يظهر أي استجابة، فعقدت حاجبيها باستغراب قبل أن تسمع أحدهم يقول:

ـ الفيشة مش محطوطة أصلاً يا أستاذة.

التفت خلفها سريعاً، ليطالعها شاب في نهاية العشرينات، طويل، رياضي البنية، أسمر، حليق الشعر إلى حد ما، تنبت لحيته بشكل واضح، ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة، وما إن رأته بلسم حتى أجابته بابتسامة مماثلة:

ـ حسام... . أخبارك إيه؟ أنت فين يا عم؟

وقف بجانبها عاقداً ساعديه أمام صدره قائلاً:

ـ أسف والله على التقصير يا بلسم... عندك حق لو زعلتي..بس والله أنا كنت على اتصال بمي طول ما أنتي في الغيبوبة.

ـ وبعد الغيبوبة؟

ـ الحاجة كانت تعبانة شوية وبعدها حصل حوار معايا كده ملوش لازمة.

ـ حوار إيه؟

ـ يا سيتي متشغليش بالك... لما تفوقي كده وتشيدي حيلك أبقى أحكيلك.

ـ ماشي يا عم... أومال فين البت هدير؟

وفجأة وقبل أن تكمل عبارتها، طوقتها ذراعا هدير من الخلف وأخذت تتمايل بها يميناً ويساراً، فتعالت ضحكاتها ووقفت بلسم لتحضنها، وهي تجذبها من شعرها الأشقر " الكرلي" قائلة:

ـ طيب حسام ومامته كانت تعبانة... سعادتك بقى كنتي فين؟

ـ مسافرة مع أبو العيال.

ـ إيه ده!!! هو حصل إيه في الدنيا؟ أبو العيال حن عليكي وسفرك؟ يظهر أني طولت في الغيبوبة أوي وحاجات كتير اتغيرت.

ـ متشطحيش بخيالك أوي كده، كل الحكاية أن الشركة كانت بعتاه لفرعها اللي في الغردقة فقال بدل ما يقعد لوحده يكسب فيا ثواب ويخدني معاه.

ضرب حسام كفاً بكف قائلاً بتعجب:

ـ مفيش فايدة... يعني الراجل مخدكيش أو خدك برضه مش عاجب... يا ستير يارب.

ـ شيخ حسام أبوس إيدك مش ناقصاك، أنت ولا عارف حاجة... خليك أنت بس في البوليس اللي وراك في كل حتة.

بلسم (بفزع):

ـ بوليس!!! بوليس إيه يا حسام؟

ـ مفيش حاجة والله... متشغليش بالك... حوار عبيط كده وهبقي أحكيلك عليه على رواقة بعيد عن الشيء ده.

وهنا نهض مسرعاً وهو يحرك بيده بعلامة الجنون، فرفعت هدير صوتها قائلة:

ـ أنا مجنونة؟ ماشي يا حسام... ماشي.

ـ والله عنده حق.

ـ تصدقي أنا اللي غلطانة أني سيبت شغلي عشان أطمن عليكي.. يلا بالسلامة.

وهمت بالنهوض لولا أن جذبتها بلسم من ذراعها وأجلستها بالقوة وهي تقول:

ـ اخلصي بقى... عشان عايزة أحكيلك على حوار.

ـ حوار إيه؟

تنهدت بلسم بصوت عال ثم قصت ما حدث بينها وبين مراد وهدير تستمع بلهفة دون أن تنبس بكلمة واحدة أو تقاطعها، وما إن انتهت بلسم حتى أسرعت بسؤالها:

ـ مش فاهمة برضه!!! انتي عمالة تحكي عن الزبون ده بكل أدب وذوق ودي حاجة حلوة طبعًا، لكن مش ده اللي مفروض يحصل.

ـ قصدك ايه؟ مش فاهمة؟؟

ـ يعني المفروض انك تحكي عنه بحب، بلهفة، لكن مش بالطريقة اللي سمعتها دي.

تراجعت بلسم للوراء وشردت بنظرها بعيداً وهي تنقر بأصابعها على سطح مكتبها قائلة:

ـ عندك حق... أنا مش عارفة أنا عايزة إيه... شاب فيه كل الصفات اللي أي بنت تتمناها ومع ذلك كل اللي حساه ناحيته هو الاحترام والراحة النفسية... ودي حاجات ممكن الواحدة تحسها مع أي شخص قريب منها مش مع... مع حبيبها.

هزت هدير رأسها موافقة وعلى شفتيها ابتسامة مرتبكة قبل أن تسألها:

ـ طيب... مش ممكن الإحساس الناقص ده يكمل لما تقربي منه أكتر؟

ـ مش عارفة... احنا بنتكلم بشكل شبه يومي من يجي أسبوعين لكن لسة قلبي مقلش إنه هو ده.

ـ بصي يا لولو... انتي عمرك ما دخلتي في أي علاقة عاطفية جادة قبل كده، وجايز يكون ده اللي عملك الارتباك... عشان كده لازم تصبري أكتر وتعيش معاه لحظات كتير تقدر تخليكي تمتحني قلبك وشعورك ناحيته... بس لازم برضه نحط في الاعتبار أن الحب هو الحب.

ـ يعني إيه؟! مش فاهمة؟!

ـ يعني بيني وبينك الحب مش محتاج وقت ولافترة اختبار... الحب بيخليكي في دنيا تانية لا ليها قواعد ولا قوانين... من الأخر... الحب بيخطف.

تجهم وجه بلسم بعد العبارة الأخيرة للحظات فربتت هدير على ركبتها ونهضت من مكانها وتحركت بعيداً، قبل أن تقف على بعد خطوات وتلتفت لها قائلة:

ـ بلسم حاجة أخيرة... اوعي تظلمي أو تجرحي... صحيح أنا قلتك تصبري، لكن متخليش المدة تطول عشان ميتعلقش بيكي على الفاضي وترجعي تقوليله باي باي... .فهمتي يا جميل... سلام.

قالتها وتحركت بعيداً بعدما زرعت القلق بداخل صديقتها وتركتها فريسة لمئات الأسئلة، تنهش عقلها كيفما تشاء.

وقف عمرو أمام المرآة يصفف شعره، وعيناه معلقة بالفوضى العارمة التي أحدثها، بعدما أفرغ محتويات الدولاب على السرير.

التفت خلفه وتقدم للأمام وهو يحك ذقنه بيده متسائلاً ماذا يرتدي؟ خاصة أنه اللقاء الأول ويريد أن يترك انطباعاً جيداً لدى جارته هند، نظر للساعة التي تزين الحائط المقابل له، فتوترت أعصابه أكثر، إذ لم يبق على الموعد سوى نصف ساعة، وهو لا يزال بالبيجامة، وفجأة ارتفعت طرقات هادئة على باب غرفته أعقبها صوت أمه بالسؤال:

ـ إيه يا حبيبي مش هتيجي تشرب الشاي معايا؟

تسمر في مكانه وصوت ضربات قلبه يعلو على صوت طرقات أمه، ابتلع ريقه ثم تقدم ببطء نحو الباب وفتحه، وهو يحاول أن يرسم على وجهه ابتسامة خرجت مرتبكة رغماً عنه، أفسح الطريق لها فتقدمت لداخل الغرفة وعلى وجهها ابتسامة عريضة انحسرت رويداً رويداً حينما وقعت عينيها على السرير، فتسمرت مكانها وسألته دون أن تلتفت له:

ـ إيه اللي شقلب حال الأوضة كده؟ومالك رامي هدومك كده ليه على السرير؟

ـ أصل... أصل أنا خارج.

ـ خارج؟! خارج رايح فين؟

أولى ظهره لها ووقف أمام المرآة متحججاً بتصفيف شعره وأجاب دون أن يلتفت لها:

ـ معلش بقى يا جميل... أصل خارج مع ناس لأول مرة وعايزهم يشفوني وأنا متظبط على الأخر.

ـ مين الناس دي؟ أعرفهم؟

ـ هم مش ناس هي... هي واحدة.

علا صوتها وهي تردد خلفه:

ـ واحدة!! واحدة مين؟ أنا مش فاهمة حاجة؟ ماتتكلم على طول يا بني.

وهنا التفت عمرو بهدوء وأجابها وهو يضحك بشكل عصبي:

ـ هند... هند جارتنا... .أصل اتقابلنا الصبح واتفقنا أننا نتعشى سوى بره.

عقدت حاجبيها وحدقته بعينين باردتين خلت من أي مشاعر قبل أن تتراجع للخلف وتجلس على طرف السرير متسائلة:

ـ قابلتها الصبح؟

أسرع نحوها وجلس على ركبتيه يقبل يدها بقوة قائلاً:

ـ أه و... وعزمتها على العشا ووافقت... وبيني وبينك يا ماما أنا زهقت ومحتاج أغير الناس اللي بخرج معاها... حضرتك عارفة أني مش بخرج غير مع جمال وأحيانا زمايلي في الشغل.

ربتت على خده برفق وطبعت قبلة على رأسه وأجابت بابتسامة حانية:

ـ طيب يا حبيبي أخرج وأنبسط... .المهم (لوحت جذعها وأشارت لقطعة ملابس ملقاة على السرير) خد الطقم ده... بتبقى زي القمر فيه.

تناوله واخذ يقبلها مرة أخرى وهو يقول:

ـ ربنا ما يحرمنيش منك ولا من دلعك يا ست الكل... هقوم بقى البس عشان اتأخرت اوي.

تحرك ليقف أمام المرآة بعدما طبع قبلة على رأسها ثم شرع في تغيير ملابسه، تتابعه عينيها بمزيج عجيب من الفرحة والخوف و... ..والتعجب.

موسيقى كلاسيكية تلف المطعم، تشعرك وكأنها تصدر من جدرانه، أنواره الصفراء الخافتة تضفي جواً دافئاً لا يمكن إغفاله، ازدحام المكان لم ينقص من جماله، أثاثه البني المزين بنبات الظل الأخضر منح رواده راحة نفسية، فتقاربت الرءوس وتشابكت أيادي العشاق، باتت همساتهم كمقطوعة تضاف لموسيقى المكان.

وبأحد أطراف المطعم، جلس عمرو في انتظار هند التي تأخرت عن موعدهما، تسلل القلق لنفسه فبدأ يفرك أصابعه بقوة، طاف بعينيه في أرجاء المطعم كغريق يبحث عن طوق نجاة، لم يدر سبب تأخرها، تصارعت الأفكار داخل رأسه ونخرت الحيرة نفسه، تساءل..هل تاهت؟ هل حدث شيء لها وهي قادمة؟أم حدث ما منع نزولها من الأساس؟ أسئلة لم يعرف إجابتها وإن ظلت تنساب لعقله كموسيقى المكان، أخرج هاتفه واتصل بها، ثوان مرت وهذا الرنين الرتيب يدوي داخله رأسه دون إجابة، وفي النهاية أنهى اتصاله بعدما يأس من أجابتها، فأعاد هاتفه لموضعه وقد اتخذ قراراً بالرحيل.

أغمض عينيه للحظات وكأنه يكبت حزنه الممزوج بالغضب، وحينما فتحهما ارتد للخلف بحركة مفاجئة وبوجه يعتريه القلق والدهشة، تلفت حوله بحركة سريعة وكأنه يتأكد من أن أحداً لا ينتبه له، ثم تظاهر بالانهماك في الطبق الملقى أمامه، وجاهد كي يخفي عينيه التي رسم الاحتقان بداخلهما شبكة دموية من شرايينه، طابور طويل من التساؤلات دوت خطواته في ممرات عقله، لا يدري

إن كان ما رآه حقيقة أم خيالاً، رفع عينيه ببطء، وحينما تأكد من انشغال من حوله بتناول الطعام، ذهب ببصره تجاه الواجهة الزجاجية للمكان، المطلة على الشارع الخارجي، لتصطدم عيناه بنظرة جفت لها الدماء في عروقه، نظرة من شخص لم يخطر بباله أن يراه... من أمه.

غدر منتصف الليل

جلس مراد داخل سيارته وعيناه تراقبان أفراد الكمين وهم ينظرون داخل السيارات لفحص أفرادها كما هو متبع، نفث دخان سيجارته بقوة وعاد يتطلع لهاتفه وكأنه ينتظر أن يرن، تشابكت الصور داخل عقله فابتعد عن الشارع وما يدور فيه، حتى إنه لم يشعر بتلك الخطوات الهادئة التي اقتربت منه، والتي جاهد صاحبها في إخفائها، وفجأة ارتفعت على زجاج سيارته طرقات متتابعة جعلته يعتدل فزعاً بمكانه وهو ينظر لصاحب اليد التي أخرجته من خيالاته وألقت به للواقع من جديد.

حملق بيوسف الذي استند على الباب وبكفه المفرود على الزجاج، ثم عقد حاجبيه غضباً وزم شفتيه في استياء وهو يهز رأسه متعجباً، ثم نظر له متسائلاً:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله... انت عايز إيه؟وبعدين إيه اللي جابك هنا؟

ـ ينفع كده برضه؟ يعني أخوك وحبيبك جي يونسك ويقضي معاك ساعتين الكمين تقابله بالشكل ده؟

ـ شكراً يا سيدي... مش عايز حد يزفتني... روح لعيالك يا خويا... ومتنساش تشتري فينو وأنت طالع، أحسن أم العيال تعلقك من قميص العيد ده اللي أنت لبسه.

ـ مين ده اللي يتعلق؟ ده انا أعلقك وأعلقها وأعلق الشارع اللي واقف ده كله.

لوح مراد بيده مستهزئاً، مردداً بعض الكلمات بصوت خافت، فاستطرد يوسف قائلاً:

ـ المهم... أخبارك إيه يا روميو الحدايق؟

أجابه مراد دون أن ينظر له:

ـ مفيش جديد.. يبقى الوضع كما هو عليه... بكلمها وتكلمني... بنرغي ونضحك، ونفتح في مليون موضوع لكن اللي انا نفسي فيه.. لسة مسمعتوش.

ـ يعني أنت عايزها تيجي تقولك أنا حبيتك ويلا بينا نتجوز.

ـ لا طبعاً أنا مش أهبل عشان أقول كده... بس برضه من حقي أحس أن اللي قدامي بتتقدم مني حتى ولو خطوة زي ما أنا بتقدم ناحيتها خطوتين وتلاتة وعشرة.

ـ في دي عندك حق... لكن سكوتها ده مش معناه أنك مش عاجبها... جايز في كلام جواها بس مكسوفة أو مش عارفة تعبر عنه... أصبر عليها شوية... وبعدين يا سيدي أنتم يادوب متكلمين من حوالي أسبوعين... وقبلها لا كانت شافتك ولا عرفت عنك حاجة... يا مراد أنا عارف انك حبيت البنت دي من أول نظرة، وده مش عيب ولا حاجة وحشة... محدش فينا له ملك على قلبه خاصة في الحوار ده، بس برضه من حقها إنها تاخد وقتها... فهمت.

شرد مراد بنظره بعيداً بعد كلمة صديقه الأخيرة، وكأنه يقلب ما دار بينهما في عقله مرة اخرى، فاحترم يوسف صمته وأشاح ببصره تجاه السيارت المارة منشغلاً بما يدور.

وهناك... وعلى بعد أمتار منهما، وقف ميكروباص مل ركابه من الحركة البطيئة للسير، فتململ بعضهم وتأفف البعض الآخر، وانهمك الباقون في مطالعة هواتفهم، ومنهم حسام زميل بلسم في الشركة، الذي انشغل عن الطريق بمكالمة طويلة مع أمه، عاتبته فيها على عدم الاستماع لنصائحها بحلاقة ذقنه، بعدما تسببت له في العديد من المشاكل، وكعادته تقبل كلامها وعتابها بصدر رحب، لأنه يعلم مدى حبها وخوفها عليه، لكن ذقنه لا تعد ـ بالنسبه له ـ مظهراً دينياً فقط وإنما هي عقيدة ثابتة بداخله لايمكن لأحد أن يمسها.

طالت المكالمة فلم يشعر بالميكروباص وهو يقف أمام الحواجز، حتى أنه لم ينتبه لأمين الشرطة الذي دار حول الميكروباص يتفحص ركابه بتمعن.

ـ انت... انت يا بيه يا اللي بتتكلم في التليفون.

اخترقت الجملة أذن حسام فرفع رأسه لأعلى مستكشفاً هوية قائلها، فاصطدمت عيناه بنظرات الأمين الصارمة والتي حدقه بها وهو يشير له قائلاً:

ـ أيوة انت... انزلي هنا.

عقد حسام حاجبيه قبل أن ينهي المكالمة مع والدته بكلمات مقتضبة زادت من قلقها عليه، وضع الهاتف بجيبه وهو يهبط من الميكروباص ليقف أمام الأمين الذي رسم الصارمة على وجهه وهو يسأله بلهجة أمرة:

ـ بطاقتك؟

خلا وجه حسام من أي تعبير وهو يمد يده مستخرجاً بطاقته من المحفظة ويناولها له، تلقفها الأخير بلا مبالاة، وأخذ يقلب فيها مردفاً:

ـ جي منين؟

ـ من الشغل.

ـ شغل إيه؟

ـ مش باين عندك في البطاقة؟

ـ مش قصتك... رد على السؤال.

ـ شركة اتصالات في وسط البلد.

ـ وبتشتغل فيها إيه؟

ـ لو قلتلك هتفهم؟

ـ أنت بتقول إيه ياض أنت.

نطق أمين الشرطة عبارته الأخيرة بصوت عال تناهى إلى مسامع يوسف ومراد، فالتفت كلاهما لمعرفة ما يجرى، وما إن لمح يوسف الواقعة حتى تحرك سريعاً

باتجاهما بينما بقى مراد بالسيارة يتابع الموقف من مكانه، وحين وصل كان الموقف ازداد اشتعالاً بصياح حسام في وجه الأمين قائلاً:

ـ احترم نفسك وأتكلم بأدب.

احتقن وجه الأمين بشدة وهمّ برفع يده لولا أن أوقفته صيحة من فم يوسف تأمره بالتوقف والتراجع للخلف، انصاع الأمين لأمره وهو يرمق حسام بنظرات نارية، بينما اكتفي الأخير بمط شفتيه في ضيق وهو يهز رأسه متعجباً، قبل أن يتناهى لمسامعه صوت يوسف وهو يسأل الأمين:

ـ في إيه؟

قص عليه الأمين ما حدث سريعاً ويوسف يستمع باهتمام وعيناه تتفحص حسام من أعلى لأسفل، وبعدما انتهى من روايته تقدم يوسف من حسام وسأله وهو ينظر في عينيه مباشرة:

ـ مش ترد عدل على الناس اللي واقفة على رجليها من صباح ربنا عشان تحمي جنابك وأهل جنابك.

ـ لما اللي قدامي يسأل باحترام أبقى أنا كمان أرد باحترام... وبعدين وقفتكم دي مش لله، ده شغلك اللي بنقبضك فلوس عليه.

مال يوسف للأمام أكثر واضعاً يده خلف أذنه متسائلاً:

ـ بتقبض مين يا روح أمك؟!

ـ بقولك إيه... متغلطش..اتكلم معايا بأدب زي ما باتكلم معاك... وبعدين زعلتك أوي أننا بنقبضك؟ مش هي دي الحقيقة؟ مرتبك يا سعادة الباشا من الضرايب اللي انا وغيري بندفعها، صح ولالا؟

هبط الصمت على المكان بعد جملة حسام الأخيرة وظل يوسف يرمقه بنظرات خاوية من أي تعبير قبل أن يتحرك فجأة ويمسك بياقة قميص الأول بعنف ويدفعه باتجاه الأمين صارخاً:

ـ خد الزبون ده وارميه في البوكس عشان نعرّفه في القسم الصح من الغلط.

حاول حسام التملص من يده الأمين التي أطبقت عليه كالكماشة مهللاً بغضب:

ـ هترميني في البوكس بتاع إيه... البطاقة معاك وسليمة عايز إيه تاني؟ ولاهو شغل تلاكيك وافتراء؟

رفع يوسف كفه وتحسس ذقن حسام وهو يجيبه ساخراً:

ـ وأنا شاكك في وشك الجميل ده، وحقي أني أخدك القسم وأتحرى عنك.. يا ترى عندك مانع؟

ـ يا سلام... هو عشان مربي دقني أبقى إرهابي وتشك فيا... بطلوا بقى الحركات دي... إيه يا أخي!! حرام عليك... انت عارف كويس اني معملتش حاجة.

أدار يوسف ظهره وهو يلوح بيده صارخاً:

ـ يلا يا حبيبي ابقى سمعنا المحاضرة دي هناك.

ـ استنى يا بني.

دوت الجملة من خلف يوسف فالتفت غاضباً لمعرفة هوية من كسر أوامره، ليجد مراد وقد أمسك بكتف حسام ويده الأخرى تشير للأمين كي يبتعد، وبالفعل نفذ الأخير الأمر بينما دفع مراد بحسام للأمام ناحية يوسف الذي وقف وعلى وجهه أشد علامات الغضب قسوة، منتظراً تفسيراً لما حدث.

أما مراد فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة وهو يقترب من صديقه قائلاً:

ـ معلش يا يوسف يا باشا ممكن لحظة؟

يوسف(غاضباً):

ـ لحظة إيه يا مراد؟ بقولك إيه..الواد ده هيتاخد على البوكس يعني هيتاخد على البوكس فاهم ولالا؟

ـ يا عم حاضر... اللي انت عايزه هيتنفذ... بس استهدى بالله وخليني اتكلم مع الأستاذ.

وهنا التفت مراد لحسام متسائلاً:

ـ إيه يا أستاذ؟! مش نهدّي نفسنا ونتلكم كويس؟

هم حسام بمواصلة هجومه والرد بعنف لولا أن أوقفته ابتسامة مراد التي زينت وجهه، فوجد نفسه كبركان خمدت نيرانه حتى أن صوته خرج خافتًا وهو يقول:

ـ يا فندم والله بتكلم كويس بس طريقة السؤال والشك فيا من غير ما أعمل أي حاجة خلتني أتنرفز.. وكأن كل جريمتي وذنبي أني مربي دقني!!

ـ لا طبعاً..محدش قال إن تربية الدقن جريمة..بس انت أكيد عارف ظروف البلد واللي بيحصل عن طريق ناس بتتخفى وراء الدقون.

ـ عارف والله..بس برضه ده مش مبرر أنكم تتعاملوا مع اللي مربين دقنهم على أنهم مجرمين لحد ما يثبت العكس... والله يا فندم في ناس كتير ملتزمة بالسنة مش أكتر ولا أقل.

ـ أنا عارف الكلام ده وعارف أنك بتقف في كماين كتير وبتتعرض لمواقف بايخة بسبب اصرارك على الالتزام بالسنة في وقت أصبحت وكأنها جريمة.. بس برضه أنت راجل متعلم وفاهم إننا في ظروف استثنائية ولازم نستحمل لحد ما تعدي إن شاء الله.

ـ عندك حق يا فندم... ربنا يعينك ويقدرك على المهمة الصعبة اللي أنت فيها.

ـ يا شيخ ادعلينا كلنا... هو أنا واقف لوحدي.

أطرق حسام رأسه ارضاً قبل أن يبتسم حينما فطن لقصد مراد، فنظر ليوسف الذي وقف صامتاً يتابع الحوار دون أن يتدخل وقال:

ـ معلش يا فندم لو كنت اتكلمت وحش بس غصب عني والله... حقك عليا.

أشاح يوسف بوجهه بعيداً وإمارات الغضب لاتزال على وجهه فأسرع مراد بالحديث موجهاً كلامه لحسام بينما عينيه معلقة بصديقه:

ـ عارف يا شيخ... يوسف باشا من أحسن الظباط اللي خدمت معاهم وقلبه أبيض جداً بس لما بيلاقي حاجة كده ولا كده مبيشوفش قدامه، بيشوط على طول.

ـ ربنا يعينه ويعينك يا فندم.

ـ ماشي يا شيخ... يوسف باشا..اللي انت عايزه هيحصل... بس أنا بقول الشيخ خلاص عرف أنت قصدك إيه والراجل اعتذر.. وبعدين أنا عارف أن قلبك كبير..هاه؟ نخليه يمشي؟

مرت لحظات قليلة من الصمت قبل أن يهز يوسف رأسه موافقاً دون أن يلتفت لهما، فتهلل وجه مراد وهو يقول:

ـ شكراً يا يوسف باشا... ربنا يبارك في سعادتك.

ربت مراد على كتف حسام وأشار له بالانصراف، فبادله الأخير الابتسامة قبل أن يسرع بالابتعاد عن الكمين، أما يوسف فقد التفت غاضباً وتابع حسام ببصره حتى اختفى، وهنا نظر لمراد صارخاً في وجهه:

ـ يا بني بطل أم الحنية دي اللي هتوديك في داهية.

قابل مراد غضب صديقه بابتسامة هادئة ثم تأبط ذراعه وسارا نحو السيارة وهو يقول:

ـ يا عم ولاحنية ولا حاجة، الموضوع ساعات بيحتاج هدوء مش أكتر... وهو على يدك أهو... لما أتكلمت معاه بالراحة الراجل سكت واعتذر كمان.

ـ مش كل الناس تنفع معاهم طريقتك دي.. في عالم ولاد كلب متجيش غير بضرب الجزمة.

ضحك مراد بصوت عال وربت على كتف صاحبه الذي هز رأسه متعجباً قبل أن يضحك بدوره ويسند مؤخرته على السيارة، متابعاً بعينيه حركة السيارات، أما مراد فقد عاد لمقعده وعبث بهاتفه لبعض الوقت ثم اغلقه وشرد ببصره بعيداً، وكانه يستحضر صورة بلسم لعلها تؤنسه وتقتل الوقت الباقي على أذان الفجر.

دقيقة بعدها دقيقة... ساعة تجذب ورائها الأخرى، حتى بدأ الليل يلملم ستائره وتخترقه خيوط النهار، تثاءب يوسف في كسل وألقى بسيجارته بعيداً، ثم أشار لأفراد الكمين حتى يرفعوا الحواجز ويعيدوا الطريق كما كان، دب النشاط في العساكر والأمناء في محاولة منهم للانتهاء من فض الكمين سريعاً، والرجوع للقسم ومن ثم الانصراف والعودة لمنازلهم، حتى أنهم لم يلحظوا تلك السيارة نصف نقل التي اقتربت من بعيد، كانت تسير بهدوء وكأن صاحبها يتاكد من انشغال أفراد الكمين، وفجأة زادت من سرعتها بشكل جنوني وتقدمت بقوة نحو الكمين الذي كان قد انفض تقريباً. اعتدل مراد في جلسته وهم بالخروج من السيارة، أما يوسف فصرخ عالياً محذراً قواته. التفت الجميع نحو السيارة وأسرعوا برفع بنادقهم ومسدساتهم نحوها، خرجت طلقاتهم تغربل جسم السيارة التي صارت كوحش ينقض على فريسته، تحطمت نيرانهم

كما تتحطم السهام على الأسوار المحصنة، لم يدر منهم ما حدث... حتى أصبحت السيارة بينهم، وفجأة أضاءت الشارع المظلم شمس صغيرة أحرقت كل من جاء في طريقها؛ تحولت السيارة لقطعة نار تلتهم أفراد الكمين، صرخات هنا وهناك... أنين... حطام... أجيج النيران، وفجأة... كما بدأ الأمر... انتهى.

تقلبت بلسم على سريرها أكثر من مرة، لوت عنقها يميناً ثم سكنت للحظات لكنها عادت ولوته الناحية الأخرى دون أن تفتح عينيها، أشواك نبتت أسفلها فلم يهنأ لها نوم، طاردتها كوابيس مزعجة، رأت فيها مراد تحاصره الكلاب وهو يقف وحيداً يصارعهم بجذع شجرة يحترق، طالت النيران يده فتلوى متألماً، ثم أطلق صرخة نهضت على إثرها فزعة، ومن بعدها لم تستطع النوم وظلت تتلوى على السرير، انتابها خوف شديد على مراد، ودت أن تهاتفه وتطمئن عليه لكن الوقت المتأخر حينئذ حال دون ذلك.

حانت منها نظرة خاطفة للمنبه، فوجدت الساعة تقترب من السادسة والنصف صباحاً، فنهضت ببطء وجلست على طرف السرير، شعرت بألم شديد ينتاب جسدها فتمطت بقوة قبل أن تنزع جسدها من كسله وتدفعه نحو الحمام لعله يعود لنشاطه.

أزاحت المياه المنهمرة إرهاقها ودفعته بعيداً، فتحركت بخفة أسفل الدش بعدما دب النشاط في أوصالها، وحينما انتهت تقدمت بهدوء للمرآة ومسحت البخار المتجمع عليها، تأملت وجهها المنهك وتلك الهالات السوداء التي زحفت أسفل عينيها، مدت يدها تتحسسها بحزن متسائلة، هل يعقل أن ليلة دون نوم تفعل هذا؟ أم أن تلك الهالات كانت موجودة من قبل ولم تنتبه لها؟ وهنا عادت صورة مراد لتتصدر أفكارها، لا تدرى لماذا لامت نفسها على نسيانه وانشغالها بأمر تافه، وقررت أن تتصل به حينما تنتهي من حمامها؛ لكن فجأة ارتفعت طرقات قوية وسريعة على الباب، فانتفض جسدها بقوة وأسرعت بفتحه لتجد أختها مي تقف حزينة، تبلل رموشها عبرات جاهدت كي تكبتها، فارتدت بلسم للوراء، وقد ألجم الخوف لسانها حتى أنها لم تقو على سؤال أختها التي وقفت مرتبكة يعلو التردد قسمات وجهها لكن في النهاية حسمت أمرها ونطقت بكلمة واحدة كانت كافية بأن تهتز الأرض من أسفل أختها... نطقت بالاسم الذي أطار النوم من عينيها، اسم مراد، وهنا لم يستطع جسد بلسم أن يتحمل كل هذا الضغط فأظلمت الدنيا أمامها وسقطت عند قدمي أختها.

شلل تام أصاب منطقة الحادث، مسارات إجبارية خضعت لها السيارات، حشود كبيرة وقفت تتابع ما يجرى، أحاديث جانبية دارت بين الناس حول ما حدث، ضلت أغلبها إصابة الحقيقة، اشرأبت الأعناق فوق الحواجز البشرية

التي طوقت المكان، تابعت عيونهم الفضولية رجال البحث الجنائي وهم يجولون بالمنطقة، هالهم كم الرتب الواقفة، فأثر بعضهم الابتعاد خوفاً منهم.

على الجانب الأخر تجمع الضباط فيما يشبه الدائرة، يتداولون الآراء فيما بينهم، وكالعادة دار الحديث عن الجماعات الإرهابية وعن رائحتها التي تفوح بالمكان، خاصة أن الحادث وقع بنفس أسلوبهم المعتاد. دار أكبرهم رتبة برأسه في المكان وقسمات وجهه تكتسي بغضب لم تفلح نظارته الشمسية الكبيرة في إخفائه، كان يلوح بيده عالياً كلما تحدث لمن حوله، صوته الجهوري أصاب الجميع بالارتباك، حتى أن أصحاب الرتب الصغيرة ابتعدوا عن دائرته، إلا ضابط برتبة نقيب تقدم نحوه بثقة وفي يده بطاقة شخصية ملطخة بالدماء، وما إن صار أمام الضابط الكبير حتى مد يده وناوله البطاقة وعلى وجهه علامات الانتصار.

تأمل الضابط البطاقة طويلاً، قبل أن يرفع رأسه للنقيب ويسأله أين عثر عليها، فأجابه الأخير وهو بشير بيده بعيداً لمكان بين الحطام مازالت تتصاعد منه بعض الأبخرة، اكتفي الضابط الكبير بهز رأسه قبل أن يثني على النقيب و يأمره بالانصراف، لحظات من الصمت مرت زم فيها الضابط الكبير شفتيه وهو يطرق على كفه المفرود بالبطاقة، ثم عاد ونظر للصورة جيداً قبل أن يقرأ اسم صاحبها بصوت عال:

ـ حسام الدين محمود... مهندس شبكات.

لم تتوقف بلسم عن البكاء منذ أخبرتها أختها بما حدث، صورة مراد ظلت تحاصرها، تخيلته وهو ملقى وسط حطام الانفجار، جسده الملطخ بالدماء، ملابسه الممزقة، النيران تزحف نحوه، أنفاسه المتقطعة... شاهدت نفسها تقف بعيدة، عاجزة عن مساعدته؛ الجفاء الذي شاب تعاملها معه زاد من إحساسها بالألم، تمنت أن تجاوره وتهمس في أذنه بكلمات حانية ود كثيراً أن يسمعها منها لكنها أبت. تعلق بصرها بشاشة التليفزيون، كانت الأخبار تتوارد بشكل سريع، ومن وسط دموعها لمحت جملة نبأ عاجل تتصدر الشاشة، فاعتدلت في جلستها وأمسكت بريموت التليفزيون لرفع صوته.

علامات الحزن المرتسمة على وجه المذيع تظهر قسوة المشهد، صوته المختنق وهو يقرأ أسماء الشهداء والمصابين أضفى مزيداً من الأسى على متابعيه، خفقات قلبها كادت تقتلعه من مكانه، حينما لم يرد اسمه في قائمة الشهداء، ودت أن تنهض من مكانها وتقترب من الشاشة أكثر لكن لم تقو قدمها على حملها، فقبعت رغماً عنها تتابع المذيع وهو يمسك بالورقة التي تضم أسماء المصابين.

خروج اسمه من فم المذيع كان بمثابة طوق النجاة الذي ألقي لبلسم بعدما أوشكت على الغرق، عادت الدماء تورد وجهها مرة أخرى، وأحست أن الحياة بدأت تدب من جديد بباقي جسدها، فوجدت نفسها تنتفض من على مقعدها وتحتضن أختها، ولسانها يلهث بعبارات الشكر والحمد لله.

أحاسيس متناقضة تصارعت بداخلها، خوفها الشديد على مراد بشكل كاد يتوقف معه قلبها، بالرغم من عدم استقرار مشاعرها تجاهه، كذلك فرحتها الجنونية بنجاته والتي لم تعرف لها سبباً واضحاً، وقفت شاردة تنظر للتليفزيون في صمت، نبشت بخلدها مئات الأسئلة... هل تحب مراد؟ وهل ما حدث كان بمثابة الاختبار الحقيقي لصدق مشاعرها نحوه؟ وإن كانت تعشقه فعلاً فلماذا تقسو عليه وتعامله كصديق؟ لماذا تشعر دائماً بوجود حلقة مفقودة في سلسلة علاقتهما؟

صداع رهيب طرق أبواب عقلها بعدما فشلت في الإجابة ولو على سؤال واحد مما سبق، فأسلمت جسدها للمقعد مرة أخرى وهي تضع رأسها بين راحتيها، في محاولة منها لإسكات ضجيج أفكارها.

تقدمت مي وأمسكت برأس أختها ودفعته لأحضانها وكأنها تسكب عليه السكينة والهدوء، ربتت على ظهرها بحنان بالغ قبل أن تسألها بصوت خافت عما تشعر به؟ فصارحتها بلسم بأفكارها والأسئلة التي تنهش عقلها. وقفت مي عاجزة عن الرد، خاصة أن نفس الأسئلة دارت بمخيلتها بعدما شاهدت الحالة الغريبة التي كانت عليها بلسم، ساعتها لم تجد تفسيراً سوى أن مراد بدأ يتسلل لمشاعر أختها، ويسطر أسمه على قلبها. تنهدت بلسم بصوت عال، ودفعت أختها برفق، قبل أن تنهض من على الكرسي وهي تمسح دموعها سريعاً وتتحرك نحو باب الخروج دون أن تنطق بكلمة واحدة، تسمرت مي بمكانها

للحظات قبل أن تصرخ متسائلة عن أين تذهب؟ وهنا التفت لها بلسم وقد علت الجدية قسمات وجهها وأجابتها بحزم:

ـ رائحة لمراد

تحركت بخفة تناقض سنوات عمرها التي تجاوزت الستين، أمسكت بأطباق الطعام ورصتها على المائدة وعيناها تتابع التليفزيون بشغف كبير، أخبار الانفجار تملأ القنوات، مذيعون يصرخون هنا وهناك، تحليلات الخبراء لا تسمن ولا تغني من جوع، المصادر الرسمية لم تعلن حتى الآن هوية الجناة.

زمت شفتيها في استياء وعادت للمطبخ كي تحضر باقي الأطباق، حانت منها نظرة خاطفة للساعة المعلقة على الحائط، فتسمرت مكانها ووضح عليها التردد، لوت عنقها وتطلعت لغرفة ابنها حسام الذي حضر متأخراً للمنزل على غير عادته، حتى أنها بقت معه على الهاتف حتى وصل سالماً، حاولت أن تعرف سبب تأخره، حاصرته بالأسئلة، لكنه لم يرح بالها واكتفي برد مقتضب عن مشاكل في أجهزة الشركة تطلبت منه أن يسهر حتى ينجزها.

وكالعادة تسلل من بين يديها وهو يغمرهما بقبلاته، ليتركها فريسة لمخاوفها التي باتت ضيفاً ثقيلاً على قلبها، فمنذ أطلق لحيته وبدأ يتردد على أحد جوامع المنطقة والمشهور بانتمائه لإحدى الجماعات السنية، طرقت المشاكل أبوابهم، مضايقات أمنية، مراقبة، أشخاص مجهولون ترددوا على المنطقة بحجة جمع

معلومات عنه، وما زاد الطين بلة ما حدث الشهر الماضي، حينما وقفت على باب البناية قوة أمنية كانت تبحث عن أحد الأشخاص الذي كان يداوم على الصلاة في المسجد إياه، واستوقفوا ابنها ظناً منهم أنه على دراية بمكانه، لكن والحمد لله انتهي الأمر بمجرد أسئلة ألقاها الضابط على مسامع حسام وأخذ الرد وانصرف، لكن للأسف لم تعد الأمور لنصابها بعد تلك الزيارة، إذ ابتعد عدد كبير من الجيران عنهم واتخذوا موقفاً عدوانياً دون مبرر، وكأن الزيارة كانت بمثابة الوصمة التي التصقت بسمعة ولدها.

زفرت بقوة وهي تتجه لباب غرفته كي توقظه ليتناول فطوره، وفجأة ارتفعت طرقات عنيفة على باب الشقة حتى كادت تقتلعه من مكانه. شهقت بصوت عال وهي تسرع نحو الباب ولسانها يلهج بدعوات الرحمة والستر، ولكن قبل أن تصل خرت ضلفة الباب جثة هامدة، لتسقط محدثة دوياً رهيباً، دوت على أثره صرخة الأم بقوة.

ليل دامس كسى الصالة بعدما انتشر رجال البوليس في المكان، من بينهم شاب تجاوز الثلاثين بسنتين أو أكثر، وقف بقامته الطويلة مزهواً بنفسه والنسر الذهبي يلمع على كتفه، تفرس في المكان دون أن ينطق بكلمة واحدة، قبل أن يحدج أم حسام بنظرات صارمة، وحينما هم بسؤالها فتح باب الغرفة ليظهر على عتبته حسام وقسمات وجهه تحمل أشد أمارات الفزع والدهشة، حتى أن آثار النوم لم تكن قد فارقت ملامحه بعد.

ـ انت حسام الدين محمود؟

ألقى الضابط سؤاله بصوت جهوري، جعل حسام يتسمر بمكانه للحظات غير مدرك لما يحدث، لكنه في النهاية أومأ برأسه موافقاً، وبمجرد أن فعلها حتى تحرك الجميع، وكأنه أطلق إشارة بدء المعركة دون أن يدري، عشرات الأيادي تكالبت عليه، وحينما حاول التملص منهم زاد الأمر سوءاً، مقاومته كانت إيذاناً ببدء فاصل من اللكمات والركلات، صوت أنينه غاب وسط صرخات أمه، التي وقفت عاجزة، تلطم خديها. وقف بعض الجيران أمام الباب لمعرفة ماذا يحدث، لكن صرخة واحدة من الضابط كانت كفيلة بتفرقة الجميع، توسلات الأم له ذهبت أدراج الرياح، لم يشف غليل صدرها ولو بكلمة، مهمته كانت إحضار حسام وقد نجح فيها.

إنها الساعات الأولي من الصباح، ضجيج الشارع كان على أشده، سيول من الأجساد البشرية تنهمر دون توقف، سيارات جن أصحابها فأخذوا يتمايلون بها يميناً ويساراً، باستثناء سيارة زرقاء سارت صاحبتها بتأن غريب.

كان السباب يحاصرها من كل مكان، فتارة تسمعه عن طريق أبواق السيارات وتارة تسمعه من أصحابها، وبالرغم من هذا بقت مي هادئة لا تلقي بالاً بما حولها، أما بلسم فقد جلست بجوارها شاردة الذهن، لا يشغلها سوى الوصول للمستشفى والاطمئنان على مراد.

خوفها عليه دفعها لعدم التفكير فيما هو قادم، لم يشغلها ماذا ستقول على باب المستشفى؟ولا كيف ستدخل؟ وإن دخلت، هل سيسمح لها بزيارته أم لا؟

ومن بعيد ظهر مبنى المستشفى المطل على النيل، صامتاً تحيط به الحراسة المعتادة دون أن تغيير، كان الوضع هادئاً على غير المتوقع، فساورتها الشكوك في عدم إحضار مصابي الانفجار لتلك المستشفى، لكن كلمات المذيع مازالت تدوي في أذنها، والذي أكد تواجد مراد بها، فحسمت أمرها ونزلت من السيارة وهي تشير لأختها كي تركن في الشارع الجانبي.

على ناصية الشارع وقفت بلسم في انتظار مي وعيناها تتابع الحركة أمام المستشفى، كانت تفرك يديها بعصبية شديدة، وعقلها مازال تتصارع بداخله عشرات الأسئلة، حتى أنها لم تشعر بقدوم مي التي ربتت على كتفها بهدوء، فارتدت للوراء بقوة، مما جعل مي تزيح يدها من على كتف أختها وهي تسألها بقلق عن كيفية دخول المستشفى فتجهم وجه بلسم وعلت الحيرة ملامحها، وتسمرت مكانها دون أن تنبس بكلمة واحدة. كانت تعلم جيداً صعوبة الدخول لمراد، لكنها انساقت خلف قلبها وجرت مع أختها معها دون وعي، وحينما لاحظت مي الحيرة الشديدة التي تعتري أختها قالت بثقة مصطنعة:

ـ تعالي ورايا ومش عايزاكي تنطقي بكلمة واحدة... سبيني أتصرف وربنا بقى يسترها معانا.

سارت الشقيقتان، وكلما اقتربتا كانت نبضات قلب بلسم تتسارع أكثر فأكثر، حاولت جاهدة أن تخفي ارتباكها لكن ما إن وقفا أمام حارس الأمن حتى دارت الأرض بها وشعرت أنها سوف تسقط في أي لحظة فأمسكت بذراع مي، التي وقفت ثابتة تحدثه بثقة:

ـ صباح الخير... كنا عايزين ندخل نطمئن على ابن خالتنا... هو من مصابي التفجير اللي حصل فجر النهاردة.

ـ اسمه إيه يا فندم؟

ـ الرائد مراد محمود الراوي.

ـ طيب ثانية واحدة يا فندم.

تركهما واتجه نحو مكتب زجاجي ملاصق بالبوابة، التقط منه سماعة تليفون، ثم ضرب رقماً ما، ووقف منتظرًا الرد، تابعته مي بنظرها محاولة تصنع الثقة قدر المستطاع، أما بلسم فقد أطرقت رأسها أرضاً وكأنها تخشى أن تنظر له فيخر لسانها بالحقيقة، لحظات وتناهى لمسامعهما قوله:

ـ حاضر... تمام يا فندم.

وضع بعدها السماعة وهو يشير لهما بيده قائلاً:

ـ اتفضلوا يا فندم... بس استأذنكم في البطاقات الشخصية.

أخرجت مي بطاقتها وبعدها بلسم، فتناولهما الحارس ونقل البيانات في دفتر أمامه، ثم أفسح لهما الطريق، دلفا للمبنى وتحركا نحو مكتب الاستقبال،

ليقابلهما الموظف هناك بابتسامة مرحبة، بثت القليل من الهدوء لنفس بلسم، أمامي فسألته مباشرة عن مراد فأجابها أن الحالة حرجة ولا تسمح بزيارات في الوقت الحالي، لكنه وافق على دخولهما حتى يطمئنا عليه، ثم أشار نحو الاستراحة متابعاً حديثه بأن والد مراد ووالدته بالداخل إن كانتا تودان لقائهما.

ظهر عليهما الارتباك، قبل أن تستدرك مي نفسها وترسم ابتسامة زائفة على وجهها وهي تجيبه:

ـ اه طبعاً... بعد اذنك.

أولته ظهرها وأمسكت بيد بلسم تجرها نحو الاستراحة، فحاولت الاخيرة أن تتملص منها لكنها أطبقت علي يديها أكثر وهي تهمس:

ـ لازم نروح يا حمارة وإلا هيشك فينا ونتكشف ويبقى منظرنا زبالة.

واصلتا السير نحو الاستراحة بخطوات مرتبكة، وعلى بابها وقفت مي تتصنع البحث عن والدي مراد قبل أن ترفع يدها مرحبة بشخص ما، فنظرت بلسم مندهشة تبحث عمن تشير إليه أختها، لكن الأخيرة لم تترك لها فرصة التفكير أو البحث، بل دفعتها للأمام وغابتا عن نظر موظف الاستقبال، تنفست مي الصعداء وهي تلقي بجسدها على أقرب مقعد، بينما وقفت بلسم حائرة تدير عينيها في الجالسين حتى توقفت عند رجل وامرأة يظهر على ملامحهما الحزن الشديد، أطرقت المرأة برأسها أرضاً وراحت في نوبة شديدة من البكاء، أما الرجل فقد أسند رأسه للحائط وشفتاه تتمتمان بكلمات غير مسموعة.

لا تدري بلسم لماذا شعرت بأنهما والدي مراد، هل بسبب الحزن الواضح عليهما، أم أنه قلبها الذي أطلق إشارة نحوهما. تسمرت بمكانها مترددة، مابين المضي قدماً نحوهما وبين الاكتفاء بمراقبتهما من بعيد، وفي النهاية حسمت أمرها وعادت لمراقبتهما، لحظات و نهضت مي من على مقعدها ومدت عنقها للأمام لتشاهد موظف الاستقبال، فتابعتها بلسم للحظات ثم التفت لمواصلة مراقبتها، وإذا بها ترتطم بعيني المرأة التي توقفت عن البكاء وبدأت تتطلع لها في صمت، شعرت بلسم بماء مثلج ينسكب فوق رأسها، تبعها قشعريرة سرت في جسدها كله، فأشاحت بعينيها بعيداً هرباً من نظرات المرأة، وتظاهرت بالنظر لأختها، لكن فضولها دفعها للالتفاف، لتجد المرأة واقفة أمامها مباشرة على بعد خطوتين أو ثلاثة.ارتدت بلسم للوراء وهي تشهق بصوت عال، فتراجعت السيدة بدورها للخلف، وهي تضع كفها على صدرها معتذرة بعدما فاجأها رد فعل بلسم، قبل أن تقول:

ـ أنا آسفة يا بنتي... ما كنتش أقصد والله.

أطلقت بلسم تنهيدة حارة وهي تحاول أن تبتسم كي تخفي ارتباكها، ثم نظرت للسيدة قائلة:

ـ أنا اللي آسفة على طريقتي بس فعلاً ارتبكت لما شفت حضرتك واقفة قدامي فجأة.

ـ الحمد لله حصل خير... المهم انتي أخبارك إيه؟ بصراحة متوقعتش أنك تيجي.

فاصل من النظرات الحائرة دار بين بلسم وأختها، حاولت من خلاله أن تستنجد بمي التي ظهر الارتباك على وجهها فعجزت عن التفكير أو الكلام، أما السيدة فقد وقفت صامتة ترمقهما بهدوء وعلى شفتيها ابتسامة حزينة، تحولت لضحكة مريرة أطلقتها وهي تقول:

ـ أنا نوال والدة مراد... ازيك يا بلسم؟ عاملة إيه؟

صدمة قوية انتابت بلسم، فتدلي فكها السفلي بشكل مضحك، واتسعت عينيها من فرط الدهشة، وقبضت على يد أختها بقوة، تطلب منها المساعدة، لكن الأخيرة اكتفت بدور المتفرج وكأن ما يحدث أمامها مشهد من فيلم تراجيدي، وحينما لم تسمع نوال إجابة، واصلت حديثها قائلة:

ـ طبعاً انتي مستغربة، وبتسألي نفسك الست دي عرفتني منين؟ أقولك أنا يا ستي... مراد حكى لي عنك كتير ووراني صورتك على الفيس بوك... بس بصراحة انتي أحلى مليون مرة من الصورة.

ظلت بلسم على صمتها لا تدري ماذا تقول، واكتفت بابتسامة مرتبكة حاولت أن تداري بها خجلها، فربتت نوال على ركبتها بحنان وهي تقول:

ـ تسلمي يا حبيبي انك جيتي... تعبتي نفسك.

ـ إيه يا طنط اللي حضرتك بتقوليه ده... تعبت نفسي!! ده أنا هتجنن من ساعة ما سمعت الخبر.

قابلت نوال عبارتها بابتسامة عريضة ونظرة ذات مخزي، شعرت معها بلسم بالدماء تكاد تندفع من وجنتيها، بعدما أحست أن كلامها غير مناسب، فلاحقتها نوال بقولها:

ـ ربنا يقومه بالسلامة ونطمئن كلنا عليه.

ـ إن شاء الله... طيب الدكتور قال لحضرتك إيه؟

ـ أكذب عليكي لو قلت أني كنت مركزة معاه وفهمت أي حاجة من اللي قالها... لكن كل اللي فهمته بعد كده من والد مراد أن بُعده عن نقطة الانفجار قلل كتير من حجم الإصابة... لكن منقدرش برضه نقول إن الخطر زال.

ـ إن شاء الله الخطر يزول ويقوم منها... موظف الاستقبال بيقول إن الزيارة ممنوعة..صحيح الكلام ده؟

ـ اه يا بنتي... الدكتور يدوب خلانا نشوفه من وراء الزجاج وبعد كده مشينا على طول.

ـ يعني صعب أشوفه؟

ـ أفتكر صعب في الوقت الحالي... لكن احنا مع بعض وأول ما يسمحوا بالزيارة هقولك على طول... هاتي رقمك وخدي رقمي عشان نعرف نتواصل.

تبادلا الأرقام سريعاً، لتنهض بعدها مي وهي تمسك بذراع أختها، التي تبادلت القبلات مع نوال، على وعد بمكالمات ولقاء قريب. همت نوال بتوصيلهما للباب لكن استوقفتها بلسم وأصرت على رجوعها لوالد مراد، الذي ظل طوال الوقت يتابع ما يحدث من مكانه بنظرات حائرة، وحينما حضرت نوال وجلست بجواره، حاصرها بعشرات الأسئلة لكنها اكتفت بابتسامة وجملة واحدة:

ـ بعدين يا محمود... بعدين هقولك على كل حاجة.

ظلمات الجهاز

رائحة عفنة زكمت أنفه، الجو الخانق بالمكان جعله بالكاد يلتقط أنفاسه، حبات العرق نبتت على جبينه بشكل غزير، سرعان ما تحولت لخيوط سالت على رقبته وبللت منامته الممزقة، حاول أن يرطب شفتيه الجافة بلسانه لكنه فشل، بعدما جف ريقه هو الأخر. لا يدري كم مضى من الوقت وهو على هذه الحالة، عيناه المعصوبة تبللت أهدابها من كثرة البكاء، السباب بأفظع الشتائم كان الرد الدائم على تساؤلاته، عجز عقله عن إيجاد تفسير لما يحدث له، جال بخاطره ما حدث ليلة أمس في الكمين، لكنه سرعان ما استبعده، خاصة أن الواقعة مرت على خير.

قيوده المُحكمة ألهبت يديه، تسمره على مقعد خشبي لساعات طويلة جعل عظامه تكاد تصرخ من فرط الألم، خطوات تمر على مقربة منه دون أن يتفوه صاحبها بكلمة، وفي النهاية سقط رأسه على صدره من شدة التعب.

فجأة... ارتطمت بوجهه دفعة قوية من مياه مثلجة، انتفض على أثرها جسده كما لو أن تياراً كهربائياً قد مسه، صدى شهقاته المتتابعة دوى بين جدران المكان، فعجز عن سماع جملة تناهت لمسامعه، فأخذ يلتف حوله بقوة، حتى كرر صاحب الصوت جملته قائلاً:

ـ إيه؟ مسمعتش؟ اسمك إيه يلا؟

أجاب وهويلتقط أنفاسه بصعوبة:

ـ حسام... حسام الدين محمود

لم يستطع حسام أن يشاهد صاحب الصوت وهو يتفرس ملامحه بدقة وصرامة، جلس قباله واضعاً ساق على الأخرى، ينفض تراباً وهميًا من على بدلته، وفي يده سيجارته المشتعلة. عبث بطرف شاربه الكث وهو ينفث دخانها في وجه حسام، هاجمته نوبة من السعال جعلته يعتدل في جلسته ويبصق على الأرض بشكل مقزز، ثم استدار لحسام وسأله:

ـ بتشتغل إيه؟

ـ مهندس شبكات.

ـ كنت فين امبارح بالليل؟

ـ كنت في الشغل وبعد كده روحت البيت.

ـ احكى بالتفصيل... فاهم؟

أومأ حسام موافقاً ليبدأ بعدها في قص مجريات يومه دون أن يسرد واقعة الكمين، وحينما انتهى قطب المحقق حاجبيه، وتراجع للخلف وهو ينفث دخان سيجارته متسائلاً:

ـ يعني مرحتش ناحية الميدان؟

ـ ميدان!! ميدان إيه يا فندم؟

وهنا هوت صفعة قوية على مؤخرة عنقه، تزلزل لها كيانه وشعر برغبة قوية في رد الصفعة لصاحبها، لكن قيوده المُحكمة منعته من التحرك ولو سنتيمترات، فاكتفى بهز جسده بقوة معلناً غضبه، لم يبال المحقق بكل هذا بل استفزه قائلاً:

ـ تعالى دوغري عشان قفاك مش هيستحمل الكف ده كتير..هه..روحت الميدان ولالأ؟

عض حسام على شفتيه وحاول جاهداً كبت دموعه، لكنها سالت رغماً عنه وعلق مذاقها الملحي بفمه، فخرج صوته متحشرجاً وهو يرد:

ـ روحت.

ـ أيوة كده... احبك لما تلخص وتجيب من الاخر... وكنت بتعمل إيه هناك؟

خرجت الكلمات متقطعة يتخللها صوت شهقاته، وهو يروي للمحقق ما وقع في الكمين، والأخير ينصت له باهتمام دون أن يقاطعه، وعندما انتهى نهض الأخير من مجلسه واقترب من وجه حسام وسأله:

ـ وأنت عايزيني أصدق الحدوتة دي؟

ـ يا فندم هو ده اللي حصل بالظبط... وبعدين حضرتك تقدر تسأل زمايلك وتتأكد منهم.

ـ اسألهم فين إن شاء الله؟

ـ يعني إيه؟ مش فاهم!!

من جديد رجت جدران الغرفة بدوي الصفعة التي هوت على حسام، فانتفض جسده بقوة وهو يصرخ غاضباً:

ـ إيه؟ أنتم بتعملوا معايا كده ليه؟ أنا معملتش حاجة.

أمسك المحقق بياقة منامته وجذبه بقوة صارخاً في وجهه:

ـ ولما تفجر الكمين أنت وابن الكلب اللي كان سايق العربية يبقى برضه معملتش حاجة.

بهت حسام من قول المحقق وفغر فاه مندهشاً عاجزاً عن الرد، فأردف المحقق:

ـ ست عساكر... وتلات أمناء شرطة... غير الاتنين الظباط يا ولاد الكلب... تموتهم وتحرقوا قلب أهاليهم وقلب البلد عليهم وتقولي معملتش حاجة... ده أنت هيطلع عين أمك لحد ما تعترف.

ـ يا باشا أقسم بالله أنا معرفش حاجة عن اللي بتقوله ولا أعرف أن الكمين اتفجر... أنا بعد ما الظابط مشاني روّحت البيت على طول ومن كتر تعبي نمت بهدومي ومصحتش غير على القوة لما جت تقبض عليا.

ـ وبطاقتك كانت بتعمل إيه في الجنينة اللي جنب مكان التفجير.

ـ بطاقتي!!

ـ اه بطاقتك... مستغرب ليه.

ـ يا باشا ما أنا بقولك إن الأمين خد مني البطاقة ويظهر أني نسيتها معاه.

ـ نسيتها..طيب.

وهنا ترك ياقة المنامة وأشار لشخص قوي البنيان، كان يقف متوارياً في الظلام خلف حسام، أن يتقدم نحوه قائلاً بصوت عال قاصداً أن يصل لحسام:

ـ عايز توضيبة تليق بابن الوسخة ده..بس اسمع... عايزها توضيبة تعلم، بس من غير أثر..فاهم؟

تحرك بعدها مبتعداً وصوت خطواته يدوي في المكان، وفجأة توقف واستدار لحسام قائلاً:

ـ اشوفك تاني يا شيخ، بس المرة اللي جاية عايز أسمع الحكاية الصح... سلام.

عاد صدى خطواته يدوي بالمكان لكن هذه المرة لم يكن بمفرده، إذ كان معه صرخات حسام.

هبت نسمات الغروب ناعمة كملمس الحرير، داعبت أوراق الشجر فتمايلت بخفة محدثة حفيفاً ترق له القلوب، ومن بعيد لمح عمرو أمه جالسة على مقعدها المفضل في الشرفة، فأسرع الخطى نحو بنايته، قاطعاً درجات السلم بلهفة حتى وصل للشقة، وبالداخل وجد أمه مازالت بمكانها، فتحرك بخفة قاصداً أن يفاجأها، لكنه تسمر بمكانه حينما تحدثت دون أن تلتفت له:

ـ سيبك من الحركات دي سمعة صوتك من بدري يا بيه.

ازدرد ريقه بصعوبة وسار نحو الكرسي المقابل لها وجلس عليه وعلامات الخجل ترتسم على وجهه، فقال لها وهو يحك مؤخرة رأسه بيده:

ـ هو صوتي كان عالي كده؟

ـ مش قوي... بس انت عارفني بحس بيك على بعد... وحركاتك خلاص بقت مفقوسة.

ـ من زمان وأنا بقول إنك كنتي لازم تشتغلي في المباحث... ما شاء الله سمعتيني وانتي قاعدة هنا!!

تجاهلت عبارته والتفتت للشارع الساكن تتأمل تفاصيله بهدوء، فشاركها النظر وعيناه تحملان الكثير من الكلام الذي لم يخطُ عتبة شفتيه، تأملته أمه بطرف عينها وفطنت للحالة التي تلم به فاعتدلت وسألته:

ـ مالك يا حبيبي؟شكلك مش مظبوط وفي حاجة كده شاغلة دماغك، صح؟

تنهد عمرو بصوت عال وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وهو مازال يرمق الشارع، قبل أن يعتدل ويجاوبها:

ـ طول عمرك بتفهميني من غير ما اتكلم... فعلاً يا أمي أنا دماغي مشغولة على الأخر.

ـ في إيه يا حبيبي؟

ـ هند... مجتش في الميعاد اللي اتفقنا عليه ولا حتى كلمتني واعتذرت، ولما حاولت اكلمها عشان اطمن وافهم هي ليه مجتش..مردتش.

ظهر الارتباك والحيرة على وجه أمه فحاولت أن تداريها بضحكة عصبية أخرجت فيها انفعالاتها وهي تسأله:

ـ هو أنت روحت المطعم؟

ـ نعم! انتي نسيتي يا ماما..ده انتي اللي مختارة اللبس اللي روحتلها بيه.

ـ أيوة صح افتكرت... معلش محدش عارف ظروف الناس إيه يا بني... مش جايز عندها مشكلة ومش قادرة تتكلم دلوقتي... وبعدين ما دام هي اللي اتفقت معاك يبقى أكيد هتكلمك وتعتذر على اللي حصل... هي مسألة وقت وأكيد هترد عليك، متشغلش بالك أنت... هه في حاجة تاني؟

ـ جمال

ـ ماله هو كمان؟

ـ انتي مش واخده بالك أنه مختفي خالص؟

ـ أهو كله إلا ده يا حبيبي... أنت عارف جمال بيحبك ازاي، ولو اتأخر عليك ولا اختفى يبقى أكيد في حاجة مهمة عنده.

ـ مهو عشان كده أنا عمال اتصل بيه ومش بيرد، لدرجة أني روحتله القهوة اللي بيحب يقعد يكتب فيها ملقتوش برضه.

ـ معلش..ابعتله رسالة على الموبايل وهو أكيد لما يفضى هيقراها ويرد عليك.

هز رأسه موافقاً وكأنه يثمن على كلامها، ثم هم بالنهوض فرجته أن يبقى معها ويستمر بالفضفضة، فجاوبها بابتسامته الهادئة وهو يعدها بمواصلة الحديث بعد أن ينال قسطاً من الراحة التي يتوق لها. بادلته الابتسامة وربتت على ركبته وهي تحادثه بأنها ستنتظره بعدما ينال كفايته من النوم ليكملا حديثهما، نهض

من على مقعده وتقدم نحوها يطبع قبلة حانية على رأسها واتجه لغرفته، تتابعه عيناها بمزيج من الحزن والحنان، وما إن غاب عن نظرها حتى عاوت التطلع للشارع وقد غابت ابتسامتها وحل مكانها قسمات من القلق الجارف على وحيدها.

اما هو فقد دلف لغرفته وألقى بجسده المنهك على السرير، لعله ينجح في أن يسلم جسده لسلطان النوم الذي غاب عنه طوال الليالي السابقة. أطفأ نور الغرفة، لحظات وعاد الضوء لعقله فسقط على إحدى غرفه المظلمة فظهر وهو يتحدث لجمال في التليفون لأخر مرة قبل الحادث، حينما عاتبه وقتها على قلة المكالمات بينهما، وقتها تحجج عمرو بالموقع الإخباري الجديد الذي تنتوي الجريدة أن تطلقه وكيف أن رئيسه في العمل يعتمد عليه بشكل كبير في أن يُخرج الموقع للنور وهو في أكمل صورة، وتذكر كيف صارحه جمال بقلقه عليه من الوحدة التي يعيشها ومن عدم قدرته على خوض أي علاقة عاطفية، وكأن حياته تدور في فلك والدته فقط، وقتها أجابه:

ـ أنا نفسي زهقت من الوحدة... مش عايز أكمل حياتي بالشكل ده... عايز إنسانة تكون سكن، تكون حضن أقدر أستخبى فيه... إنسانة أحس معها بمشاعر مدفونة جوايا لسنين طويلة.

ـ جميل جداً اللي أنت بتقوله... بس بصراحة ومن غير لف ولا دوران، هل أنت شايف هند اللي حكيتلي عنها هي الإنسانة اللي بتتكلم عنها دي؟

ـ لا يا جمال... أنا بضحك على نفسي بالعلاقة دي... أنا... أنا كل اللي شايفه هم.. ووحدة.. وحياة مليانة ملل..عاجز حتى أني أخد قرار، سواء صح أو غلط... بس من جوايا نفسي يكون في حاجة في حياتي.. حاجة تانية غير..غير... .(صمت لثوان ثم أردف)عشان كده لازم هند تفضل في حياتي.

ـ عمرو أنت عمرك ما كنت أناني... حرام عليك تربط البنت بيك بالكذب..أنا عارف ومقدر كل كلمة قلتها بس ألم الوحدة أهون بكتير من ألم الضمير... تقدر تقولي هتعمل إيه لو العلاقة بالنسبة لها أخدت أكبر من شكلها الحالي وبدأت ترسمك حبيب وزوج؟

وهنا أنطفأ نور الغرفة وعاد من رحلة ذكرياته لسريره مرة أخرى، انتابه يأس شديد، وراوده شعور قوي بالعجز عن مساعدة نفسه، داهمه صداع قوي بعدما احتشدت برأسه مئات الأفكار، فوضعها بين راحتيه للحظات قليلة، وانتظر لعل طبول الألم تكف عن الطرق، وحينما خفتت أسدل جفونه لعله يغوص في أعماق النوم المفقود.

حاولت بلسم أن تهرب من قلقها وخوفها على مراد، فانكبت على عملها بقوة، وانغمست فيه حتى شارفت على إنهائه، لم تلفت انتباهها حالة الارتباك التي سادت الشركة، همهمات خافتة تدور بين زملائها، رنين الهواتف الداخلية لا يكف عن الصراخ طوال النهار، صحيح أنها رفعت رأسها عن الورق المبعثر

أمامها للحظات، لكنها لم تكن كافية للكشف عما يحدث، حتى صديقتها هدير لا ترد على اتصالاتها، فاكتفت بهز كتفيها تعجباً وألقت فضولها خلف ظهرها، وتابعت عملها.

لاحقها وجه مراد طوال اليوم، لم تغب كلماته الرقيقة عن بالها، شعرت بالحنين لصوته الهامس، ودت أن يرن هاتفها باتصال من والدته يزف اليها خبر شفائه واسترداده لوعيه، تحركت أصابعها باتجاه حقيبتها وهمت بالتقاط الهاتف، لولا أن منعها ذلك الصوت الذي ارتفع من خلفها، كانت هدير تتحرك بين المكاتب بسرعة وتوزع السلامات على الجميع، وما إن اقتربت من بلسم حتى صرخت فيها وعاتبتها على هذا الاختفاء فضربت هدير كفاً بكف وزمت شفتيها قائلة:

ـ يا خبر أسود..انتي على طول كده يا بنتي في عالم تاني... متعرفيش إن حسام اتقبض عليه؟

ارتدت صعقا للخلف وهي تردد عبارتها:

ـ حسام اتقبض عليه!! ازاي؟ وليه؟

ـ منعرفش تفاصيل... مامته اتصلت بزمايله هنا في الشركة وقعدت تصرخ وتعيط، وتقول إن البوليس جه البيت وأخده من غير ما حد يقولها السبب.

ـ طيب حد هنا في الشركة قدر يوصل لحاجة؟

ـ لسة لكن في...

بترت عبارتها بعدما تناهى لمسامعهما صوت جلبة قوية تأتي من الممر الخارجي للطابق، أعقبها وقع أقدام ضربت الأرض بقوة، فنظرت لبلسم متعجبة وهمت بالتحرك، لولا أن أوقفها ظهور أصحاب الخطوات الحازمة عند مدخل القاعة. قامات فارعة وبدل أغلبها ذات لون داكن، تحرك أصحابها وأعينهم تبرق بنظرات صارمة تجمد الدماء في العروق، سار بجوارهم نائب مدير الشركة بخطوات أقرب منها إلى العدو، أشار إلى نهاية الممر حيث يقبع مكتب المدير محاولاً أن يرسم على شفتيه ابتسامة خرجت مرتبكة رغماً عنه.

اشرأبت أعناق مَن في الصالة وتجهمت وجوههم، خيم الصمت على المكان للحظات حتى تأكدوا من اختفاء الموكب المهيب، وحينما صفق باب المدير خلفهم، انطلقت الهمهمات دفعة واحدة، وكأنها إشارة البدء لعودة الحياة، تسمرت هدير بمكانها للحظات وعينيها تكاد تنفذ إلى مكتب المدير، قبل أن تعتدل وتنظر لبلسم وهي تهز رأسها قائلة:

ـ يظهر كده أن الموضوع كبير.. ربنا يستر.

ـ يعني هيكون عمل إيه؟ ده حتى حسام شخص محترم جداً وعمرنا ما سمعنا عنه حاجة ولا عمره ضايق حد أو عمل مشكلة.

ساد الصمت بينهما لثوان، إلى أن اعتدلت هدير في وقفتها ووضعت يدها في وسطها متسائلة بصوت خافت:

ـ يمكن الموضوع لي علاقة باللي حصل من كام شهر قدام بيته؟

ـ وهو إيه اللي حصل قدام بيته؟

قصت عليها هدير ماحدث أمام منزل حسام وكيف كان للواقعة أثراً سيئاً عليه بالمنطقة، ولكن الجيد في الامر، أن الشركة لم يصلها خبر بما وقع، إذ اكتفى حسام بقص الحكاية على هدير، التي تُعد أقرب الناس له في الشركة مع بلسم.

تابعت بلسم ما يُروى لها باهتمام شديد، مكتفية بهزة خفيفة من رأسها بين الحين والأخر، وحينما انتهت هدير أطلقت تنهيدة قوية وهي تسألها:

ـ طيب تفتكري احنا ممكن نعمل إيه؟

ـ ولا حاجة طبعاً... انتي مش شايفة العالم اللي دخلت للمدير شكلها عامل ازاي؟ ده لو واحد منهم بصلي بس مش سألني، هعترف بكل حاجة عايزها... ربنا معاه وتعدي على خير.

ـ يارب إن شاء الله.

همت هدير بالانصراف لكنها توقفت فجأة وضربت جبينها بكف يدها وهي تقول:

ـ شوفتي بقى، كنت هنسى أنا جاية ليه أصلاً... الواد ابني مطلوب منه بحث في المدرسة عن شعراء العرب زمان... المدرس عايز نماذج من الشعراء دول، وعايزه يتكلم عن حياة كل واحد بالتفصيل... وأنا عارفة انك في حكاية الشعر والرومانسية دي... زي الفل.

ـ و مطلوب يقدمه امتى؟

ـ يعني... بعد أسبوعين كده.

ـ ماشي... عشان خاطر الواد الغلبان بس.

لوحت بيدها مبتعدة وهي ترسل لها الكثير من القبلات قائلة بصوت عالٍ:

ـ حبيبي يا جميل أنت.

اكتفت بلسم بهز رأسها متعجبة وعلى شفتيها ابتسامة هادئة، قبل أن تعود لأوراقها وقد زادت همومها هماً أخر... .هماً اسمه حسام.

الخلية

تلألأت النجوم في السماء الصافية، فزادت من جمال المكان، لمع بريقها على سفح الترعة الصغيرة المارة بتلك الأرض الزراعية الخالية من البيوت، ماعدا مخزن كبير قبع على أول الطريق، بدا وكأنه خيالة مآتة عملاق يفرد ذراعيه عالياً، كي يرهب كل من يفكر بالاقتراب، ومن بعيد ظهرت دائرتان مضيئتان، أحالت ظلام المكان لنهار خافت، كانت سيارة نصف نقل متهالكة طمست أرقام وحروف لوحتها، تمايلت بقوة نتيجة للطريق غير الممهد، حتى وصلت لباب المخزن وهناك خبت صوت محركها وترجل منها رجل قصير القامة تختفي ملامحه خلف وشاح كبير تلفح به، خطواته ذات عرجة واضحة لا تخطئها العين، وقف للحظات أمام الباب يتلفت يميناً ويساراً وكأنه يتأكد أن لا أحد يتبعه، ثم أزاح الباب وأغلقه خلفه.

وراء الباب توهج المخزن بلمبات صفراء، عكس ضوؤها ظلال أشخاص تحركوا في كل الاتجاهات، تقدم القصير بينهم دون أن يلتفت له أحد وكأنه لم يدلف للمكان من أساسه، تراصت العديد من سيارات النقل جنباً إلى جنب، انكب على بعضها عدد من الرجال، منهم من كان يزيل لوحتها ومنهم من كان يرقد أسفلها.

واصل القصير طريقه نحو سلم خشبي ينتهي بغرفة زجاجية، جلس بداخلها شاب في نهاية العقد الثالث، تلمع صلعته تحت وهج الإنارة الصفراء، تعلقت

عيناه بشاشة اللاب توب الموضوع على المكتب، بينما عبثت يده اليسرى بطرف شاربه الكث، وما إن وقع بصره على القصير حتى رمقه بنظرة طويلة ثم سأله:

ـ إيه ده كله؟! كنت فين؟

ـ أنا أسف يا مولانا... بس وصلي خبر أن الحكومة مسكت واحد عشان التفجير الأخير.

أطلق الشاب ضحكة ساخرة وهو يرجع ظهره للخلف، قائلاً:

ـ يا سلام... وإيه الجديد... مهو بيعملوا كده كل مرة... لازم يلّوشوا شوية ويقلبوا في الدفاتر اللي عندهم ويحبسوا اللي ايديهم توصل له عشان يسكتوا الشارع... عامة احنا هنسيبهم يلفوا حوالين نفسهم شوية وبعدين نشوف هنعمل إيه.

هز القصير رأسه موافقاً ووقف صامتاً، فأردف الشاب:

ـ الراجل بتاعنا اللي هناك مقالش اشمعنى مسكوا الشخص ده بالتحديد؟

ـ بيقول إن البطاقة بتاعته كانت مرمية في مكان التفجير... ده غير إنه اسمه ارتبط قبل كده بالشيخ جلال أبو بكر بتاع منطقة الحدايق.

عقد الشاب حاجبيه ومط شفتيه متسائلاً:

ـ وده إيه علاقته بالشيخ جلال؟

ـ ولا ليه أي علاقة... كل الحكاية أن الواد ده ملتزم شوية وكان بيحضر دروس الشيخ من وقت للتاني، ولما جلال اختفى عن عيون الداخلية راحوا عند بيت

الواد ده وسألوه إن كان يعرف مكانه، لكن طبعاً الواد ملوش علاقة بالشيخ فمطلعوش منه بحاجة.

ـ طيب... روح تمم على الرجالة شفهم خلصوا تغيير نمر العربيات ولالا.

اكتفى القصير بانحناء طفيفة تراجع بعدها للوراء وانصرف مسرعاً. تابعه الشاب بنظراته الثاقبة، قبل أن يعاود التطلع لشاشة اللاب توب وأصابعه تجري على لوحة المفاتيح بسرعة ومهارة.

شهور عديدة مرت ببلسم، لم تطأ فيها قدمها منطقة وسط البلد، شعرت بوحشة كبيرة للمكان، صورة والديها تلاحقها أينما راحت، فكل شارع من المنطقة يحمل ذكرى لهما، صدى خطواتهما يمر بجوارها، دعابات والدها لا تفارق أذنها، كاسيت السيارة وأغاني فرقة المصريين، صوت صلاح جاهين الرخيم في ليلة شتوية يضيئها بكلمات شعره، ترتسم على وجهها ابتسامة حزينة يملؤها الشوق، فتحاول أن تلهي نفسها بالبحث عن تلك المكتبة القديمة، التي قد تجد بها ضالتها من الكتب المنشودة في البحث الخاص بابن هدير، ساعات طويلة قضتها أمام الكمبيوتر بحثاً عن كتب تتحدث عن الشعر القديم، وفي النهاية استقر بها الأمر عند تلك المكتبة الكائنة بأحد شوارع وسط البلد، بعدما وجدت أن النسخ الالكترونية لن تفي بالغرض، فأخذت بنصيحة بعض أصدقائها

بأحد جروبات الكتب المنتشرة على النت، بالتوجه لتلك المكتبة تحديداً، خاصة أن اهتمامها منصب على كتب قديمة الإصدار.

شارع يصلها بشارع آخر، وسؤال هنا وآخر هناك، حتى توقفت خطواتها أمام الواجهة الزجاجية للمكتبة، دفعت بابها بحذر ليطالعها وجه عباس المنكب على أحد الكتب، تقدمت وعلى وجهها ابتسامة هادئة، تنحنحت بصوت منخفض فرفع رأسه عن الكتب وحدجها بنظرة طويلة قبل أن يبادلها الابتسامة ويلقى على مسامعها بعبارت الترحيب المعتادة، والتي تذيب حواجز القلق والارتباك، اكتفت بلسم بهز رأسها قبل أن تسأله عما تنشده، فنهض عباس من على مقعده وتقدمها بخطواته الهادئة وهو يشير إليها بأن تتبعه، توقف بعدها أمام أحد الأرفف وقال إنها ستجد ضالتها في ذلك الركن، شكرته بكلمات رقيقة، عاد بعدها عباس لمكتبه المعدني تاركاً بلسم تجول بعينيها في عناوين الكتب، حتى استقرت على بعض منها، وأخذتهم معها للدور الثاني. على الطاولة الممتدة لعدة أمتار، ألقت بحملها الثقيل وبدأت في مطالعة واحد تلو الأخر، ساعات مرت وهي غارقة في البحث فلم تشعر إلا وحمرة المغيب تلون زجاج النافذة، فرفعت رأسها وأخذت تفرك عينيها بقوة، ثم أغلقت الكتاب المفرود أمامها ووضعته على الصف بجوارها، وفجأة انسلت من بين صفحاته ورقة صغيرة، تناولتها وهمت بإعادتها لمكانها لولا أن أوقفها الخط المنمق الذى تراصت كلماته عليها، فمالت برأسها للأمام وأخذت تقرأ بصوت خافت.

لا تزال عيني تبحث عنك... لم أجد صورتك من بين النساء اللاتي عرفتهن... حلمت بوجهك الذي لم ألقاه... مكانك إلى جواري يبحث عن دفء مشاعرك... قلبي يمني نفسه بأن تكوني حلماً لا سراباً... .فالحلم قد يتحقق يوماً... تشتاق شفتاي لأناملك الصغيرة... يقيني بالله أنني سأحظى بك يوماً ما... وحينها سأضعك نجمة عالية تضوي بنورها في أعين المكذبين بإحساسي.

تاهت بلسم وسط الكلمات، شعرت بيد كاتب الورقة تقبض على كفها وتجذبها لعالمه، لثوان شعرت بأنها تسير وسط بستان تتشابك فيه الغصون وتتساقط الأزهار على طريق صخري طويل، تفوح من جوانبه رائحة لا مثيل لها، وفي نهايته يقف مبتسماً ملوحاً بكفه أن تقدمي نحوي، أغمضت عينيها وسارت نحوه بقلبها، فشعرت بيده تربت على كتفها، ففتحت عينيها لتجد عباس يقف بجوارها مبتسماً ويده مازالت على كتفها، فارتدت للوراء رغماً عنها، مما جعل عباس يرفع يده ويحاول أن يهدئ من روعها. أحست بحرج شديد مما حدث وحاولت أن ترسم ابتسامة على شفتيها لكنها خرجت مرتبكة رغماً عنها، فحاول عباس أن يلطف الجو فأردف مازحاً:

ـ يظهر أن جو المكتبة عجبك وقدرنا نكسب صديقة زي القمر... بس مش مفروض المكتبة تعرف اسم صحبتها الجديدة.

أطلقت بلسم ضحكة خجولة زادت من إشراقها قبل أن تجيب:

ـ اسمي بلسم.

ـ الله.. إيه الاسم الجميل ده! بجد اسم على مسمى... أنا بقى عمك عباس، اسم قديم من أيام الملكية... المهم..لاقيتي طلبك ولا تحبي أساعدك؟

ـ يعني... بنسبة كبيرة استقريت على حاجات معينة... بس في حاجة أهم كنت عايزة أسال حضرتك عليها.

ـ خير؟

أمسكت بلسم بالورقة وتأملتها للحظات ثم ناولتها لعباس الذي أمسك بها وتطلعا فيها بدوره، ثم تنهد بصوت عال ورفع رأسه متسائلاً:

ـ أنتي لاقيتي الورقة دي فين؟

أشارت في صمت للكتاب الذي سقطت منه الورقة، فتناوله عباس وقلب صفحاته ثم أعاده لمكانه وسألها وعلى شفتيه ابتسامة لم تفهم مغزاها:

ـ وبتسألى عنها ليه؟

ـ الكلام لفت نظري، وبعدين الورقة بحالتها، يعني شكلها مكتوبة من فترة قريبة، وأكيد متخصش الكتاب اللي لاقتها فيه.

ـ استنتاجك في محله... الورقة فعلاً مكتوبة قريب.

سألته بلهفة فشلت في إخفائها:

ـ تعرف صاحبها؟

اتسعت ابتسامته أكثر وهو ينظر لها باستغراب، مما دفعها أن تشيح بوجهها بعيداً متصنعة النظر للكتب الملقاة على الطاولة، حتى أتاها صوته وهو يجيب:

ـ ده يا ستي أستاذ عمرو، تقدري تقولي عليه القارئ الأهم في المكتبة، هو صحفي بس بصراحة مش عارف في أنهي جورنال، وبيجي هنا كتير جداً سواء عشان يشتري أو يقعد مكان حضرتك هنا بالساعات... يقرأ... يكتب... على حسب مزاجه، وهو بصراحة إنسان محترم جداً وطيب وكان قالي مرة إنه عايش مع والدته لوحدهم بعد وفاة والده...

صمت لثوان قاصداً أن يشوق بلسم التي وقفت صامتة وعينيها تحثه على المواصلة فأردف باسماً:

ـ وعلى حد علمي مش متجوز ولا مرتبط.

أحست بلسم بالدماء تكاد تندفع من وجنتيها بعد تلميح عباس، فحاولت أن تهرب من الموقف المحرج بقولها:

ـ بس شكله موهوب... كلماته حلوة أوي وسهلة وتقدر توصل ببساطة لأي حد.

ـ والله يا بنتي قولتله كتير إنه لازم يستغل موهبته... لكن هو مقتنع أن الخواطر اللي بيكتبها لا بتقدم ولا بتأخر.

ـ غلطان.

ـ عامة هو بقاله فترة مش بيجي بس أول ما هيظهر هقوله على رأيك يمكن يشجعه أنه ياخد خطوة... ولا تحبي تقوليله بنفسك؟

بهتت من سؤاله وارتدت للوراء قبل أن تبتلع ريقها بصوت عال وهي تسأله بتعجب:

ـ ازاي؟ مش فاهمة؟

ـ يعني لو تحبي تسيبي نمرتك وأبقى اديهاله لما يجي.

ألجمتها أجابته فتسمرت بمكانها عاجزة عن الرد، لاتدري لم تفوه بهذا الكلام؟ ولم شعرت بتلميح سخيف يختبئ خلف عبارته؟ ولكن رغماً عن هذا ودت أن تجيبه بنعم، للحظات تشاحنت عشرات الأفكار برأسها، قبل أن تستعيد توازنها مطلقة ضحكة عصبية وهي تجمع أشيائها قائلة:

ـ لالالا... شكراً يا عم عباس... أنا بس حبيت أعرف معلومة معينة وأديني عرفتها.

التقطت كتابين من الصف الموضوع أمامها وقالت له:

ـ أنا هشتري دول.

ـ المكتبة كلها تحت أمرك.

أسرعت الخطى نحو السلم لتنزل درجاته وتقف أمام مكتب عباس الذي نزل ورائها ببطء يسبقه صوت أنفاسه اللاهثة، جلس قبالتها يلتقط أنفاسه بينما قامت هي بفتح حقيبتها ونقدته حق الكتابين، قبل أن تلتقطهما وتجري مسرعة خارج المكتبة وكأنها تهرب من شيء ما، ولكن قبل أن تبلغ الباب سألها عباس بصوت عال:

ـ هتشرفيني تاني يا أستاذة بلسم؟

تسمرت مكانها للحظات وخفقات قلبها تكاد تصل لمسامعه، رسمت على وجهها ابتسامة هادئة، ثم التفتت له وأومأت برأسها موافقة، قبل أن تبتعد بخطوات سريعة ويبتلعها زحام الشارع.

الصديق

أبواق السيارات لا تكف عن الصراخ، صرير العجلات يدوي بين الحين والآخر، الناس تتدافع إلي الشوارع كأنهم أسراب نمل، تسعى لجمع الطعام قبل أن يحل الشتاء، لوحة فنية من الإزعاج، يتابعها عمرو من خلف زجاج القهوة، قبل أن ترسل الشمس قبلات الغروب، يجلس على المقعد الكائن في آخر المكان، يسبح مع عقله في عالم بلا أسوار ولا حدود.

تمضي به الساعات وكأنها لحظات معدودة، لا يقاطعه سوى صوت الجرسون وهو يلبي طلبات رواد القهوة واحداً تلو الأخر، وكالعادة يكتفي هو بتعبئة صدره من رائحة البن المنبعث من الفناجين المحيطة به، يظل على حاله حتى يحضر جمال في نهاية اليوم، ليبدأ فاصل من الحكاوي التي لا تنقطع، يسرد فيها كل واحد ما وقع في يومه، فكتف كل منهما يسع لهموم الآخر، أحلك لحظات حياتهما لم تكن تمر لولا وقوفهما لجانب بعض.

نظر عمرو للكرسي المقابل له وكأنه يستفسر منه عن تأخر صاحبه، خيل إليه أن جمال ينظر اليه ويداعبه كما هي عادته، فندت منه ضحكة خافتة وصارحه بما فعلته هند وكيف أنها أخلفت موعدهما، وهنا بدأ يتصور رد فعل صديقه وكيف أنه سيستشيط غضباً ويلقى باللوم على عاتقه بل وسيهاجم سلبيته التي باتت واضحة للجميع، حينها سيشهر سيف حجته التي لا تتغير وهي أمه التي يرعاها ولا يخطو خطوة من دونها، خاصة أنه وحيدها الذي أبقت عليه الأيام

ليكون عكازها في أواخر أيامها، حينئذ سيتركه جمال يخرج نوبة انفعاله ويظل صامتاً، قبل أن يتطلع إليه بنظرات حانية ويأخذ رشفة من فنجانه، ويقول:

ـ يا بني أنا خايف عليك... لازم حياتك تتغير، وأهم تغيير لازم يتنفذ أنك ترتبط وبشكل رسمي كمان، هو ده الحل صدقني... يا عمرو وجود إنسانة معاك في بيتك وحياتك أمر لا مفر منه، وأنت فاهم وأنا فاهم أنا قصدي إيه.

وهنا يخيم الهدوء على المكان، فمقصد صاحبه لا يحتمل التأويل، ارتباطه بوالدته وعدم مقدرته على الدخول في علاقة عاطفية خوفاً من التقصير في حقها أصبح حكاية تلوكها الألسنة، وهو لا يقدر على إسكاتها، حبس نفساً عميقًا من هواء المكان قبل أن يطلق سراحه ويعود لواقعه، ليجد الكرسي لا يزال خاوياً في انتظار صاحبه الذي طالت غيبته، فيتظاهر بمتابعة الطريق، مكتفيا بذاك الحديث الصامت الذي دار في عقله.

نسمة صيف عابرة داعبت رموشها المسدلة، حفيف الأشجار امتزج بصوت صلاح جاهين، المنبعث من هاتفها، صوته الحزين يشدو كلمات أشعاره،

الشارع دا كنا ساكنين فيه زمان... كل يوم يضيق زيادة عما كان

أصبح الان بعد ما كبرنا عليه... زي بطن الأم ما لناش فيه مكان

فتحت عينيها لترمق الشارع الساكن بنظرات شاردة، ظنت لوهلة أن والديها قادمين من بعيد، يسيران كعادتهما في شوارع المنطقة وقت المغيب، اعتدلت في

جلستها وكادت تلوح لهما قبل أن تتسمر بمكانها ويصرخ عقلها بحقيقة رحيلهما، أطل الأسى من عينيها فعادت لشرودها الحزين، مدت يدها وتناولت كوب النسكافية الساخن وأخذت رشفة صغيرة، أسلمت بعدها جفونها للراحة وهي تفرد قدميها للأمام.

وفجأة ودون مقدمات حطت ورقة الخواطر رحالها بعقلها الشارد، تذكرت كلماتها العذبة التي كتبها دون شك شخص مختلف، شخص يتألم من الوحدة، شخص يسهل عليه أن يحول المشاعر والأحاسيس لشخص ينبض ويتكلم، شخص تود أن تلتقيه.

ـ اللي واخد عقلك...

أتى صوت مي من خلفها بشكل مفاجئ، جعلها تعتدل في جلستها وترمق أختها بنظرة معاتبة، ضحكت على أثرها مي وهي تجلس قبالتها وفي يدها كوب تنبعث منه أدخنة خفيفة. أشاحت بلسم بوجهها بعيداً فأردفت مي وهي تميل برأسها على كتفها:

ـ مش هتقوليلي مالك؟ شكلك متغير عن الأيام اللي فاتت، هو في حاجة حصلت أنا معرفهاش؟

نظرت لها بلسم وترددت لثوان، ثم حسمت أمرها وقصت عليها ما دار في المكتبة، والأخيرة تتابعها بوجه خال من التعبيرات، حتى انتهت من سرد قصتها، فأطلقت تنهيدة حارة قالت أثرها:

ـ يعني السرحان والحال اللي متشقلب دا كله... من ورقة!! غريبة.

ـ كنت عارفة أنك مش هتفهميني.

ـ لا والله مش القصد، بس مستغربة مش أكتر... طيب خلينا في المهم.. ممكن بقى أعرف ايه اللي بيدور في دماغك؟ أصل متقنعنيش إن حتة ورقة تعمل فيكي كدا... أكيد في حاجة تانية شاغلة دماغك.

ـ فاكرة يا مي بابا وماما وقصة الحب اللي كانت بينهم وكنا عايشين تفاصيلها؟ فاكرة كانوا عاملين إزاي؟ طول عمري وأنا بحلم أعيش قصة زي قصتهم، نفسي في شخص زي بابا يكون كل حاجة في حياتي وأكون أنا كل حاجة في حياته.

ـ ومراد؟ مش حاسة إنه هو الشخص اللي بتدوري عليه.

ـ مش عارفة... ساعات بحس أن هو وساعات بحس أنه مجرد صديق، إحساسه واصلني لكن مش مالكني، بحب أسمع كلامه لكن للأسف بسمعه بعقلي مش بقلبي.

ـ صحيح... هو عامل إيه دلوقتي؟

ـ مامته لسة مكلماني من شوية بتقول إن صحته في تحسن مستمر لكن لسة مانعين عنه الزيارة.

ـ ربنا يقوّمه بالسلامة... طيب ممكن أسألك سؤال؟

ـ طبعاً يا حبيبي.

ـ لهفتك وخوفك الرهيب اللي كانوا باينين عليكي لما حصلت الحادثة.. كانوا ليه؟

ـ بحاول أكتب قصتي بايدي بدل ما أنا بدور عليها في خيالي... مراد إنسان بمعنى الكلمة وفي وقت من الاوقات كنت حاسة إنه الشخص اللي بتمناه لكن لما قرأيت الورقة دي... حسيت أني عايزة أشوف صاحبها... طيب أقولك على حاجة واوعي تقولي عليا مجنونة... أنا حسيت أن الكلام دا مكتوب عشاني.

ـ الورقة وصاحب الورقة مجرد خيال رومانسي... وجايز أوي لو قابلتي صاحبها تلاقيه مرتبط ويكون كاتب الكلام دا لحد تاني... لكن مراد أمر واقع وشخص بيحبك ونفسه تكوني جنبه... راجعي نفسك يا بلسم وبلاش تعيشي قصة مش موجودة غير في دماغك أنتي وبس.

هنا اشاحت بلسم بوجهها بعيداً، وعادت لشرودها السابق بعدما جف الكلام بينها وبين أختها التي احترمت صمتها واكتفت بمتابعة الشارع هي الاخرى.

ألم رهيب اجتاح جسده، عضلاته كادت أن تنطق بطلب الرحمة، ريقه كصحراء جافة، لسانه لم يكف عن ترديد الشهادتين، بعدما شعر باقترابه من حافة الموت أكثر من مرة، وللمرة الأولى منذ أيام يلمس جسده مقعد، فطوال الفترة الماضية عاش في جسد خفاش رأسه لأسفل وقدميه لأعلى، لا يدري من أين تأتيه الضربات.

أراح رأسه للوراء واستسلم لنوم وهمي، عيناه المعصوبة لم يكن يسمح لها بأكثر من هذا، طال الوقت وهو ملقى على المقعد، حتى تناهى لمسامعه صوت خطوات تقترب، وعلى بعد أمتار قليلة توقفت، جاءه بعدها صوت المحقق الذي تكلم معه من قبل، كان يصرخ في تابعيه، يبدو أن عدم تعاون حسام مع سجانيه لم يلق أعجاب المحقق المجهول، الذي ارتفع صوت ولاعته بالمكان، أعقبها هواء معبأ برائحة النيكوتين تسلل لأنف حسام، فأخذ يسعل عدة مرات، وحينما توقف شعر بأنفاس المحقق تكاد تلفح وجنتيه وهو يسأله:

ـ عامل إيه؟ يارب تكون مستريح في قعدتك معنا.

ـ يا فندم أنا عملت إيه عشان تعملوا معايا كدا... والله العظيم أنا مليش دعوة بأي حاجة... وبعدين التعذيب اللي شوفته الأيام اللي فاتت يخلي اللي ميكلمش يتكلم... يعني لو أنا أعرف حاجة كنت قلتها وخلصت نفسي من العذاب دا.

ـ لا الموضوع مش كدا... أنت اللي شكلك مدرب بطريقة تخليك تستحمل كل اللي عملناه فيك... بس لو فضلت على سكوتك، أنا عندي اللي يخليك تتكلم.

بُهت حسام من الكلام وعقد حاجبيه متعجباً، وتساءل بينه وبين نفسه عما يعنيه المحقق، لكن حيرته لم تدم طويلاً بعدما أردف ساخراً:

ـ هي أمك عاملة إيه؟

اعتدل حسام في جلسته وشعر بالدماء تتصاعد لرأسه، فنفرت عروق رقبته ونبت عرق غزير على مقدمة رأسه، ثم مال للأمام واقترب أكثر من أنفاس المحقق، قائلاً بصوت غاضب:

ـ لو راجل فكني وأنا أقولك هي عاملة إيه؟

تراجع المحقق للوراء مندهشاً من رد فعله، ورغماً عنه تسلل القلق لنفسه، فحاول أن يداريه بضحكة ساخرة، أعقبها بإشارة لصاحب البنيان القوي الواقف خلف حسام، فأمسك بمؤخرة عنقه وجذبه للخلف بقوة، لكن الأخير قاومه بشدة وهو يصرخ غاضباً:

ـ اسمعني كويس... أنا مش إرهابي ولا عمري كان لي نشاط سياسي... وأكيد الرجالة اللي شغالين عندك أكدوا اللي بقوله... روح دور يا بيه على اللي فجر الكمين بدل ما أنت عمال تعذبني على الفاضي وفي الآخر جاي تهددني بأمي... أقسم بالله ما عملت حاجة... لكن لو قربت من أمي، ساعتها هتكون خلقت إرهابي بحق وحقيقي... إرهابي نتيجة أفعالك.

دوت ضحكة المحقق في المكان، وهم بقول شيء ما، لكن قاطعته خطوات سريعة رنت خلفه، قبل أن تتوقف ويصدر بعدها فحيحح خافت أشبه بشخص يهمس بكلمات غير مفهومة أعقبها صمت تام، جلس حسام صامتاً لا يدري ما يحدث، لكن بعد لحظات من الصمت تناهى لمسامعه صوت المحقق وهو يقول متعجباً:

ـ مش معقول! حصل امتى الكلام دا؟

عاد من جديد صوت الهمهمات غير المفهومة يهس بالمكان، ورغم عدم وضوح الكلام، شعر حسام بأن الأمر يخصه، بل وأحس أن هناك أمر لم يأت على هوى المحقق الذي أطلق صيحة مدوية في وجه صاحب البنيان القوي يأمره بأخذ حسام إلى زنزانته، فهب الأخير من على مقعده قبل أن يصل اليه سجانه وقال ساخراً:

ـ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين... مش قولتلك برئ.

حقيقة غائبة

نهبت قدماه الطريق بخطوات صارمة، فعلت طرقاتها بالممر الطويل المؤدي لغرفة قائده، انتصبت القامات وارتفعت الأكف بتأدية التحية العسكرية له، تجاهلها جميعاً بعدما احتشد عقله بعشرات الأفكار، فظهر على عكس المعتاد بوجه شارد النظرات؛ كلمات مساعده لا تزال ترن في أذنه، ما سمعه قد يغير مجرى القضية ويجعله يظهر بشكل غير لائق أمام رؤسائه، لم يقل المساعد سوى جملة واحدة لكنها كانت كافية بتعكير مزاجه، فقد أخبره أن هناك جماعة إرهابية أعلنت مسؤوليتها عن الحادث، بل وذكرت اسم منفذ العملية، خبر لا تتعدي كلماته أصابع اليدين، لكنه كاف جداً لبعثرة أوراق التحقيق، وللمرة الأولى ومنذ عُيّن في أمن الدولة يشعر بالقلق الشديد من لقاء رئيسه، توقف أمام الباب للحظات شد فيها قامته وحاول أن يرسم الصرامة على وجهه، قبل أن يطرق الباب ويدلف للمكان.

وبالداخل طالعته غرفة شاسعة تنتهي بمكتب كبير، جلس خلفه رجل نحيف الوجه والجسد، رأسه مثل لوحة بيضاء تتناثر عليها خيوط رفيعة سوداء، عروقه النافرة تتمايل على جانبي رأسه، بدا عليه الانهماك الشديد في مطالعة بعض الأوراق، والتي كادت تغطي اللافتة الذهبية الموضوعة في مقدمة المكتب، والتي كتب عليها بخط عريض اللواء "جابر أبو الفضل".

تسمر طارق بمكانه دون أن ينبس بكلمة واحدة، طال انتظاره فظن لوهلة أن رئيسه لم يشعر به، لكن تبخرت ظنونه بعدما تحدث له الأخير دون أن يرفع عينيه عن الأوراق قائلاً:

ـ ازيك يا طارق..عامل إيه؟

ـ الحمد لله يا فندم.

خيم الصمت على المكان مرة أخرى، وعاد كلاهما لما كان عليه، طارق يقف على بعد خطوات من مكتب رئيسه، والأخير يواصل مطالعة أوراقه، أحس طارق بحبات العرق تسيل على خديه بالرغم من برودة المكتب المكيف، وهم بالتحدث لرئيسه لولا أن أشار بكفه للكرسي أن اجلس، فتقدم طارق ونبضات قلبه تكاد تصل لمسامع قائده الذي سأله وهو مازال يفحص الورق:

ـ بلغك طبعاً خبر الجماعة اللي أعلنت مسؤوليتها عن التفجير؟

ـ أيوة يا باشا.

ـ ورأيك إيه؟

ـ مش متفاجأ... لكن اللي محيرني شوية أنهم قالوا على اسم الواد اللي كان راكب العربية ومجابوش سيرة الواد اللي عندنا.

ـ ودا معناه إيه؟

ـ اثنين ملهمش ثالث... يا إما عايزين يخرجوا الواد دا منها ويصورا لينا أن اللي كان سايق العربية هو اللي قام بالتفجير لوحده... .يا إما يكون الواد دا كلامه مظبوط وميكونش له دعوة بالحوار من أصله.

وللمرة الأولى يترك اللواء جابر أوراقه ويرمق طارق بنظرة صارمة ارتجف لها الأخير وانكمش بمقعده، خاصة حينما خرج صوت رئيسه كأنه يخرج من بئر سحيق قائلاً:

ـ بعد اللي عملته فيه دا كله... جاي تقول احتمال يكون برئ.

ظهر الارتباك على ملامح طارق بعدما شعر بتغير نبرة قائده، وابتلع ريقه بصوت عال وهو يقول:

ـ يا باشا أنت عارف الظروف اللي احنا شغالين فيها... وعارف كويس أن القيادة السياسية منتظرة خبر العيال اللي عملوا كدا.

ـ تمام.. بس القيادة مش هترضى أننا نضحك عليها ونقولها إن دا اللي عملها بالاونطة... ساعتها لو اتعرفت الحقيقة هنروح كلنا في داهية.

ـ يا باشا ومين قال إننا عايزين نلبسها للواد دا... بالعكس احنا لا بنام ولا بنروّح بيوتنا عشان عايزين نوصل فعلاً للي عمل كدا في زمايلنا... أنا معملتش الصح مع الواد دا إلا لما لاقيت له ملف عندنا يخص تعامله مع الشيخ جلال بتاع حدائق القبة.

ـ وإيه علاقته بالشيخ جلال؟

للمرة الثانية يظهر الارتباك على وجه طارق، حتى أن الكلمات خرجت متلعثمة من بين شفتيه وهو يرد على سؤال قائده:

ـ مفيش علاقة وثيقة... بس كان متعود يحضر دروسه من وقت للتاني ولما اختفى الزفت اللي اسمه جلال الرجالة بتوعنا فضلوا مراقبينه فترة، ولما ماطلعوش بحاجة استجوبوه شخصياً.

ـ ووصلوا لحاجة؟ يعني الواد طلع فعلاً له علاقة بجلال أو يعرف مكانه؟

ـ لأ.

ـ لأ!؟

خيم الصمت على المكان بعد كلمة رئيسه الأخيرة والتي قالها بصوت عال ممتد، أخذ بعدها ينقر بأصابعه على سطح مكتبه وهو يحدق في وجه طارق بنظرات نارية، شعر معها الأخير بخيوط العرق تتسابق على ظهره، وانكمش في كرسيه منتظراً ما سيتفوه به قائده.

أشاح الأخير بنظره بعيداً وبدا عليه التفكير العميق، ثم عاد ونظر لطارق قائلاً وهو يضغط على كل كلمة تخرج من فاه:

ـ الواد دا يخرج فوراً لزنزانة عادية... فاهمني عادية... وهاتوله دكتور، ومش عايز بني أدم يقرب له لحد ما نقدر نستجوب الرائد مراد أو الرائد يوسف... فاهم يا طارق.

ـ فاهم يا باشا... تؤمرني بحاجة ثانية معاليك.

خفض رأسه وتشاغل بفحص الأوراق مرة أخرى وهو يشير له بالانصراف، فنهض طارق وخطى مسرعاً نحو الباب، وما إن وضع يده على مقبض الباب حتى أتاه صوته وهو يقول:

ـ اه... ياريت تاخدلك يومين إجازة تريح فيهم دماغك اللي شكلها وقفت كدا من كتر الشغل، ولما ترجع نبقى نشوف إن كنت هتفضل ماسك القضية ولا هسلمها لحد تاني.

تسمر طارق بمكانه للحظات اعتصرت فيها كفه مقبض الباب حتى كادت أن تنتزعه من مكانه، لولا أن تماسك والتفت لقائده قائلاً بصوت مبحوح:

ـ تحت أمرك يا فندم.

اللقاء الأول

للمرة الأولى تشعر بلسم بأن قدميها تتحرك بها دون وعِي، سارت بين الناس بعقل شارد، خفقات قلبها تزداد كلما اقتربت من المكتبة، شوارع وسط البلد صارت متشابهة وكأنها تحولت لشارع واحد يؤدي في نهايته لهدفها المنشود، تذكرت كلمات صديقتها هدير وهي تشكرها على البحث، وكيف أنه لاقى استحسان مدرس ابنها، حينها اكتفت بابتسامة هادئة و رد مقتضب أثار تعجب صديقتها، لم تبح بما جرى بالمكتبة، تعللت بقلة النوم وهربت من أسئلتها الفضولية، قطعت عليها الطريق والتقطت حقيبتها وفرت من أمامها، أستأذنت رئيسها في العمل ورحلت مسرعة، وخلفها صديقة تقف متعجبة، تضرب رأسها عشرات الأسئلة.

نزلت للشارع تاركة العنان لقدمبها وأسلمت دفة السير لقلبها، تحركت ساقاها وكأنها مأمورة بالسير للمكان الذي قلب حياتها في يوم وليلة.

في أول الشارع وقفت تنظر للمكتبة، الواجهة الزجاجية يطل من خلفها عم عباس بوجهه البشوش، يجلس كالمعتاد على مكتبه المعدني يطالع أحد الكتب، تاملته طويلاً قبل أن تمد يدها وتمسك بمقبض الباب وتديره، صريره يرتفع في المكان بشكل دفع عباس لرفع رأسه لمعرفة هوية القادم، وما إن رآها حتى انفرجت أساريره ونهض مرحباً بها، فأسرعت نحوه وهي تمد يدها له، وقفت

حائرة للحظات، دارت ببصرها في المكان وكأنها تبحث عن شيء ما، قبل أن تقول وهي تهرب بعيداً عن نظراته:

ـ بصراحة أنا كنت بخلص مشوار قريب من هنا وقلت اعدي أسلم على حضرتك واتفرج على المكان، عشان المرة اللي فاتت كنت جاية لحاجة معينة.

ـ المكان كله تحت أمرك ولو في كتاب عجبك وعايزة تسأليني عليه أنا قاعد جنبك هنا.

هز رأسه وهم بالرجوع لمكتبه، لكن توقف واستدار لها متسائلاً:

ـ بقولك إيه يا أستاذة بلسم... مادام أنتي مش جاية لحاجة معينة، تحبي أختار لك أنا؟

ـ ياريت.

تحرك بخطواته الهادئة نحو مكتبه وسحب أحد أدراجه وتناول منه حافظة تمتلئ بالورق، عاد بعدها لبلسم وناولها الحافظة، فامسكت بها وقلبتها في تعجب ثم سألته:

ـ إيه دا يا عم عباس؟

ـ دي بقى تجميعة للخواطر اللي كتبها أستاذ عمرو من ساعة ما جه هنا المكتبة.

ـ وحضرتك جمعتها ازاي؟

ـ أستاذ عمرو متعود أنه يكتب الخواطر دي ويسيبها كفاصل بين الصفحات، وغالباً بينساها... فأنا من ساعة ما قريتها أول مرة وهي عاجباني جداً فقلت

حرام انها تضيع، وبدأت اجمعها عندي، وكل ما يجي المكتبة أقعد أتكلم معاه عشان يخدها ويجمعها في كتاب لكن بيرفض... ودلوقتي لما قلتي انك مش عايزة كتاب معين افتكرت الخواطر وقلت يمكن تحبي تقريها.

رمقته بنظرة طويلة خالية من أي تعبير، فقد كان كلامه منطقياً، وهي بالفعل تشتاق لقراءة الخاطرة مرة ثانية فما بالك بالمجموعة كلها، أمسكت بالحافظة وارتسمت على شفتيها ابتسامة هادئة ثم شكرته بكلمات مقتضبة قبل أن تصعد درجات السلم الخشبي، وقد اطبقت بقوة على حافظة الورق؛ وبالاعلى جذبت المقعد وجلست على الطاولة واضعة الحافظة امامها، ظلت لثوان تتطلع إليها دون أن تتحرك، أخذت بعدها نفساً عميقاً ثم أطلقته بقوة، وفي النهاية امسكت بالحافظة وأخرجت أول ورقة وشرعت في قراءتها، غابت عن الدنيا وغرقت في بحر السطور المنمقة، تسمر جسدها على المقعد فتحولت لآلة تتحرك ذراعها فقط ليقلب الصفحة التي أتمت قراءتها.

وبعد ساعات لم تحص عددها، شعرت بالهدوء ينسال لأوصال جسدها، وبرغبة قوية في أن تغمض عينيها وتسلم جسدها لذلك العالم الجميل، الذي خلقته كلمات الخواطر، عالم بلا قيود، تتحرر فيه نفسها من الخجل، وتسكن بجسدها داخل حضن دافئ يحوطها ويحميها من أعين من حولها، لملمت الأوراق ووضعت كفيها على الطاولة، أغمضت عينيها ورأت بقلبها صاحب الخواطر يقف على الشاطئ، وعينيه تنطق باسمها..

ـ صباح الخير

فتحت عينيها على أخرهما، وودت ان تلتفت ورائها لكنها لم تستطع، للحظات لم تستوعب إن كانت ما سمعته حقيقياً أم خيالاً، لم يكن الصوت يخص عم عباس، وإنما صوت اخر أصغر سناً وأكثر عمقاً ودفئاً، بالكاد لوت عنقها لتتعرف على صاحبه، وللمرة الأولى في حياتها، تتلاقي عينيها بشاب ولا تقوى على إحالتها عنه، هربت كثيراً من نظرات معجبيها، لكن أمام عينبه العميقتين أسلمت راياتها، لم تدر متى نهضت من على مقعدها، تعلقت بابتسامته البسيطة ونظراته الناطقة بتساؤلات عديدة، شعور غريب انتابها منذ رأته، يخبرها بأنها ليست المرة الأولى لهما، بل هناك موعد أخر ضرب بينهما لكن لا تتذكر تفاصيله، صوته العميق أخرجها من خيالاتها، فعاد بها للواقع:

ـ أنا أسف لو كنت أزعجتك بس أصلي لاقيت الخواطر بتاعتي معاكي فحبيت أعرف رأيك فيها... أنا عمرو.

لثوان حاولت بلسم أن تلملم شتات أفكارها، وتحاول أن تربط الكلمات ببعضها لتخرج بجملة مفيدة، وفي النهاية أجابته بصوت خافت ملأه الارتباك:

ـ أه... أهلاً بحضرتك... أنا بلسم ومعلش لو كنت أخذت الخواطر بتاعتك من غير استئذان، بس عم عباس هو اللي أدهالي.

ـ ومين قالك إني مضايق؟ بالعكس أنا مبسوط أن في حد اهتم بالتهريج اللي أنا بكتبه

ـ ياريت متقولش كده وتقلل من موهبتك، الخواطر مكتوبة بقلم محترف، بقلم عارف هو بيعمل إيه.

ـ متتصوريش كلامك دا فرحني ازاي، خاصة أنه جي من إنسانة رقيقة زي حضرتك.

عجزت بلسم عن الرد مكتفية بهز رأسها كعلامة منها، لجعله يواصل الكلام دون قلق، وبالفعل أكمل عمرو حديثه متسائلاً:

ـ يظهر إني ازعجتك؟

ـ لا خالص..أنا كدا كدا كنت ماشية... الخواطر بتاعتك نسيتني الوقت.

ـ يعني بجد تستاهل؟

علقت حقيبتها على كتفها وهمت بالتحرك ناحية السلم وهي تجيبه:

ـ طبعاً..ولولا أني اتأخرت كنت قعدت وكملتها.

ـ طيب ما تخديها معاكي.

ـ مش هينفع بقى، اصل أنا مش عارفة هاجي هنا تاني امتى.

بدا عليه الانزعاج حينما سمع جملتها الأخيرة، فحدثها بلهجة لا تخلو من الرجاء:

ـ لا طبعاً لازم تنورينا تاني... على الاقل عشان أناقشك في الخواطر بشكل اكبر.

ـ إن شاء الله.

تحركت من أمامه فتمايل شعرها بشكل زادها جمالاً وجعله يقف مشدوهاً، وقبل أن تهبط من على أول درجة سمعته يناديها:

ـ نسيتي الخواطر... ومش عايز كلام تاني... أنا مصر أنك تاخديها معاكي... على الأقل أضمن أنك هتيجي تاني.

لم تستطع أن ترد طلبه، نظراته المتوسلة كانت كافية أن تقبل منه أي شيء، وحينما همت بالتقاطها وجدته يحول بينها وبين الخواطر، فرفعت عينيها متسائلة فأجابها مبتسماً:

ـ هستناكي بكرة هنا، عشان نتناقش سوا في ال... الخواطر... ماشي؟

كانت طريقته مفضوحة بشكل فج، لكن الغريب أنها تقبلتها بل وقابلتها بابتسامة هادئة وإيماءة من رأسها، وكأنها تطمئنه باتصال قريب، يكمل سطور القصة التي بدأت لتوها.

دخان كثيف ملأ هواء الغرفة فرسم لوحة ضبابية تعثرت معها الرؤية، لمبة صفراء كئيبة توهجت وسط الدخان فأعطت إحساساً بأن الغرفة تحترق، ووسط هذا قبع ذلك الشاب الأصلع الملقب بمولانا، لمعت عيناه من أثر الضوء الصادر من شاشة "اللاب توب" المفتوحة أمامه، عبث بطرف شاربه الكث وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء، تابعت عيناه باهتمام الكلام المرسل له، اقترب من الشاشة اكثر فاكثر حتى كاد يلصق وجهه بها، بدا وكأن الرسالة

تحمل ألغازاً يصعب حلها، هز رأسه متعجباً ثم عاد للوراء، شبك أصابعه خلف رأسه وهو مازال ينظر للشاشة، ثم مال مكرراً للأمام، أطفأ سيجارته بقوة ثم تناول العلبة واخرج واحدة جديدة، أشعلها ونفث دخانها في الهواء وهو يصرخ منادياً على أحد رجاله:

مولانا: سالم... .يا ساااااااااااالم.

تناهي لمسامعه صوت خطوات تصعد السلم الخشبي بأقصى سرعة، ثوان وكان يقف أمامه القصير ذو العرجة الواضحة، وصدره يعلو ويهبط من فرط المجهود، حتى أن صوته خرج متقطعاً وهو يرد:

سالم: أوامرك.. يا.. مولانا.

نفث دخان سيجارته في وجه سالم الذي وقف متسمراً في مكانه لا ينبس بكلمة واحدة وكأنه في انتظار إشارة من سيده والذي رمقه بنظرة طويلة صارمة ارتجف لها سالم، قبل ان يلتفت لشاشة جهازه ويسأله:

ـ في اتنين ظباط من قوة الكمين لسة عايشين..صح؟

ـ تمام.

ـ في واحد منهم اسمه مراد.

ـ أفتكر كدا.

طرق مولانا على سطح مكتبه بقوة شديدة انتفض معها سالم وتراجع للوارء، أتبعها بصرخة مداوية في وجه سالم:

ـ مفيش حاجة عندي اسمها أفتكر... أنا الاجابة اللي تلزمني يا أه..يا لا... فاهم؟

أومأ سالم برأسه خوفاً وأجابه بكلمات متلعثمة:

ـ فاهم يا مولانا..هو فعلاً في واحد منهم اسمه مراد.

ـ حالته إيه؟

ـ حضرتك عارف احنا مش بنهتم بحاجة زي كدا... بس ممكن أعرف حضرتك بتسأل عن حالته ليه؟

ـ ولو ان دا ميخصكش لكن مفيش مشكلة..أفهمك... الظابط دا سيرته نضيفة جداً وواخد صيت جامد في دايرة القسم بتاعه... دا غير إنه كان له يد في القبض على رجالة كتيرة من مجموعة الشيخ جلال.

ـ واحنا مالنا ومال مجموعة الشيخ جلال؟

ـ عشان كدا مش بحب اتناقش مع اللي زيك... افهم يا بني ادم، مفيش فرق بين مجموعتنا ومجموعة الشيخ جلال مادام كلنا ضد النظام يبقى سكتنا واحدة... على الاقل دلوقتي... المهم... المعلومات اللي وصلت للناس بتوعنا أن الظابط دا محبوب بين الناس وعمال يوزع وطنية على اللي حواليه ودا طبعاً مش في صالحنا.

ـ والمطلوب؟

ـ عايزين نقرا نعي الظابط دا.

اتسعت عينا سالم على اخرهما وهو يسأل متعجباً:

ـ ازاي؟! دا جوا مستشفى الشرطة.

ـ ازاي دي بقى هتعرفها بعدين، لكن دلوقتي كل اللي عايزه منك إنك تعرفلي حالته إيه؟

ـ تحت أمرك.

تنفس سالم الصعداء بعدما أشار له مولانا بالانصراف، فخرج مسرعاً وكأن أحدهم يطارده، بينما عاد الأخير لشاشة جهازه يطالعها باهتمام وهو يهز رأسه يميناً ويساراً.

موسيقى هادئة تمتزج بقطرات المطر، أضواء خافتة تتسلل من أماكن متفرقة، ستائر وردية تتراقص على نسمات الهواء، جسد بلسم الساكن تمدد على السرير، فزاد من جمال الغرفة، تمايل جسدها مع سطور الخواطر المبللة بعاطفة رقيقة، سطور لم تقو على احتوائها الأوراق، فانسكبت على صدرها واخترقته، حتى وصلت لقلبها وقبضت عليه، شعور جميل لم يخطر ببالها، وجهه المألوف وابتسامته الهادئة، علقا بذهنها، لمست بأصابعها رقم هاتفه، ودت أن تحدثه، أن تسمع صوته، لكن لم تستطع. نظرت لساعتها وتأففت من تأخر أختها، تمنت وجودها ولعنت المصادفة التي جعلتها تخرج اليوم مع صديقاتها في العمل وتتأخر عليها.

مرت الساعات وهي على حالها، تنظر تارة لهاتفها وتارة للخواطر، وفي النهاية أسلمت جسدها للنوم، صوت خطوات يقترب، باب غرفتها ينفتح فيصدر صرير خافت، لكنه كان كافياً أن يوقظها، فتحت عينيها بتكاسل فوجدت مي تمد يدها على مشغل الأسطوانات كي تطفئه، فنادت عليها أن تتركه مما جعلها تنتفض بقوة وترفع يدها عن المشغل وكأن تياراً كهربائياً قد مسها، لتضع يدها على صدرها في محاولة منها لالتقاط انفاسها المذعورة، ثم التفت لبلسم وعيناها يتطاير منها الغضب قبل أن تصيح في وجهها معاتبة إياها على تلك المفاجأة، فتجاهلت انفعالها وأجابتها بكلمة مقتضبة:

ـ قابلته.

نظرت لها مي في بلاهة ورفعت حاجباً وأنزلت الآخر ثم سألتها:

ـ قابلتي مين؟

ـ صاحب الورقة.

حدجتها بنظرات خاوية وكأنها تحاول أن تفهم مغزى كلامها، ثم هزت رأسها وهي تقول:

ـ أه صاحب الورقة.. افتكرت أفتكرت، ودا قابلتيه فين؟

روت لها ما دار بينها وبين عمرو بكلمات قصيرة، وحينما انتهت سألتها مي:

ـ وناوية تعملي إيه؟

ـ لو أعرف كنت عملت..أنا قاعدة هتجنن من الصبح وقلت أستني لما تيجي عشان تشوري عليا.

ـ لا يا بلسم انتي عارفة كويسة أنتي عايزة إيه... أنتي عايزة تكلميه... ومستنية تسمعيها مني عشان تريحي نفسك.

ـ لا طبعاً... إيه اللي بتقوليه دا.

ثم أشاحت بوجهها بعيداً و نهضت متحركة باتجاه النافذة، لتقف أمامها صامتة وعيناها تتابعان الشارع بنظرات شاردة. تابعتها مي وتقدمت نحوها ثم وضعت يدها على كتفها وضمتها إلى صدرها وهي تقول:

ـ عارفة يا بلسم إيه أكتر حاجة بخاف أن امشي وراها... قلبي... أو بمعنى أدق أني أخد قرار بقلبي بس... لازم العقل يشتغل الأول وبعد كدا القلب، وأنا بصراحة شايفة أن مشاعرك المرة دي هي اللي سايقة الموضوع، ودي حاجة غريبة عليكي... انتي طول عمرك عاملة زيي بتفكري كتير ويمكن أكتر مني كمان، إيه بقى اللي حصل المرة دي؟ وبعدين تعرفيه منين دا عشان تتعلقي بيه كدا؟

عادت بلسم لشرودها بعد جملة اختها الأخيرة، فكلامها يحمل وجهة نظر منطقية، عمرو شخص مجهول إلى حد ما بالنسبة لهما، وأمر كهذا يثير القلق خاصة في ظل وضعهما كأختين تعيشان بمفرديهما. شعرت بصداع يهاجمها بقوة، فأمسكت رأسها واخذت تفرك جبينها بكفها، مما جعل مي تشعر بتأنيب

الضمير لكونها السبب في حيرة اختها، فربتت على كتفيها وهي تقول بصوت حنون:

ـ طيب بقولك إيه... مقابلة واحدة مش هتخسر، على الأقل نعرف دماغه ماشية ازاي... وبعدين وانتي بتتكلمي معاه أكيد هنعرف معلومات تانية عنه... وإن شاء يطلع إنسان كويس ومحترم.

لم تستطع بلسم أن تخفي فرحتها بما قالته أختها، فارتمت في حضنها وأخذت تقبلها في سعادة، وعينيها تتلألأ بعبرات جاهدت في كبتها.

تعلقت عيناه بشاشة التليفزيون المفتوح دون هدف، حاول أن يشغل نفسه بفيلم أو مسلسل لكنه فشل، وجهها الملائكي طارده طوال اليوم، لم يستطع أن يحصي كم مرة أعاد عقله مشهد لقائهما.

نهض من على الكنبة وتحرك نحو الشرفة، جلس على الكرسي بداخلها وفرد قدميه على المقعد المقابل، نسمات الليل تلاعبت بأوراق شجرة اللبلاب التي ضربت بفروعها في المكان كله، أسند رأسه إلى ظهر الكرسي وأغمض عينيه، ليتذكر ما دار بينهما حينما ألتقاها ثانية في المكتبة، في أول الأمر لم يصدق نفسه أنها سبقته وجلست في انتظاره ومعها كتيب خواطره، أخذ يتأملها في صمت دون أن تشعر بوجوده، يد باردة أمسكت بقلبه واعتصرته حتى خارت قواه، تأمل أصابعها الرقيقة وهي تعبث بأوراق خواطره وود أن يحل محلها لعله يحظى

بلمسة حانية من أناملها، دوى رنين هاتفها بأغنية شهيرة لفرقة المصريين، فتعجب من اختيارها لهذه الفرقة بالتحديد وتساءل هل تكون فرقتها المفضلة كما هو حاله؟ احتار في إجابة السؤال فتقدم منها وعلى شفتيه أبتسامة هادئة، شعرت بخطواته فرفعت عينيها بلهفة لم تخطر له على بال، لهفة زادته جنوناً واضطراب، فتلعثمت الكلمات في شفتيه وهو يسألها ضاحكاً و متعجباً:

ـ إيه دا؟ هو أنت بتسمعي لفرقة المصريين؟

ـ أه بحبها من زمان... هو أنت كمان بتحب تسمعلهم؟

ـ بصراحة أنا بحب أسمعهم عشان بيفكروني بوالدي الله يرحمه..أصله كان دايما بيشغل أغانيهم في كاسيت العربية لما كنا بنبقى أنا وهو لوحدنا.

ـ الله يرحمه... طيب وليه لوحدكم؟

ـ أصل ماما مكنتش بتحب الموسيقى بتاعتهم.

ـ اه فهمت.

ذاب الوقت بينهما ولم يعد له وجود، المقابلة التي ظنت بلسم أنها لن تستغرق ثوان، امتدت لساعات، تلون وجه كل منهما بعشرات التعبيرات، ضحك وشرود وابتسامة، كان حديثهما كنهر جار لا يصده شيء، أبواب حياتهما فتحت على مصراعيها، وبات كلاهما يعرف عن الآخر كل ما يحتاجه، وإن ظل إحساس عمرو بأنه رأها من قبل لا يفارقه، وحينما ذكرت الحادثة، اتسعت

عيناه بقوة وبدأ وكأن كلماتها قد أزاحت الغبار من على صندوق قديم ملقى بأحد ممرات عقله فقال لها:

ـ يااااااه... وأنا قاعد أسال نفسي أنا شفتك فين قبل كدا.

ـ مش فاهمة تقصد إيه؟

ـ أنا كنت موجود في الحادثة على بعد كام متر منك... وعمال أتسلى بالفرجة على الناس حواليا... لحد ماشوفتك، وساعتها كنت هعمل اكتر حاجة مجنونة ممكن أعملها في حياتي... كنت خلاص هنزل من العربية واجيلك أتعرف عليكي، لكن القدر كان أسرع مني، وجات المقطورة وشالت الكل، وفضلت بعدها في المستشفى في غيبوبة لمدة تلاتة شهور، لكن فضلت صورتك محفورة جوا دماغي، بس يظهر أنها كان في مكان ضلمة شوية... لحد ما جيتي أنتي ونورتي المكان وخلتيها تظهر من أول وجديد.

ـ نفس الشعور كان عندي، لكن كنت بكذب نفسي... غريبة اوي الدنيا دي... معقولة نتقابل تاني بعد كل المدة دي وبالشكل دا.

ـ ولا غريبة ولا حاجة... بالعكس بقى، دا الغريب لو كنا متقابلناش.

ـ ساعات مبفهمش تقصد إيه؟

ـ مستحيل... انتي بتفهميني جداً لكن بتحاولي تكذبي نفسك.

ـ المفروض أن الواحد بيفهم اللي قدامه لما يكون يعرفه كويس، واحنا لسة عارفين بعض..دي حتى تاني مرة نتقابل فيها.

ـ ومع ذلك مقدرتيش تقاومي نفسك وقابلتيني رغم اعتراض أختك.

ـ وأنت عرفت منين أن مي كانت معترضة؟

(بضحكة عالية): هي فعلا كانت معترضة!!! دا أنا بقول الكلمة كدا بالصدفة، عامة دي حاجة تثبتلك أننا فعلاً حالة استثنائية ونستاهل إننا نكون مع بعض.

ـ أستاذ عمرو.. لو سمحت خد بالك من الكلام اللي بتقوله أحسن أمشي.

ـ أنا أسف..مكنش قصدي أني اتجاوز والله..أنا بس عايز أقول إننا لازم نعرف بعض اكتر ودا مش هيحصل إلا لما نتكلم أكتر... ونتقابل أكتر.

ـ مش هينفع.

ـ ليه؟

ـ عشان... عشان في حد تاني.

ـ كذابة.

صعقت بلسم من قسوة الرد، وعقدت حاجبيها غاضبة قبل أن يعلو صوتها وهي تتوعده:

ـ أستاذ عمرو مش هسمحلك أنك تت...

ـ أنا أسف للمرة الثانية، بس غصب عني.. مقدرتش أسمعك وأنتي بتألفي كدبة تبعدي بيها عني وأقف ساكت.

ـ طيب لو سمحت يا عمرو، أنا مضطرة أمشي دلوقتي.

ـ براحتك..أنا مش هضغط عليكي ولا حتى هاخد رقمك، بس هنتظر منك مقابلة تانية.

ـ مش عارفة إذا كنا هنتقابل تاني ولالا؟

ـ هتيجي... وهنتقابل.

المؤامرة

ساد الهدوء أروقة المستشفى، بعدما انتهى موعد الزيارات، واقتصرت الحركة على أفراد الطاقم الطبي، المتواجد ليلاً في المستشفى، فقام بعضهم بجولة روتينية على المرضى، وانشغل البعض الأخر بهواتفهم.

وفي الدور الثاني ظهرت غرفة التمريض بواجهتها الزجاجية وقد جلس أفراد التمريض الثلاثة على المقاعد الجلدية الوثيرة، فغرق أحدهما في نوم عميق بينما انشغل الاخرون بهواتفهما، لحظات وظهر زميلهم الرابع، كان يسير في الممر المؤدي لغرفتهم، بخطوات يشوبها الارتباك، دس كفه الأيمن في جيب معطفه، وحاول أن يتظاهر بالهدوء وهو يتقدم ناحيتهم، ابتلع ريقه وفتح الباب، ليجلس على أحد المقاعد متظاهراً بالنوم.

كان هدوءاً ظاهرياً، يخفي خلفه عاصفة من القلق، لم يكف عقله لحظة عن مراجعة المهمة الموكلة له، مكالمة هاتفية استقبلها صباحاً قلبت حياته رأساً على عقب، شهور مضت منذ أخر اتصال بينه وبين مجموعته السرية، ظن وقتها أنه سقط من حساباتهم، وأن دوره كخلية نائمة قد يستمر لفترة طويلة، لكن ذهبت ظنونه أدراج الرياح، بعدما تلقى اتصالاً من شخص يدعى سالم، أخبره بكود التعريف الخاص به، وأمره بالتخلص من مريض يدعى مراد الراوي.

ساعتها دارت به الدنيا وكاد أن يسقط مغشياً عليه، لان دوره كان يقتصر دوماً على تتبع الأخبار واستخلاصها، لكن لم يجل بخاطره يوماً أن يزهق روحاً، أياً كان صاحبها.

عقد حاجبيه حينما بلغ تفكيره تلك النقطة، وحاول أن يلهي عقله بالمبلغ الذي رصدته المجموعة إذا ما نجح في إتمام المهمة، نصف مليون جنيه... رقم يسيل له اللعاب، رقم كاف أن ينقل أسرته الصغيرة من عالم لعالم أخر، تذكر خلافاته المستمرة مع زوجته، مصاريف البيت والاطفال، الديون المتراكمة، مشاكل وهموم دامت لسنوات، وفجأة تنشق الأرض عن حل سيقضي عليها في ثوان.

وهنا فتح عينيه وقام من مجلسه، فسأله زميله عن وجهته، فأجابه بأن موعد الدواء قد حان لبعض المرضى، اكتفى زميله بهز رأسه وعاد للعبث بهاتفه.

تحرك بخطوات مضطربة نحو غرفة مراد، حاول أن يستعيد رباط جأشه قبل أن يصل للحارس القابع أمام الغرفة، فهذا الدور ومعه دور العناية المركزة يعجان بالحراسة دون غيرهما من الادوار، كون المرضى لايشعرون بالقادم لهم، لذا وجب توفير حراسة كافية.

فتح زراير معطفه وأخرج ملفاً طبياً، تقدم به نحو أحدهم وأخبره بأن موعد إعطاء الدواء قد حان، فأفسح له الطريق، دفع الباب فظهر خلفه جسد مراد الممدد على الفراش، تحيط به الاجهزة من كل جانب، وبسببها ترتفع دقات قلبه في المكان برتابة تثير الاعصاب، تقدم الممرض نحوه بخطوات حذرة وكأنه

يخشى أن يوقظه، رغم علمه بأن مراد غائب عن عالمنا منذ التفجير، أخرج من معطفه حقنة صغيرة، ترقرق بداخلها سائل شفاف، تأملها للحظات ثم تناقلت عيناه بينها وبين شاشة جهاز ضربات القلب، كان يعلم جيداً أن قلب مراد لو توقف، سيطلق الجهاز إنذاراً يدوي بالمكان وفي غرفة التمريض، حينها سيقع مثل الفأر في المصيدة، لذا اختار هذا العقار والذي سيتسبب بحدوث أزمة قلبية لمراد، لكن بعد فترة وجيزة تسمح له بالابتعاد عن الغرفة، وإظهار الامر وكأنه وفاة طبيعية.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة يهنئ بها نفسه على ذكائه، ثم رفع الحقنة أمام عينيه ومدها نحو المحلول المعلق بجوار مراد والمتصل بجسده، كي يغرزها فيه ويدفع بالسائل.

تعلقت عيناه بالشاشة وعلا الاهتمام ملامحه، راجع تفاصيل الخبر مرة تلو الأخرى، فالكلمة في مهنته كالعيار الناري، إذ ما خرج من الفوهة لا يمكن إعادته، وبالرغم من وجود زملاء له مهمتهم فقط المراجعة، لكنه لا يحب أن يعدل أحدهم عليه.

شعر بنبض خافت يطرق جفنيه، فأغمض عينيه للحظات ووضع رأسه بين راحتيه، جال بخاطره صوت بلسم فارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة، تنهد بصوت مسموع ولسان حاله يدعو أن يصدق حدسه وتهاتفه، فرك عينيه بقوة

ومسح وجهه بكفه، ثم ألقى نظرة سريعة على المكان، وقبل أن يخفض رأسه ويعود للعمل شاهده يدخل الصالة، يسير بجسده الممتلئ إلى حد ما وبشرته السمراء، تتوهج صلعته أسفل أنوار المكان، نظارته الشمسية التي تعود أن يختفي خلفها تستقر على أنفه الدقيق، ابتسامته الصفراء التي اعتاد أن يوزعها على الجميع عالقة بشفتيه، مشيته لا تتغير وكأنه سيخترق الأرض أو سيبلغ الجبال طولاً، إنه شريف العسال، صحفي الشئون السياسية حالياً وزميله المقرب سابقاً.

جمعتهما الصداقة يوماً ما وفرقتهما السياسة بعدها، عمرو اختار أن يقف إلى الجانب الاضعف جانب الحريات بينما أختار شريف الجانب الاقوى جانب السلطة والاجهزة الامنية، تملق كثيراً لهم وصار يخطب ودهم بمناسبة ودون مناسبة، حامت حوله الاقاويل بأنه بات عينهم التي تسجل كل ما يدور بالمكان، لدرجة أن تحول اسمه إلى الأمنجي، سد عمرو أذنيه عن هذا الكلام وحاول أن يدافع عنه، صارحه بما يدور في أورقة المبنى، ظن أن صديقه سيثور غضباً لكن العجيب يومها تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجهه، وقوله بأن كل هذا لايعينيه وأن الشخص النجاح لابد وأن يقف في طريقه محبو الفشل، وقتها لم ينف التهمة بل قال إن الذكي من يختار أن يحتمي خلف الحائط الاقوى، حينئذ تأكد عمرو أن صديقه رحل ولن يعود، تذكر حوارهما بعدما طالب بنقله لقسم الأخبار العالمية، وقتها تفاجأ بشريف ووقف أمام مكتبه الجديد متسائلاً:

ـ بلغني أنك سيبت الاخبار المحلية واتنقلت لقسم الخارجي... ليه يا ترى؟ في حاجة ضايقتك في القسم القديم؟

ـ لا... كل الحكاية أني لاقيت نفسي محتاج أغير حاجات كتير كنت بعملها على مضض.

ـ وهي أخبار البلد فيها حاجة تخليك تقرف أنك تكتب عنها؟

ـ بالعكس... دا كلها أخبار تفرح، بس تقدر تقول إني زهقت من الاخبار المستقرة وعايز أشتغل في أخبار بتتغير كل لحظة.

ـ يا راجل طيب... وهي الاخبار عندنا ما بتتغيرش؟!

أجابه عمرو بصوت خافت، لم يميزه شريف:

ـ ما بتتغيرش من ستين سنة.

اقترب منه شريف وسأله باستغراب:

ـ نعم؟ بتقول إيه؟

ـ (بصوت واضح): ما بقولش حاجة... وأنت إيه اللي جابك بدري النهارده؟

ـ بصراحة لما سمعت خبر نقلك كان عندي فضول أعرف السبب ولو اني عارف أنت عملت كدا ليه... بس حبيت أسمعها منك.

ـ ويا ترى أنا نقلت نفسي ليه؟

خلع شريف نظارته الشمسية، ونظر بعينيه الضيقتين مباشرة في وجه عمرو، وأجاب:

ـ طول عمرك وأنت بتكره أخبار الحكومة، ونفسك أوي تنشر رأيك الشخصي بعيد عن التحقيقات اللي بنعملها هنا وبتتراجع أمنياً قبل ما تنزل... نفسك تتكلم عن الحريات والحقوق والأسعار والخدمات اللي المواطن مش لاقيها و...

صمت للحظات وكأنه يريد إثاره فضول صديقه، ثم عاد واستكمل عبارته وهو يضغط على كلماتها:

ـ وعن.. تداول السلطة..مش كدا ولا إيه؟

ـ مش عيب إن الواحد يفكر في بلده وأهل بلده لكن العيب أن الواحد يعيش لنفسه ومصلحته.

ـ بس انت كدا هتمشي عكس التيار وعكس الناس كلها.

ـ لازم في حد يمشي لوحده عشان أحنا بشر ومختلفين... وبعدين يا سيدي امشي لوحدي احسن ما امشي مع القطيع اللي في الأول وفي الأخر كله بهايم وغنم.

استقام شريف في وقفته، وعدل سترة البدلة، ثم وضع نظارته من جديد وهو يقول بلهجة ساخرة:

ـ طيب ابقى خد بالك من الغنم والبهايم... عشان بينطحوا... وأنت مش أد نطحتهم... سلام.

دوى صوت شريف بالمكان، فأعاد عمرو للصالة مرة أخرى، ليجد صديقه السابق يسير مبتعداً عن مكتبه ملوحاً بيده لزملاء اخرين بالمكان، فهز رأسه متعجباً وحمد الله أنه لم ينتبه لوجوده، ثم عاد ليتابع الشاشة في صمت.

منذ استيقظت بلسم وهي تشعر بـتأنيب الضمير، صورة مراد لم تفارق وسادتها، تخيلته يقف في نهاية شارعها وقد ارتسم الحزن العميق على وجهه، اقتربت منه أكثر فلمحت الدموع تترقرق داخل عينيه، اختلج قلبها بين ضلوعها، وودت أن تمسح عبراته بكفيها، لكن صورته اهتزت وأخذت ترتعش حتى تلاشت تماماً من أمامها، أحست بأن ما رأته ما هو إلا رسالة من مراد يستحلفها فيها بألا تتركه.

جلست على طرف السرير وهاتفت والدته، الرنين يدوي برتابته المثيرة للأعصاب دون أن تحصل على رد، كررت المحاولة كثيراً وفي كل مرة كان الرنين المزعج هو الجواب، وضعت الهاتف بجانبها وقد تجهم وجهها، كانت المرة الاولي التي تتصل فيها بوالدة مراد ولا تجد رداً، انتابها شعور غريب بالانقباض، فقامت من سريرها وشرعت في ارتداء ملابسها، دقائق معدودة وكانت تقف أمام باب المستشفى، الشوارع الخالية في تلك الساعة المبكرة ساعدتها كثيراً، طالعها أحد الحراس بوجهه الصارم، تأملها طويلاً قبل أن يسأل عن سبب قدومها، حينئذ ظهر الارتباك على ملامحها، وتلعثم لسانها وهي تجاوبه بأنها قادمة لزيارة مراد، ساعتها... خيل لها أن الحارس قد تسمر بمكانه، وكأنه يسمع الاسم للوهلة الاولى، عقد حاجبيه وأخذ يتفرس في ملامحها، ثم امسك بجهازه اللاسلكي وقربه من فمه، وهمس فيه بعبارات لم تتبينها بلسم، لكن الرد

جاءه سريعاً بالسماح لها بالدخول، هزت رأسها للحارس شاكرة ودلفت سريعاً للمبنى.

وفي الداخل شعرت بأن هناك أمراً جللاً قد وقع بالمستشفى، تواجد أمني كثيف، رجال لهم هيبة كبيرة وقفوا بالبهو الداخلى، وعلى أكتافهم لمعت النسور والسيوف الذهبية، حركة الطاقم الطبي لاتهدأ، حاولت بلسم أن توقف احدهم لكن باءت محاولاتها بالفشل، فهزت كتفيها وتوجهت لغرفة مراد، وعنما وصلت لبداية الممر لاحظت وجود حركة اكثر جنوناً من التي شاهدتها بالخارج، فبدأ القلق يتملك منها وعادت تفاصيل الحلم تمر من امام عينيها.

حاولت أن تبتلع ريقها، لكنها وجدته جافاً كصحراء جرداء، سارت بخطوات مرتبكة نحو الغرفة، وفجأة ارتطمت إحدى الممرضات بكتفها، وبالرغم من ضعف الخبطة لكن كادت تسقطها ارضاً، فلاحقتها الممرضة وأمسكت بها، وبعد أن أطمئنت عليها همت بالانصراف، لكن الأخيرة استوقفتها وسألتها عن سر ما يحدث، فأجابتها الممرضة بأنها وصلت للتو ولكنها سمعت من بعض زملائها بأن الظابط الذي كان يرقد في تلك الغرفة– وأشارت لغرفة مراد ـ قد توفى اثر أزمة قلبية، وهنا سمع الجميع صوت ارتطام عنيف، فتركوا ما يشغلهم والتفتوا ناحية الصوت لمعرفة ماهيته، فوجدوا جسداً نسائياً يفترش على الارض، جسد كان منذ لحظات ينعم بالحياة، جسد اسم صاحبته... بلسم

نظر لشمس الصباح بعين شاردة، ثم تأمل الأرض الزراعية الشاسعة المحيطة بذلك المخزن، الذي تحول إلى وكر سري لأفراد جماعته، ملأ صدره بالهواء النقي، وارتشف دفعة من كوب الشاي الموضوع على حافة السور الحجري، أخرج هاتفه ونظر لشاشته ثم دسه في جيب معطفه.

شعور بالقلق انتابه بشأن عملية المستشفى، خوف مبهم لازمه منذ تلقى أمر تنفيذها، جعله لا ينعم بالنوم، فقرر الصعود لسطح المكان قبيل شروق الشمس، ومن وقتها يقف شارداً في انتظار مكالمة تزيح عن كاهله عبء التوتر.

مر الوقت ثقيلاً على صدره، وما إن هم بالتحرك، حتى سمع رنين هاتفه، فأخرجه بلهفة شديدة، وقربه من أذنه فسمع الممرض يقول جملة واحدة "البقاء لله"، حينها شعر بهدوء عجيب وراحة تتسلل لأطراف جسده، تهلل وجهه بابتسامة عريضة وأسرع الخطى نحو غرفة مولانا، فوجده جالساً كعادته أمام شاشة الكمبيوتر، فدفع باب الغرفة بقوة شديدة، جعلت مولانا ينتفض من على مقعده فزعاً، تسمر بمكانه للحظات مشدوهاً مما حدث ثم صرخ في وجهه:

ـ إيه يا سالم؟! انت اتجننت في عقلك!!

ـ أنا أسف يا مولانا... بس فرحتي بالخبر خلتني مفكرش.

جلس مولانا على مقعده مرة اخرى، ولملم الاوراق التي تبعثرت ثم نظر لسالم وسأله:

ـ خبر إيه؟

ـ النعي اللي كنا مستنينه... هينزل النهارده أو بكرة بالكتير.

ـ أكيد؟

ـ الراجل بتاعنا اللي نفذ العملية، لسة قافل معايا حالاً.

دوت ضحكة مولانا في المكان وأخذ يصفق بيده بقوة، بينما ارتسمت على وجه سالم علامات الزهو، قبل أن يتوقف عن الضحك وينظر مباشرة لعين سالم قائلاً:

ـ العملية دي هترفع أسهمنا اوي عند الناس اللي برة وهتخليهم يثقوا فينا أكتر ولما هيثقوا فينا اكتر هتوصلنا فلوس أكتر... وهو المطلوب إثباته.

تراجع مولانا للخلف وأخذ يدور بمقعده يميناً ويساراً، قبل أن يتوقف وينظر لسالم ويقول له بلهجة أمرة:

ـ قبل ما أبلغ الناس الخبر... عايزك تتصل بالراجل بتعنا وتقابله بنفسك عشان تعرف كل التفاصيل وإيه اللي تم في المستشفى من ساعة التنفيذ لحد دلوقتي.. تمام؟

ـ تحت أمرك يا مولانا.

الصدمة

ألم رهيب ضرب رأسها، فجعلها تتأوه بقوة، حاولت أن تتحسس جبينها لكنها فشلت في رفع ذراعها، تسللت لأذنها همهمات قريبة من مرقدها، فجاهدت لفتح عينيها، وحينما قابلتها أضواء المكان سارعت بغلقها، لحظات وشعرت بوخزة تخترق ذراعها الأيمن، فكادت تصرخ متألمة لكنها اكتفت بتحريك رأسها يميناً ويساراً، شعرت بعدها بنشاط عجيب بدأ يسري في جسدها، فحاولت أن تفتح عينيها مرة اخرى، وحينما نجحت طالعتها غرفة بيضاء أنيقة، تخترق أشعة الشمس ستائرها الشفافة، يتوسطها سرير صغير ترقد عليه، وبجوارها وقفت ممرضة سمراء اللون كشفت عن ابتسامتها العريضة عن صف أسنان بيضاء، وما إن رأتها تفتح عينيها حتى قالت لها:

ـ حمد لله على سلامتك... كدا برضه تخضينا عليكي.

ـ أنا فين؟ وإيه اللي حصل؟

ـ انتي في مستشفى الشرطة و...

اتسعت عيناها بمجرد أن سمعت اسم المستشفى، ثم صرخت باسم مراد وهمت بالنهوض لولا أن هاجمها دوار شديد فاستلقت مرة أخرى على السرير، وأمسكت برأسها وهي تتأوه، فربتت الممرضة على كتفها بهدوء وقالت:

ـ استهدي بالله يا بنتي... مينفعش تقومي وأنتي لسه دايخة بالشكل دا.

انهمرت دموعها بشدة وحاولت أن تكتم نحيبها، بوضع أناملها على شفتيها، فرقت الممرضة لحالها واخذت تواسيها ببعض الكلمات، ولكنها شعرت بعدم جدوى كلماتها، سألت بلسم أن كانت تريد أن تبلغ أحداً من أهلها بما حدث، فصمتت لثوان وبدت وكأنها تفكر في أمر ما، لكن ما لبثت وأن شعرت بالدوار يهاجمها من جديد، فأرحات رأسها للخلف وأغمضت عينيها ودخلت في نوبة بكاء جديدة، حتى أنها لم تشعر بتلك السيدة التي فتحت الباب بهدوء، وتحركت لسريرها ثم أشارت للممرضة أن تصمت وتخرج من الغرفة، فأومأت موافقة و تحركت دون ان تصدر أي صوت.

لتقوم السيدة بالاقتراب أكثر من سرير بلسم، وتمسح على رأسها في حنان، هامسة في أذنها:

ـ عاملة إيه يا حبيبتي؟

توقفت بلسم عن البكاء وفتحت عينيها، لتفاجأ بوالدة مراد تقف بجوارها، وعلى وجهها ابتسامة هادئة، جعلتها تعقد حاجبيها وتسألها متعجبة:

ـ طنط نوال!! أنا..أنا

لم تستطع أن تكمل عبارتها وعادت لوصلة البكاء، فربتت نوال على كتفها وقالت:

ـ أهدي يا نور عيني... محصلش حاجة من اللي سمعتيها... مراد بخير وزي الفل.

حدقتها بنظرات مذهولة، وإنفغر فاها عن أخره، وحاولت أن تنطق بكلمة ما لكنها فشلت، فجلست نوال بجوارها ووضعت يدها على ركبتها، قبل أن تقول:

ـ أنا عارفة والله اللي أنتي فيه... ولولا أن زمايل مراد فهموني الموضوع من الاول كان زماني عملت زيك ويمكن كنت روحت فيها كمان.

ـ أنا مش فاهمة حاجة... الممرضة...

ـ مش بقولك يا حبيبتي إن الكلام اللي سمعتيه كله غلط... انا هفهمك... إمبارح بالليل دخل واحد من طقم التمريض على مراد بحجة أنه عايز يديله الدواء... المهم، قبلها بشوية كان في عسكري من الحراسة تعب من الوردية ودخل الغرفة الملحقة بأوضة مراد عشان يستريح، و لما شاف الممرض بيطلع حقنة من جيبه وكان هيغرسها في المحلول اللي متوصل بمراد سأله أنت بتعمل إيه... فجأة لقى الممرض خاف والارتباك ظهر عليه وكان عايز يهرب من المكان، لكن العسكري الله يباركله قدر يمسكه.

ـ طيب مادام ربنا ستر ومراد كويس... ليه بيقولوا عليه كدا؟

ـ دواعي أمنية... دي الكلمة اللي بسمعها من إمبارح، ومش عايزين يقولوا أكتر من كدا... عامة أنا مش فارق معايا حاجة، المهم صحة مراد وسلامته.

وضعت بلسم رأسها بين راحتيها وهي تتمتم:

ـ الحمد لله... الحمد لله.

ـ كان نفسي يشوف لهفتك عليه، كان هيفرح أوي.

تخضب وجه بلسم بحمرة الخجل وارتسمت على شفتيها ابتسامة خجولة، قبل أن تتحرك وتنزل قدميها على الارض، فأمسكت نوال بذراعها وهي تسألها:

ـ رايحة فين؟ انتي مش شايفة نفسك عاملة ازاي؟ انتي ممكن تقعي لو اتحركتي.

ـ متخافيش يا طنط، أنا الحمد لله بقيت أحسن، ولازم أمشي بقى عشان أختي متقلقش عليا.

تحركت بلسم نحو الباب فأسرعت نوال وهمت بمسك ذراعها لكنها أشارت بأن كل شيء على مايرام، وحينما وصلت للباب وفتحته، سمعت نوال تقول:

ـ هتصل بيكي كمان شوية عشان أطمن أنك وصلتي بالسلامة.

أومأت برأسها مبتسمة قبل أن تخرج وتغلق الباب خلفها.

وقفت أمام المستشفى حائرة، ما بين العودة لمنزلها وبين الذهاب لعملها، فما مرت به على مدى الساعات القليلة الماضية، لم يكن بالأمر الهين، بل ولم يجل بخاطرها ولو لثوان، أحست بالصداع يهاجمها مرة أخرى، عندما تذكرت ما حدث، فقررت أن تعود لمنزلها كي تستريح، ولكن قبل أن تشير لسيارة أجرة توصلها للبيت، توقفت يدها في الهواء وتعلق بصرها بالناحية الأخرى من الطريق. لثوان شعرت بالأرض تنسحب من تحت قدميها وبأن دواراً عنيفاً

هاجم رأسها، اتسعت عيناها وهي تحدق في ذلك الوجه المتجهم الذي ينظر إليها في صمت، كان عمرو يقف كتمثال من شمع يضع كفيه في جيب سترته.

تجمدت ملامحه وخلت من أي تعبير وكأن جسده قد فارقه الحياة، للوهلة الأولى ظنت بلسم أن ما تراه ما هو إلا تخاريف من فرط الإرهاق والضغط العصبي، لكنها تراجعت للوراء وهي ترى عمرو يتقدم نحوها ويقطع الطريق دون أن يلتفت للسيارات المارقة بسرعة، صرخت فيه وهي تلوح بيدها بقوة كي تلفت انتباهه لكنه مضى غير مبالياً، شهقت بقوة ووضعت كفها على فمها كي تكتم صرخة دوت بأعماقها، حينما شاهدت إحدى السيارات وهي تنهب الطريق وتتجه كالسهم نحو عمرو... وفجأة اختفى.

وقفت بلسم على الرصيف المقابل بوجه أبيض شفاف وكأن الدماء قد هربت منه، فتحولت لشبح يكاد يسقط من فرط هزله، أرخت ذراعها ووقفت تنظر للناحية الأخرى بذهول، ألجمت الدهشة لسانها وعجزت حتى عن التحرك، شعرت بأعين الناس تراقبها في صمت وتعجب، بل وشعرت بأن منهم من يود أن يسألها أن كان هناك ما يسوؤها لكن ملامحها الممتقعة دفعتهم للعدول عن قرارهم، ازدردت ريقها بصعوبة وحاولت أن تمضي في طريقها، وما إن التفت جوارها حتى اصطدمت بعيني عمرو المتجهمة وقد قارب أن يلصق وجه بوجهها وهو يقول:

ـ مستنيكي في المكتبة.

ارتدت للوراء بقوة حتى كادت أن تسقط على الأرض لولا أن لحقتها يد أحدهم وأمسكت بها قبل أن تقع، فنظرت بجوارها متعجبة لتجد رجلاً كبيراً يسندها وعلى وجهه علامات القلق، فنظرت له والفزع يكسو ملامحها قبل أن تنظر للأمام حيثما كان يقف عمرو لكنها لم تجد شيئاً، لثوان بقت على حالها مستندة على يد الرجل حتى سمعته يسألها:

ـ مالك يا بنتي؟ في حاجة تعباكي؟ أنتي كويسة؟

نقلت بصرها بين الرجل وبين مكان عمرو أكثر من مرة قبل أن تنتبه لوضعها بين يديه فتملكها الخجل والارتباك واعتدلت بسرعة وهي تسوي ملابسها وقد تخضبت وجنتاها بحمرة الخجل؛ عاود الرجل سؤاله بقوة أكثر، فأطرقت رأسها أرضاً وهي تطمئنه بكلمات متلعثمة قبل أن تبتعد عنه بخطوات مسرعة، وقد اتخذت قراراً بالتوجه نحو هدف واحد.

توقفت سيارة الأجرة ببلسم أمام المكتبة، فنقدت السائق وأسرعت بالدخول، للوهلة الأولي شعرت بأن الجنون قد أصابها، أشتعل رأسها بمئات الأفكار وهي عاجزة عن إخماد لهيبه، اكتفت بإيماءة من رأسها لعم عباس الذي قابلها كالعادة بابتسامة هادئة، فبادلته أياها لكن لم تفلح ابتسامتها التقليدية في أن تخفي توترها، لوحت له بيدها وأستأذنته في الصعود للطابق الثاني من المكتبة، أشار إليها مرحباً دون أن يسألها عما يلم بها كونه أمراً لا يعنيه، شاهدها تنهب درجات

السلم فمط شفتيه متعجباً قبل أن يعاود عمله وينشغل به، وبالأعلى دلفت بلسم للصالة وعلى وجهها عشرات الاسئلة، فإذا بها تجد عمرو وقد استغرق في قراءة أحد الكتب لدرجة أنه لم يشعر بوجودها، تسمرت بمكانها تتأمله في صمت يغلفه الخوف والتردد، أنفاسها المتلاحقة ترددت بالمكان فرفع عينيه عن صفحات الكتاب ليصطدم بعينيها المتخوفة، ألجمته المفاجأة فعجز عن الكلام، انتظر أن تتحدث لكنها اكتفت بذات النظرات الغريبة، فأعتدل في جلسته وأطلق صوبها نظرة حانية محملة بابتسامة هادئة خففت من حدة توترها، فلانت ملامحها مما شجعه أن يحدثها قائلاً:

ـ أحلى صباح دا ولا إيه.

بقت في مكانها ترمقه بنظرات حائرة ولسانها يعجز عن البوح بما جرى، لكن في النهاية حسمت أمرها وسألته:

ـ ممكن أفهم إيه اللي أنت عملته دا؟

عقد حاجبيه وأجاب سؤالها بسؤال:

ـ هو إيه ده اللي أنا عملته؟

صمتت للحظات بعدما شعرت بالصدق يغلف صوته وأحست بتسرعها فيما قالته، أما هو فهب من مكانه واقترب منها فإذا بها تتراجع رغماً عنها بضع خطوات للوراء، مما جعله يتوقف مكانه ويسألها متعجباً:

ـ مالك يا بلسم؟ في إيه؟ انتي خايفة مني ولا إيه؟

ـ مش قاصدي... بس...

ـ بس إيه؟

ـ حصلت حاجة غريبة ومش لاقية لها تفسير.

ـ متتكلمي على طول يا بلسم.. قلقتبني.

تنهدت بصوت عال قبل أن تطلق العنان للسانها كي يروي ما حدث، كانت كلماتها كجواد وليد يقف لكن سرعان ما يخر واقعاً، بالكاد استطاع أن يفهم حديثها المتقطع وحروفها المبعثرة، اتسعت عيناه من فرط المفاجأة ومن غرابة ما حكته، أمسك هو الأخر لسانه حتى لا يقف أمام سيل عبارتها وانتظر حتى انتهت ثم أشار إليها بالجلوس وجلس بدوره على المقعد المجاور وهو ينظر مباشرة في عينيها، قبل أن يحدثها بصوت عميق بعث في نفسها الطمأنينة:

ـ أنا طبعاً معنديش تفسير للحكاية الغريبة دي لكن كل اللي أقدر اقولهولك أن في حاجة بترب بينا وكل شوية بتظهر وتدينا علامات... صحيح هي علامات غريبة لكن بتأكد أن اللي بينا أكبر من كونه مقابلة وصدفة... صدقني يا بلسم أنا روحي مرتبطة بيك وبتمشي وراك حتى من غير متقولي... وانتي كمان بتحسي بيها ومصدقاها.

حدجته بعين زائغة وشفاه مرتعشة أبت أن تخرج منها الكلمات، إلى أن تملكت نفسها وسألته بصوت مبحوح:

ـ أنت عايز إيه يا عمرو؟

حار في إيجاد إجابة لسؤالها فاكتفى بابتسامة هادئة وكأنه يفكر في أمر ما، وحينما همت بالحديث أسرع بسؤالها:

ـ في مطعم اسمه"**Spectra**" له فرع حلو أوي على النيل... تعرفيه؟

ـ نعم؟!

ـ منظر الغروب هناك بيبقى رهيب... إيه رأيك نتقابل بكرة على الساعة خمسة عشان نتفرج عليه مع بعض.

ـ أنا مش مصدقة وداني... أنا بقولك إيه وأنت بتقول إيه؟ مش هينفع طبعاً.

ـ لا هينفع وهتيجي، واوعي تفكري أنك متجيش.. أديكي شوفتي إيه اللي حصل لما فكرتي تبعدي عني.

ـ يعني إيه؟ مش فاهمة؟

ـ يعني مستنيكي الساعة خمسة.. اوعي تتأخري عشان ميفوتكيش منظر الغروب... خدي بالك من نفسك لحد ما أشوفك... سلام.

أنهى كلامه وهب واقفاً دون أن ينتظر ردها، ملوحاً لها بيده وهو يهبط درجات السلم، فتسمرت مكانها للحظات وأغمضت عينيها وأخذت تهز رأسها يميناً ويساراً، لعها تستيقظ من هذا الحلم العجيب، غرقت في بحر كلماته وأفعاله الجنونية، حتى أنها نست ما حدث في الصباح، وتساءلت بداخلها كيف يضع حاجزاً بين عقلها وبين المنطق فيجعلها عاجزة أمامه وتستسلم كما... كما حدث منذ لحظات.

اتفاق

صمت مطبق ضرب المكان، الإضاءة الخافتة للغرفة لم تسمح بالكشف عن وجوه الواقفين، دخان سجائرهم العالق بسقفها بدا وكأنه سحب محملة بالامطار، تعلقت أعينهم بالواجهة الزجاجية الفاصلة بين غرفتهم وبين الغرفة المجاورة، والتي خلت من الاثاث، باستثناء طاولة صغيرة ومقعدين، جلس على أحدهما ممرض المستشفى، وقد بدا القلق والرعب على ملامحه.

وفجأة فُتح باب غرفة الواقفين، وظهر على عاتبته المحقق طارق، وقبل أن يدلف للداخل تعلق بصره بوجه أحد الحاضرين، وتلاقت أعينهما في نظرة طويلة، فابتلع ريقه بصعوبة وتسمر بمكانه، حتى أشار الشخص له أن ادخل، فتقدم بضع خطوات وأغلق الباب خلفه بهدوء، ثم ألتفت له قائلاً:

ـ ازاي حضرتك يا جابر باشا.

ـ قطعت إجازتك ليه؟

ـ سمعت باللي حصل في المستشفى فقلت يمكن تحتاجوني سعادتك.

ـ لو كنا عايزينك كنا اتصلنا بيك.

أحس طارق بحرج بالغ، وبأن رئيسه يطرده بشكل غير مباشر، فظهرت على جبينه حبات العرق، فمسحها بظهر كفه وهم بالانصراف لولا أن استوقفة اللواء جابر بإشارة من يده قائلاً:

ـ استني... عبد الرحمن هيدخله دلوقتي ويستجوبه... احضر التحقيق ونبقى نتكلم في حوار الإجازة دا بعدين.

أومأ طارق برأسه موافقاً، بينما علت على وجهه ابتسامة بسيطة، بعدما أزاح قائده الخجل عن كاهله، فوقف يتابع ما سيحدث مثله مثل الباقين، لحظات ودخل على المرض شاب في منتصف العقد الثالث من عمره، قوي البنيان، طويل القامة، يلمع شعره الاسود تحت ضوء المكان، وما إن دلف للغرفة، حتى سحب الكرسي المقابل للممرض وجلس عليه.

ظل للحظات ينظر في عينيه مباشرة، لدرجة أن الممرض شعر بالنظرات تخترق لحمه وتنفذ لعظامه، فابتلع ريقه بصعوبة وهو يدور بعينيه في المكان هرباً منه، وفجأة تكلم الشاب بصوته الجهوري قائلاً:

ـ طبعاً أنت عارف إيه اللي هيحصلك لو مكملتش اللي بدأناه.

ـ عارف يا باشا.

ـ تعجبني يا متولي.. خلينا بقى في المهم... اللي اسمه سالم دا، تعرف إيه عنه؟

ـ أقسم بالله معرفوش..ولو عندي حاجة مش هخبيها... يا باشا انا عملت كل اللي أنتوا طلبتوه من ساعة ما اتقبض عليا، ولامؤاخذة عملت كدا مش عشان حاسس بغلطتي..لأ، دا عشان أنا أجبن واضعف من أني أستحمل قلم ولا بونية من أيد رجالتكم، فلو كنت أعرف حاجة عن اللي اسمه سالم دا كنت هقولها على طول.

ـ ماشي يا متولي وأنا مصدقك... خلينا بقى في الاهم... تفتكر سالم كلمك تاني ليه؟ وإيه اللي يخليه يغامر ويقابلك بنفسه؟

ـ بصراحة هي حاجة غريبة... الجماعة متعودين لما بيكلفوني بحاجة بتكون عن طريق التليفون، وعمرهم ما عملوا مقابلات شخصية إلا مرة أو مرتين من ساعة ما انضمت لهم.

ـ يعني هيكون عايزك عشان عملية تانية؟

ـ مش عارف... بس صعب أوي أنه يطلب حاجة مني بعد اللي حصل.

ـ ولا يمكن عايزين يخلصوا منك.

ـ إيه؟؟!!

ـ مالك خفت كدا ليه... عيب عليك يا متولي أنت بقيت معنا دلوقتي وحياتك تهمنا أوي.

ـ عيشت يا فندم.

ـ سيبك بقى من كل اللي فات وركز معايا... طبعاً أنت عارف إيه اللي هتقوله لما يقابلك، عايزك تكون طبيعي وأنت بتحكي عن تفاصيل العملية، وتأكد عليه تحويل الفلوس، وعايزك كمان تسلمه الفلاشة دي.

فرد عبد الرحمن كفه المضموم أمام متولي، كاشفاً عن جهاز صغير لا يتعدى السنتيمترات، فنظر متولي للجهاز ثم نظر لعبد الرحمن متسائلاً:

ـ ولا مؤاخذة حضرتك..أنا..أنا مش فاهم حاجة!!

ـ هفهمك... أنت هتقوله إن عندك ليه مفاجأة بس ثمنها غالي أوي... طبعاً هيسألك إيه هي، هتقوله إن الفلاشة دي متسجل عليها المكالمات الداخلية اللي حصلت في المستشفى طول الأسبوع اللي فات، وهتقوله كمان إن دا إجراء بيحصل من وقت للتاني كنوع من إجراءات الأمن... ولو سألك جيبت النسخة دي منين ودا طبعاً سؤال وارد، هترد وتقول إنك أتصاحبت على موظف الشبكات اللي في المستشفى وأنك عرفت الموضوع بالصدفة وأنت قاعد في مرة معاه، فعملت نسخة عشان تديها لهم وتاخد مقابلها فلوس، وتقوله كمان إنك عملت الحوار دا قبل ما يتصلوا بيك، لكن لما جاتلك العملية بتاعت الرائد مراد وعرفت إنك هتكسب كتير من وراها غيرت رأيك.

ـ غيرت رأيي أزاي؟

ـ هتقوله إنك هتديله الفلاشة مقابل إن عملية مراد تكون العملية الأخيرة ليك، وميطلبوش منك حاجة تاني، فاهم يا متولي؟

ـ حاضر يا باشا... أعتبره حصل.

ـ أيوة كدا.

عند تلك النقطة ارتسمت علامات الارتياح على اللواء جابر، الذي وقف على الجانب الاخر من الواجهة الزجاجية، يتابع بعين صارمة سير التحقيق، دام صمته للحظات طويلة، لم يصدر فيها سوى دخان سيجارته، التي سحب منها نفسًا أخيرًا ثم ألقى بها على الأرض وسحقها بقدمه، حينئذ هم طارق بالتحدث

معه لكنه توجه لباب الغرفة دون أن يلقى له بالاً، فتنحى طارق جانباً واكتفى بمتابعته وهو ينصرف، ووجهه المحتقن تكاد تنفجر منه الدماء.

دنت شمس المغيب من النيل، ولم يعد يفصلها عنه سوى أمتار قليلة، توهجت مياهه وتلونت بدرجات يصعب وصفها، تارة تشعرك وكأنها ذات لون أحمر كلون السماء، وتارة اخرى تخطف الابصار بلونها الفضي، المراكب الخشبية فردت أشرعتها بحثاً عن نسمات هواء المغيب، شقت مقدمتها المياه، فرسمت على جانبيها خطوطًا متعرجة، أخذت تتسع وتتسع حتى اصطدمت بصخور الشاطئ، علا صوتها وامتزج بصوت أم كلثوم، الذي تسلل من ذلك المطعم القابع على ضفة النيل.

وبعين شاردة، جلس عمرو على إحدى الطاولات، يلتقط بعينيه صورًا للمكان، نسمات المغيب داعبت شعره، فأغمض عينيه وملأ بها صدره قدر استطاعته، لحظات وتراقصت الابتسامة على شفتيه حينما تسلل عطر رقيق لأنفه، فأسرع بفتح عينيه ليجد بلسم واقفة على بعد خطوات قليلة، ترمقه بنظرات عجيبة، يمتزج فيها القلق بالشوق. اختلج قلبه بين ضلوعه وهب من مقعده، وتقدم ناحيتها كالمسحور، لثوان شعرا بأن الزمن قد توقف بهما، فحاولت أن تعود للحياة بنحنحة خافتة جعلته يبتسم مرتبكاً ويفسح لها

الطريق، تقدمت بخطوات هادئة نحو الطاولة وسحبت المقعد كي تجلس عليه، فأسرع بالجلوس على المقعد المقابل لها.

تسمرت عيناه على وجهها، فنسي ما حوله، هربت منه ونظرت لشمس المغيب، فلمعت عيناها العسليتان وسال ريحقهما حتى وصل شفتيه، وجد نفسه كالمجذوب يتمتم بكلمات غير مفهومة، فحاول أن يستعيد هدوءه قائلاً:

ـ تصدقي أنا طول عمري بحب منظر الغروب، بس أول مرة أشوفه بالجمال دا.

حاولت أن تهرب من تلميحاته، فتظاهرت بتصفح قائمة الطعام، وأخذت تقلب صفحاتها دون هدف، قبل أن تقول بضحكة مرتبكة:

ـ المنيو بتاع المكان دا كبير أوي.

ـ دا عشان أول مرة تيجي... لكن بعد كدا هتتعودي وهيكون لك طلب مفضل.

ـ للأسف أنا مش بخرج كتير، تقدر تقول عليا بيتوتية

ـ دي حاجة حلوة طبعاً، لكن معايا الوضع دا هيتغير.

ـ معاك!! معاك إزاي؟

ـ إيه دا؟ هو أنا مقولتلكيش؟

ـ (باستغرب ممزوج بالدهشة): قولتلي على إيه؟

ـ إننا هنرتبط.

شعرت بلسم وكان أحدهم قد لطمها على وجهها، فتسمرت مكانها دون أن تنبس بكلمة واحدة، قبل أن تهز رأسها وكأنها تستفيق من حلم عجيب، ثم مدت يدها نحو حقيبتها وهمت بالانصراف، حينئذ استوقفها بإشارة من يده وهو يقول لها متوسلاً:

ـ عشان خاطري متقوميش، حرام عليكي تسبيني لوحدي، اوعي تفتكري أني هسمحلك أنك تبعدي عني، مش هيحصل، أنا دورت عليكي سنين وما صدقت أني لاقيتك.

ـ يا عمرو بقولهالك للمرة المليون، كلامك المجنون دا بيوترني ويخليني مش عارفة أعمل إيه!

ـ الجنان إننا منعترفش إن في حاجة بتربطنا ببعض..والحاجة دي أقوى من أي حاجة وأي بني آدم... القدر جابك لحد عندي يا بلسم، جابك للمكتبة دي بالذات وخلاكي تأخدي الكتاب دا عشان تشوفي ورقة الخواطر وتتعلقي بيها وبصاحبها.

ـ ومين قالك إني اتعلقت بيها أو بيك؟

(ساخراً): مش بقولك إنك مش بتعرفي تكذبي

ـ يا عمرو انا قولتلك قبل كدا إن في حد في حياتي.

ـ تاني يا بلسم... هتكرري الكلام دا تاني

ـ تاني وتالت ورابع... والله يا عمرو مش بكدب عليك.

ـ وأنا عارف أنك مش بتكدبي.

ـ طيب لما أنت عارف بتعمل معايا كدا ليه؟

ـ عشان أنتي مش بتحبيه يا بلسم، ووجودك معاه مجرد رد جميل لشخص بيحبك في حين أن أنتي مش بتحسي معاه بأي حاجة.

كالعادة أدهشها بصحة استنتاجه، فحدجته بنظرات يملؤها الاستسلام، ثم أطرقت رأسها أرضاً، فأردف قائلاً:

ـ ممكن أعرف حكايته بالظبط؟

أومأت برأسها موافقها، وأطلقت العنان للسانها كي يقص تفاصيل الحكاية، مر الوقت دون أن يشعرا، هي تقص وهو يكتفي بابتسامة مشجعة، وحينما انتهت شعرت براحة كبيرة تتسلل لقلبها، وكأن حملاً ثقيلاً سقط من على كاهلها. للحظة توهمت أن ما تسرده سيغير من موقفه، لكن ابتسامته ونظراته العاشقة ذهبت بظنونها لأبعد من شمس المغيب، فتنهدت بحرارة وقالت:

ـ أوعدني يا عمرو إنك هتحترم رغبتي وتبعد.

طالعها بوجه خال من أي تعبير، ثم مد وجهه للأمام وهمس:

ـ أوعدك إني هخليكي تحبيني.

حينئذ أسدلت أهدابها و أطرقت برأسها أرضاً، كأنها مصارع أرخى ذراعيه وأعلن استسلامه.

دلف للشقة ببطء شديد، وحرص على ألا يصدر صوتاً، تلفت حوله بحثاً عن أمه، وحينما تأكد من عدم وجودها في الصالة، تنفس الصعداء وتحرك على اطراف أصابعه متجهاً لغرفته

ـ حمد لله على السلامة..حضرتك شرفت أخيراً.

تسمر عمرو في مكانه، وأخذ يحك مؤخرة رأسه، قبل أن يلتفت لها وعلى وجهه ابتسامة عريضة، حاول أن يداري بها ارتباكه، ثم أسرع وفتح ذراعيه بشكل مسرحي قائلاً:

ـ حبيبة قلبي وست الناس كلها، معقولة سهرانة لحد دلوقتي!

ـ بقولك إيه يا واد أنت، مش هتشتغلني بالكلمتين العبط دول... أنطق، كنت فين من الصبح؟

ـ يعني هكون فين؟ في الشغل طبعاً، وبعد كدا رحت أتمشى شوية في وسط البلد.

حدجته بنظرات متشككة قبل أن تهز رأسها وتتحرك نحو باب الشرفة ملوحة بيدها:

ـ طيب خلاص... عامة على راحتك... لما تحب تشوفني وتقعد معايا أنت عارف هتلاقيني فين.

أسرع ووقف أمامها، ليقطع الطريق عليها، فأشاحت بوجهها بعيداً وعقدت ساعديها أمام صدرها وهي تتأفف بصوت عالٍ، فأقترب منها وألصق كفيه ببعضهما وهو يرجوها بلهجة حانية:

ـ أنا أسف يا نور عيني... والله مقصدش أني أغيب عنك الفترة دي... هي جت كده، بس أوعدك أنها مش هتتكرر تاني، خلاص؟

ـ خلاص، هعديها المرة دي، بس بشرط أنك تسهر معايا شوية.

ـ يا حبيبي أنا تحت أمرك من غير ولا شرط، أنت تؤمر على طول.

ابتسمت في سعادة وهمت بالانصراف، لكن عادت وتسمرت في مكانها، وكأنها تذكرت شيئاً ما، فالتفتت له متسائلة:

ـ عارف إيه أحلى حاجة حصلتلي الفترة اللي فاتت؟

هز كتفيه متسائلاً:

ـ إيه؟

ـ اني رجعت أسمع كلامك الحلو اللي كنت اتحرمت منه الفترة اللي فاتت.

ـ وهفضل أسمعهولك لحد ما تزهقي منه ومني.

ـ يارب.

تصنع الدهشة وهو يسألها:

ـ يارب إيه؟ يارب تزهقي!!!

رنت ضحكتها بالمكان وهي تخبط كفاً بكف ثم أشارت إلى ناحية الشرفة وهي تقول:

ـ تعالى ورايا عشان عايزة أحكي معاك زي زمان... ولا ناوي تهرب مني؟

ـ أنا أقدر برضه... معاكي للصبح.

مضت نحو الشرفة وهو يتبعها بنصف عقل بعدما توقف النصف الأخر عن الدورن للأمام واقتصر على استرجاع ما مضى من يومه مع بلسم، مشهد مشهد.

أسلمت جسدها لشمس الشروق تسقيه من ضوئها، وأمامها فنجان القهوة تتصاعد أبخرته وتتمايل مع نسمات الهواء، تسترجع كلمات عمرو فتدغدغ مشاعرها، وتنسج حولها عالمًا ينسيها الجميع، ارتشفت من فنجانها رشفة ثم وضعته على الطاولة وهمت بالنهوض كي تغير ملابسها وتنصرف لعملها، لولا أن أهتز الهاتف في يدها وارتفع رنينه في المكان. ناظرته بلهفة استحالت لدهشة بعدما رأت رقم والدة مراد، عقدت حاجبيها وتعجبت من توقيت المكالمة لكنها سارعت بالرد، ليأتيها صوت نوال من الجانب الاخر مفعمًا بفرحة غارمة، لم يستغرق الامر سوى ثانيتين نطقت فيهما نوال عبارة واحدة، " مراد فاق يا بلسم " لكنها كانت كافية أن تحرك الارض من تحت قدميها، وتلقي بها لعالم تغمره الدهشة والصدمة، لدرجة أنها أنزلت الهاتف من على أذنها دون أن ترد على نوال، حملقت في فراغ السماء وتبخرت صورة عمرو من أمامها رويداً رويداً.

تمدد مراد على سريره الجديد، وبجواره جلست أمه وقد مالت بجذعها عليه وامسكت يده بلهفة غامرة، وبين الحين والآخر تقبلها بسعادة، وتبللها بالدموع التي أغرقت عينيها، بينما على بعد خطوات قليلة جلس أبوه على كنبة صغيرة وقد أمسك بمصحف كبير، وأخذ يتلو آياته في خشوع تام. ثوان وارتفعت على باب الغرفة طرقات خافتة، فأغلق الأب المصحف ورفع رأسه للأعلى منادياً على الطارق أن أدخل، فُتح الباب فظهرت بلسم على عتبته، وفي يدها باقة تنافس ورودها حمرة وجنتيها المشوبة بالارتباك، وما إن رأتها نوال حتى أسرعت بالنهوض، وفردت ذراعيها لتعتصرها بين أحضانها، قبل أن تطلق سراحها وتقدمها لوالد مراد، الذي رحب بها ودفع بأحد المقاعد كي تجلس بجوار ابنه الذي ارتسم الضعف على وجهه بوضوح، ورغم هذا فاضت عيناه بشوق واضح، وهو يسألها:

ـ بلسم... عاملة إيه؟

ـ الحمد لله.. متتصورش فرحت أد إيه لما طنط كلمتني الصبح وقالتلي إنك فوقت وبقيت أحسن.

ساد الصمت المكان بعد كلمتها الأخيرة، فأطلقت نوال ضحكة مفتعلة وهي توجه الكلام لزوجها قائلة:

ـ احنا مش هنجيب حاجة للقمر يشربها ولا إيه؟

ـ يا سلام الكافتريا كلها تحت أمرها... تشربي إيه يا بلسم؟

ـ لا يا أونكل متتعبش نفسك أنا شوية وهمشي.

وهنا أمسكت نوال بذراع زوجها وسحبته للخارج وهي تقول:

ـ طيب هنروح نجيبلك حاجة تشربيها بسرعة.

حاولت أن توقفهما لكنهما أسرعا بالخروج، فشعرت بارتباك شديد وأخذت تنقل بصرها في أنحاء الغرفة بعيداً عن مراد، الذي طفق ينظر لوجهها الملائكي باشتياق، وود لو ينهض من رقدته ويحوطها بذراعيه، لكنه اكتفى بأن يطبع قبلة على كل جزء منها بعينيه العميقتين، وفجأة ارتفع رنين هاتفها في المكان، أخرجته من حقيبتها لتجد أن عمرو هو المتصل، فسارعت بإلغاء المكالمة وأعادته لمكانه في الحقيبة، وهنا أتاها صوت مراد الخافت وهو يقول:

ـ تعرفي إنك وحشتيني اوي.

أحست بسخونة شديدة وبأن الدماء تكاد تنفجر من وجنتيها، وعجزت تماماً عن الرد فاكتفت بهز رأسها، وأخذت تعبث باليد الجلدية لحقيبتها، لتفاجأ به يحرك يده بصعوبة ويمدها نحوها متسائلاً:

ـ ممكن ايدِك؟

ـ إيه؟!

ـ معلش..أنا عارف أنه طلب غريب..بس بجد هيفرق معايا أوي أني ألمسك.

كادت ترفض طلبه، لكن نظرة واحدة لعينيه المتوسلة، كانت كافية أن ترضخ له. تهدجت أنفاسها وهي تمد يدها، شعرت بأن الهواء قد انسحب من الغرفة،

همت بالتراجع لولا شعرت بأطراف أصابعه تلمسها، فسرت في أوصالها قشعريرة انتفض لها جسدها جعلت مراد يبتسم ويسألها باستغراب:

ـ معقولة!! كل دا عشان لمست ايديك؟

أجابته بصوت مبحوح:

ـ أصله طلب غريب، خاصة وأنت في الظروف دي، وبعدين احنا متفقين أننا أصحاب وبس، يعني اللي أنت..

قاطعها بصوت بدأ لها وكأنه عاد لكامل قوته:

ـ احنا اتفقنا تدخليني حياتك، مش نبقى أصحاب.

حاولت أن تسحب يدها من كفه لكنه تمسك بها وكأنه غريق يتشبث بطوق نجاة، عجز عقلها عن التفكير، فتسمرت على مقعدها دون أن تنبس بكلمة واحدة، لم ينقذها سوى رنين هاتفها الذي دوى في المكان مرة أخرى، فتعللت به كي تسحب يدها وتلتقطه من الحقيبة، نظرت لشاشته فوجدته عمرو ثانية. ترددت لثوان، لكنها في النهاية حسمت أمرها ورفضت الرد، تراجعت للوراء ونهضت من مقعدها قائلة:

ـ أنا أسفة، بس لازم أمشي، انت شايف بيطلبوني في الشغل ولازم أروح.. هطمئن عليك تاني.. حمد الله على السلامة.

حاولت أن تتجه للباب بأقصى سرعة حتى لا تسمح له بالرد، لكنه أوقفها قبل أن تخرج وناداها، فالتفت له لتجده يرجوها بعبارة زلزلت كيانها:

ـ وحياة أغلى حاجة عندك... أوعي تسيبيني.

تمايلت السيارة فوق الطريق غير الممهد، وتقافزت بقوة كحيوان الكنغر، وبداخلها جلس سالم وقد غرق في تفكير عميق، لا يدري لم انتابه شعور بالقلق منذ التقى بالممرض متولي، طريقته في الكلام لم تكن مريحة، بالرغم من تظاهره بالتماسك. أعاد ذهنه نص الحوار بينهما، فلم يجد ما يثير الريبة؛ تحسس جيب القميص، فلمست أصابعه "الفلاشة" التي أخذها منه، صيد ثمين لو أحسنوا استغلاله، تفريغ المكالمات قد يأتي بمعلومات لم تخطر لهم على بال، راجع الصفقة التي تمت بينه وبين متولي فوجدها رابحة، الفلاشة مقابل الاعتزال، هنأ نفسه وذكاءه الذي جعله يعقد هذا الاتفاق دون الرجوع لمولانا، سرح بأفكاره وتخيل كلمات الثناء التي ستلقى على مسامعه حينما يضع "الفلاشة" بين يديه.

حزمت الشمس حقائبها واستعدت للرحيل، حينما توقفت سيارته أمام المخزن، دلف سريعاً للداخل تسبقه خيالاته لغرفة سيده، نهب درجات السلم الخشبي، ووقف أمام الغرفة بوجه مبتسم ينتظر الاذن بالدخول، وحينما سُمح له تقدم منتشياً بنفسه، بشكل أثار تعجب وفضول مولانا، ودفعه لسؤاله عما جرى في اللقاء.

قص سالم ما حدث بشكل تفصيلي، وحينما جاء ذكر الصفقة التي أتمها، والفلاشة التي جلبها معه، تغيرت ملامح مولانا وشعر بالريبة تجاه قصته، فظل

صامتاً ينظر للفلاشة الملقاة على مكتبه بقلق شديد. وفجأة تحول المكان لقطعة من جهنم، طلقات رصاص انهمرت كالمطر على رءوسهم، صرخات الرجال تدوي في المكان، دماؤهم تناثرت في كل مكان، حاولوا أن يحتموا خلف جدران المخزن لكنها سقطت فوق أجسادهم، تساقطوا واحداً تلو الآخر كالذباب.

استل مولانا رشاشاً من أسفل مكتبه، وصوب فوهته لسالم الذي تراجع فزعاً للخلف، وأخذ يلوح بيده طالباً الرحمة من سيده، لكن الاخير أمطره بدفعة من الرصاص وهو يصرخ غاضباً:

ـ ضيعتنا يا ابن الكلب.

ثم أمسك بالفلاشة وألقى بها على جثة سالم الذي راحت الدنيا تظلم من حوله، وعلامات الدهشة الممزوجة بالفزع تكسو ملامحه، دون أن يفهم شيئاً مما حدث حوله.

حيرة الاختيار

تيبست قدماها وفقرات عنقها من طول جلستها على المكتب، فأخذت تتمطى بقوة لعلها تحرك الدماء لأطرافها، نظرت للساعة الملقاة على سطح مكتبها، ثم رفعت حاجبيها وهي تغمغم بكلمات غير مفهومة، مدت يدها لتغلق جهاز الكمبيوتر وترتب الأوراق المبعثرة، وحينما همت بالنهوض تسمرت مكانها بعدما وجدت بلسم تقف خلفها بوجه شاحب زائغ النظرات، فوضعت حقيبتها مرة أخرى على المكتب، ثم جذبت المقعد المجاور وأشارت لها بالجلوس. ضرب الصمت المكان قبل أن تندفع بلسم وتطلق سراح ما في جعبتها، علت الحيرة وجه هدير وسألتها:

ـ وناوية تعملي إيه؟

ـ مش عارفة

ـ بلسم مفيش واحدة عاقلة تعمل اللي أنتي بتعمليه... يعني إيه واحد يفضل يجري وراكي ويحاول يوصل لقلبك وأنتي عمالة تتقلي عليه ولما يختفي تحسسينا إنه حب عمرك اللي ضاع منك، وبعدين يظهرلك واحد تاني يروح قلبك أبو أوض كتيرة دا يحجز للزبون الجديد اوضة وتقعدي تسرحي تاني وتتلخبطي تاني وتشلي اللي جابونا تاني، وبعد دا كله تيجي وتقولي أعمل إيه؟ أقسم بالله دا لو فرويد ذات نفسه لسة عايش كنتي هتعقدي أمه وتجيبيله شلل رباعي.

ـ كدا برضه يا هدير... يعني أنا جاية أستنجد بيكي تقومي تبهدليني بالشكل دا.

لفظت عبارتها ثم أشاحت بوجهها بعيداً وأغرورقت عينيها بالدموع، فأقتربت منها هدير وربتت على ركبتيها بحنان بالغ، قبل أن تقول بصوت خافت:

ـ حبيبي أنا عارفة ومقدرة إحساسك... مراد يعتبر أول راجل يدخل حياتك، ومش أي راجل، دا ما شاء الله راجل بمعنى الكلمة، ومع ذلك معرفش يدخل قلبك، هو قدر يقرب بس لكن فضل برة؛ أما عمرو فمن كلامك باين أوي أنه حاجة تانية بالنسبة لك، وباين كمان أنه نجح في اللي فشل فيه مراد، لدرجة إنك قلتي بلسانك أنه شقلب حياتك... يبقى عايزة تسألي في إيه تاني؟ ما كل حاجة واضحة زي الشمس.

ـ بس أنا مقدرش أسيب مراد وهو في الحالة دي.

ـ يتعب دلوقتي أحسن ما يتعب بعدين.

ـ انتي مجنونة يا هدير؟ الراجل كان بين الحياة والموت ولسة قايم، أروح أنا سيباه كدا بكل بساطة.

حملقت في وجهها باستغراب ومطت شفتيها باستياء وهي تهز رأسها يميناً ويساراً، ثم اطرقت رأسها أرضاً وهي تقول دون أن ترفع عينيها:

ـ لا..عندك حق، خليكي معاه، وعلقيه بيكي أكتر، وخليه يحلم بحاجة عمرها ما هتكون له.

وفجأة نهضت من على مقعدها وهمت بالانصراف، فامسكت بلسم بذراعها وسألتها بصوت عال:

ـ أنتي رايحة فين وسيباني؟

أفلتت ذراعها بهدوء، ثم ربتت على كتفها وهي تقرب وجهها منها قائلة:

ـ لما تعقلي وترجعي بلسم اللي أنا عارفها، ساعتها نبقى نقعد ونتكلم... سلام عشان أتأخرت.

دوت خطواتها المسرعة في المكان، ترافقها نبضات قلب بلسم التي كادت تنزعه من مكانه، وتجعله يسعى خلف من أساءت فهمه ولم تقدر اضطرابه.

شق ممرات المستشفى بخطواته الواثقة وقامته الفارهة، ألتصقت بدلته بجسده المفتول، فظهر وكأنه نجم سينمائي خرج للتو من أحد أفلام الأبيض والأسود، عيناه الصارمتان تختفيان وراء نظارته الشمسية، كان يسير نحو هدف ما دون أن يعترضه أحد، حتى أن طاقم التمريض تظاهر بعدم رؤيته، وما إن وقف أمام إحدى الغرف حتى شد قامته وطرق الباب بهدوء وانتظر حتى أتاه صوت من الداخل يسمح له بالدخول، فدفع الباب ليظهر من خلفه جسد مراد المستلقي على سريره، وبجاوره أمه، جلست كعادتها على المقعد المجاور له، وما إن شاهده مراد حتى ابتسم في سعادة وقال مرحباً به:

ـ عبد الرحمن باشا! عامل إيه يا حبيبي؟

أزاح عبد الرحمن نظراته الشمسية ومعها الوجه الصارم الذي التصق به منذ دخل المستشفى، ليُظهر وجهاً أخر، هادئاً ذا ابتسامة بسيطة، تقدم بعدها نحو مراد ووضع كفه الضخم على كتفه قائلاً:

ـ حمد لله على سلامتك يا وحش، متتصورش كنت وحشني ازاي.

ـ طول عمرك صاحب واجب يا عبده. دا يا ماما يبقى الرائد عبد الرحمن مختار، أخويا ودفعتي.

ـ أهلاً بيك يا حبيبي، نورت المكان... تحب تشرب إيه؟

ـ ربنا يبارك فيكي يا فندم، متتعبيش نفسك حضرتك.. أنا هدردش مع مراد شوية في اللي حصل وبعد كدا همشي على طول.

نهضت من مقعدها وتحركت نحو الباب وهي تقول:

ـ طيب يا حبيبي على راحتكم، أنا هروح أخد قهوتي في الكافيتريا وأسيبكم تدردشوا مع بعض... بعد اذنكم.

تابعها عبد الرحمن حتى تأكد من خروجها، ثم دار حول السرير وجذب المقعد كي يقترب اكثر من مراد، الذي بدا على ملامحه العديد من التساؤلات فابتسم له عبد الرحمن وربت على قدمه، قبل أن يطمئنه قائلاً:

ـ كدا يا وحش تقلقنا عليك، طيب الواد يوسف كدا كدا عيل رخم والواحد ممكن يسلط العالم ولاد الكلب دول عليه، لكن انت مفيش منك كتير في الداخلية يا صاحبي.

ـ دا بس من ذوقك يا عبده... الحمد لله، أحنا كنا فين وبقينا فين... دا ربنا اللي شملنا برحمته وخلانا نطلع بخير منها... يااااه الانفجار كان حاجة صعبة أوي يا عبده.

ـ مهو أنا جايلك عشان تحكي لي..عايز اعرف كل حاجة حصلت يا مراد... كل حاجة.

أومأ برأسه وشرع في قص ما دار ليلتها بالتفصيل، وعبد الرحمن ينصت له باهتمام شديد دون أن يقاطعه، وما إن فرغ من روايته حتى عبأ عبد الرحمن صدره بالهواء ثم زفره بقوة، وجلس صامتاً للحظات وكأنه يدير ما سمعه في رأسه قبل أن يسأله:

ـ يعني أنت مكشفتش على بطاقة اللي اسمه حسام دا؟

ـ ما أنا بقولك يا عبد الرحمن.. الموضوع مخرجش عن أنه سوء تفاهم ما بينه وبين يوسف وامين الشرطة الله يرحمه، وانا تدخلت عشان أفض الموضوع.

ـ مش يمكن الواد دا يكون له علاقة باللي حصل؟

ـ ما أظنش، لأن لولا الامين نزله من الميكروباص عشان ملتحي مكنش هيكون في مكان الكمين خالص.

ـ طيب والبطاقة بتاعته؟ خدها منكم؟

ـ مش عارف والله... مش هقدر أفيدك في حاجة زي دي... لكن أنا فاكر إن آخر مرة شفت البطاقة بتاعته كانت مع الأمين... بس صحيح أنت مهتم بالواد دا أوي كدا ليه؟

ـ متشغلش دماغك يا صاحبي... خليك في اللي أنت فيه.

وهنا نهض من على مقعده وعدل هندامه قائلاً:

ـ يلا... أسيبك أنا دلوقتي وبعدين لما تشد حيلك شوية نبقى نكتب الكلمتين دول.. أشوفك على خير يا حبيبي.

مد يده للأمام وأمسك بكف مراد المفرود على السرير، ثم ربت على كتفه مطمئناً وخرج سريعاً من الغرفة، تاركاً خلفه مراد وعلى وجهه علامات الحيرة.

ألم الحقيقة

أيام مرت وساعات تساقطت كأوراق شجر في فصل الخريف، مل حسام من حسابها فاكتفى بالصمت والذكر، جسده لا يزال يصرخ من وجع جراحه، وإن كان جرح كرامته أعمق، دموعه ما تكاد تجف حتى تعود وتجري على وجنتيه، صورة أمه لاتفارقه، يراها في أحلامه تبكي بحرقة، تقف عاجزة عن مساعدته، تصرخ طالبة الرحمة لوحيدها لكن دون مجيب.

لا يدري لم تبدل الحال للأفضل، إذ قام سجانوه بنقله لزنزانة أكبر، ذات سرير معدني بمرتبة كالشوك، ولكنها أفضل حالاً من نومة الأرض، أكل معقول مستساغ طعمه، وصلة التعذيب اليومية توقفت، دلالات منحته أملاً في أن يستنشق نسمات الحرية عن قريب.

صدى خطوات تقترب، الباب ينفتح وصريره المزعج يتردد صداه في المكان، ومن خلفه ظهر عبد الرحمن بقامته الطويلة. دلف للزنزانة بخطوات رصينة يتبعه طارق بشيء من التردد، رمقهما حسام بنظرات خاوية، نهض متثاقلاً فأسرع عبد الرحمن وأشار له أن يجلس، عقد حسام حاجبيه متعجباً، فمنذ أُلقي به في هذا المكان لم ير سوى التكبر والكراهية.

لحظات ودخل عسكري يحمل مقعدين، وضعهما في وسط الغرفة، جلس عبد الرحمن بينما ظل طارق واقفاً، تنهد الأول بصوت عال قبل أن يمد وجهه للأمام وينظر في عيني حسام مباشرة ويسأله:

ـ عامل إيه يا حسام؟

تراقصت ابتسامة ساخرة على جانب فمه، وأجابه بلهجة لا تخلو من المرارة:

ـ الحمد لله.

ـ طبعاً يا حسام أنت عارف كويس الظروف اللي بتمر بيها البلد، وعارف كويس إننا كرجال أمن طول الوقت مشدودين وكأننا بنمشي على حبل رفيع تحته نار مولعة، وللأسف لازم نتعامل مع كل حاجة حولينا من منطق الشك، يعني لازم نشك في كل حاجة سواء أدلة أو أشخاص لحد ما يظهر لنا العكس.. جايز يكون ده في نظرك وفي نظر غيرك منطق مش مقبول، لكن في شغلنا ضروري جداً.

ـ يارب تكون المقدمة الطويلة دي اخرها خبر براءتي، وتكونوا عرفتم الحقيقة.

ـ واضح إنك شخص ذكي.

ـ صفة ملهاش لازمة في بلدنا.

ـ مين اللي قال؟

ـ أنا يا باشا بقولك كدا... البلد دي ميسلكش فيها غير اتنين... المنافق والكذاب.

ـ متخليش الازمة اللي أنت فيها توصلك لاستنتاجات غلط.

ـ طيب ممكن أسالك سؤال؟

ـ اتفضل.

ـ لو أنا من غير دقن هل كنت هتحبس ولو ليوم واحد؟ هل كان الأمين هيشك فيا ويعمل معايا اللي عمله؟ هل ظابط الكمين كان هيتخانق معايا؟

صمت عبد الرحمن ومط شفتيه للأمام دون أن يرد، فأردف حسام:

ـ أجاوبك أنا... مكنش هيحصلي حاجة.. للأسف يا فندم احنا هنا بنتعامل مع المتدين بشكل غريب، بقى أي ملتحي متهم إلي أن تثبت براءته... حتى الأفلام والمسلسلات تلاقيها مطلعة اللي مربي دقنه دا وكأنه شيطان في صورة إنسان... عينين بتلمع وبتاكل جسم الستات ووش عليه غضب ربنا وديما مكشر وبيزعق.. طيب ليه؟ إيه الهدف إن الصورة دي تترسخ في ذهن الناس؟ يا باشا صوابعك مش زي بعضها، وحضرتك أكبر مثل على كدا.

ـ ازاي؟

ـ يعني هل معاملتك زي معاملة الضابط اللي كان بيحقق معايا قبل كدا.

هنا تقلصت ملامح طارق، وتوقف عن الحركة، ثم نظر ثوان لحسام وقد عقد حاجبيه في ضيق، قبل أن يلوي عنقه وينظر بعيداً، تنهد عبد الرحمن بصوت مسموع ثم نهض من على مقعده وهو يقول:

ـ عامة يا حسام أنا حبيت أشوفك وأقعد معاك شوية عشان أفهمك طبيعة اللي حصل... صدقني، كان صعب علينا أوي نصدقك في وقت مكنش في غيرك قدامنا.. أما بخصوص اللي حصل معاك، فأنا بعتذر لك عنه.

ـ شكراً لحضرتك يا فندم، وربنا ينور بصيرتكم ومتظلموش حد تاني.

تحرك عبد الرحمن ناحية باب الزنزانة وطرقه عدة مرات، فقام الحارس بفتحه، فخرج عبد الرحمن يتبعه طارق ولكن قبل أن يخرج تناهي لمسامعه صوت حسام وهو يقول:

ـ تشرفت بزيارة حضرتك يا باشا، رغم اني مسمعتش صوتك.

تسمر طارق على عتبة الباب، ثم التفت لحسام ورمقه بنظرة نارية، قابلها الاخير بابتسامة هادئة أثارت غضب طارق وحنقه، فصرخ في وجه الحارس:

ـ اقفل الزفت دا.

بادر الحارس بغلق الباب، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، بينما أسرع طارق في الخطى نحو عبد الرحمن الذي تقدمه ببضع خطوات، وما إن صار بمحاذاته حتى همس بصوت غاضب:

ـ ممكن أعرف أنت خليت اللوا جابر يدخلني معاك للواد دا ليه؟

توقف عبد الرحمن عن السير ونظر لزميله قائلاً في هدوء:

ـ يا فندم كان لازم تسمع بودانك وجهة نظر الناس اللي للأسف بتتظلم على ايدينا... أنا لو قعدت سنين أوصف لحضرتك إحساسهم دا بيكون عامل ازاي مش هعرف.

ـ ظلم إيه وزفت إيه اللي بتكلمني عنهم؟ يظهر كدا أنك نسيت فرق الرتب اللي بيننا.. مش عشان مسكت قضية كنت أنا شبه مخلصها هتفتكر نفسك أعلى مني ولا حاجة... لا... فوق يا بيه وأعرف أنا مين وأنت حدودك فين.

وما إن أنهى عبارته حتى انصرف غاضباً دون أن ينتظر ردًا من عبد الرحمن الذي وقف متعجبًا، ولسان حاله يقول " مفيش فايدة".

صدام

دلف بخطواته الهادئة لمبنى الجريدة، وكعادته تجاهل المصعد وتوجه للسلم، نهب درجاته بخطواته الواسعة، دائماً ما يلجأ لهذه الطريقة حينما يريد التفكير في شيء يشغله، فقد مرت عليه الأيام السابقة بطريقة غريبة، فاصل من المراوغات دار بينه وبين والدته، أساليب ملتوية وطرق بارعة في الخداع تفنن في ابتكارها، وللمرة الاولى في حياته يصبح الكذب منهجًا يداوم عليه، بعدما كانت المصارحة هي الصفة السائدة لعلاقته مع أمه؛ حاجز خفي نصبه أمام عينيها كي لا تشعر بوجود بلسم في حياته، لكن حالته المزاجية، وتغيبه المستمر عن البيت، كلها دلالات أكدت حدس أمه في وجود شيء ما يخفيه عنها، ورغم هذا لم تستطع أن تصل لشيء.

كان لا يزال هائماً في أفكاره، حينما وصل للطابق الذي يضم صالة التحرير، فمر بجوار اللوحة التي توضع عليها القرارات التي تخص الجريدة، ليفاجأ بورقة قديمة مر عليها وقت طويل، وتعجب من استمرار وضعها رغم مرور كل هذا الوقت، اقترب بوجهه منه وضاقت حدقتاه وأعاد قراءتها بصوت خافت

قرار جديد لرئيس التحرير:

بعد الاطلاع على كل قوانين الجريدة ولوائحها تقرر الآتي: يتم ترقية الأستاذ "شريف العسال" إلي منصب نائب رئيس التحرير وذلك اعتباراً من بداية الشهر الجديد.

ما إن فرغ من القراءة حتى تحول ببصره لمدخل صالة التحرير وتذكر شريف العسال يومها حينما استوقفه متسائلاً عن سر ضحكاته التي ارتفعت بالمكان، وقتها تحير في إجابة سؤاله بعدما أنهى قراءته للقرار، ووضع كفه على فمه كي يكتم ضحكاته، ثم لوح بيده معتذراً لشريف قائلاً:

ـ أنا أسف يا كبير.. بس غصب عني والله.

ـ قصدك إيه؟ مش فاهم؟

ـ كدا برضه! معقولة رجل مهم في مكانتك ميقدرش يفهم أنا قصدي إيه؟

ـ آه.. قصدك القرار؟ معلش اشتغل على نفسك شوية وحاول، يمكن في يوم تبقى ناجح زيي.

ـ ناجح.. ممكن، لكن زيك.. مستحيل.

ـ طبعاً مستحيل، بس عارف مستحيل ليه؟ عشان انت مش بتعمل حاجة غير أنك عمال تصرخ وتولول زي الستات وتقول في كل حتة أصل الحكومة معملتش، أصل الحكومة واكلة حقنا؛ في حين لو استفدت منها ونجحت وقدرت تثبت نفسك، هتبطل كل الهري دا وهتقول إنها أحسن حكومة في الدنيا... يا عمرو دور نيلسون مانديلا اللي أنت عايش فيه دا مش على مقاسك.

ـ عارف يا شريف مشكلة العاهرة إيه ولامؤاخذة؟ أنها عايزة كل النسوان زيها.

ـ أنت بتقول إيه؟

ـ وعارف كمان اللي قبلنا قالوا إيه؟ قالوا إن الكذب ملوش رجلين، بس للأسف طلعوا غلطانين..عارف ليه؟ لأنه طلع له بدل الرجلين.. أربعة... الاولى واحد يكون عنده موهبة الكذب، والتانية عالم هبلة تصدق الكذبة، والتالتة عالم خايبة عارفة إنه كذب بس متقدرش تفتح بوقها، أما الرابعة فدول عالم زيك كده يعرفوا يجمّلوا الكذبة ويحلوها في عين الناس.

ـ أقسم بالله لا اخليك تندم على كل كلمة قلتها.

واصل عمرو ضحكاته الخافتة وهو مازال واقفاً أمام باب الصالة، يتذكر كيف زم شريف شفتيه وعقد حاجبيه غاضباً قبل أن يرمقه بنظرة نارية، وينصرف مسرعاً وكأن شياطين الدنيا تطارده.

كان قد مر وقت طويل على هذا الموقف لكنه لا ينفك يتذكره كلما مر من أمام القرار، وهنا هز رأسه أسفاً ثم دلف للصالة وهو يرجو ألا يقابل شريف في طريقه.

صعد درجات السلم ببطء شديد، وهو يكاد يجر قدميه جرًا، دفع باب الشقة وصفقه خلفه بقوة، ثم ألقى بمفاتيحه على المنضدة فأحدثت دويًا شديدًا. انتظر أن تخرج أمه من الشرفة أو غرفتها كي تمطره بأسئلتها، لكن ظل المكان ساكناً، فعقد حاجبيه باستغراب، ثم تقدم نحو غرفتها، وقبل أن يصل لمح الورقة ذاتها التي تبلغه فيها بوجودها عند جارتها، فهز رأسه وتقدم للثلاجة، تحسس الورقة

الملصقة عليها، ثم توجه للشرفة، نظر للسماء الداكنة وقد تناثرت على ردائها الأسود نجوم فضية تلألأت ببريق يخطف الأبصار.

مرقت صورة بلسم أمام عينيه وهي جالسة أمامه في المكتبة يسألها عن أحوالها ويعاتبها عن اختفائها طوال اليوم، فتعللت بالشغل ومشاكله، أحس من صوتها بأمر تخفيه فأدار دفة الحديث بعيداً وأخذ يغازلها بكلمات رقيقة، وكالعادة كان الصمت هو الرد المناسب منها، إذ تجد صعوبة في مجاراته، فأطلق ضحكة صافية قبل أن يصمت لثوان ويسألها بشكل مفاجئ:

ـ قوليلي صحيح... عملتي إيه مع مراد؟

ـ خرج النهارده من المستشفى.

ـ وبعدين؟

ـ مفيش.. هستني يومين كدا يكون استقر ورتب أحواله وبعدها هتكلم معاه.

ـ أنتي لسة هتستني كمان يومين؟!

ـ اللي خلانا نستنى الفترة اللي فاتت دي يخلينا نستنى كمان يومين... معلش يا عمرو، أنا عارفة إن الموضوع مش سهل عليك، لكن حرام يكون لسة خارج من صدمة وأروح أنا مدياله صدمة جديدة... أوعدك إني هخلص الموضوع في أقرب وقت.

تبخرت صورتها وبقى صامتاً، يتطلع للشارع والمارة، حتى شعر بالنوم يداعب جفونه، فدخل من الشرفة وتوجه لغرفته، وحينما مر من أمام غرفة والدته

فوجئ بنور خافت يتسلل من أسفل عقب الباب، فتسمر في مكانه وقد كست الدهشة ملامحه، تقافزت برأسه عشرات الأسئلة، دون أن يجد لها جواباً، مد يده وطرق الباب بحذر، وللمرة الأولى يتمنى ألا يصله صوتها من خلف الباب، لكن خابت أمانيه حينما سمع صوتها يحثه على الدخول، كانت جالسة على مقعدها الجلدي، وسجادة الصلاة مفروشة أسفل قدميها، وفي يدها المسبحة، وقف على العتبة مصدوماً، علقت الكلمات بحلقه، فازدرد ريقه بصعوبة ثم سألها:

ـ ماما!! انتي هنا من امتى؟

ـ أنا هنا من قبل ما أنت تيجي.

ـ إيه؟ ازاي؟ بس الورقة اللي...

ـ آه.. أصلي كنت رايحة فعلاً لطنطك سوسو، لكن بعد كدا لاقيت نفسي مش قادرة أقعد أرغي مع حد.

ـ طيب ما نادبتيش عليا ليه؟

ـ مفيش، بس مصدعة شوية وعايزة أنام... روح أنت شوف هتعمل إيه.. هتنام ولا... ولا هتكمل سرحان في البلكونة.

شعر ببرودة شديدة تجتاح جسده، وكأن أحدهم ألقى فوق رأسه ماءً مثلجاً، فسرت في أوصاله رجفة قوية، جعلته ينسحب بهدوء من أمامها ويتحرك لغرفته ويجلس على أقرب مقعد، معيداً شريط الحوار بينهما، ليتوقف عند جملتها

الأخيرة، والتي أحالت ظنونه إلى شبه يقين بأن أمه تشعر بما يدور في الخفاء بينه وبين بلسم؛ بل وصل تخوفه إلى حد أنها تتمكن من رؤية خيالاته، وحينما وصل تفكيره إلى هذا الحد أحس بصداع شديد يضرب رأسه، فوضعها بين راحتيه وأغلق عينيه لعله يخرس ضجيج أفكاره، لكن باءت محاولاته بالفشل فقرر أن يتخلص منها بالمواجهة.

وهنا هب من مجلسه وتوجه لغرفة والدته التي كانت على حالها على مقعدها تقرأ في مصحفها، وما إن لمحته حتى ابتسمت وبعينها تساؤل عما أرجعه، فتنهد بصوت عال وهو يقول:

ـ ماما..في حاجة عايز احكيلك عنها.

ظهر التردد على ملامحه واخذ يدور بعينيه في الغرفة هرباً من نظراتها النافذة والتي كادت تخترق صدره وتقرأ ما يخفيه، لكنه في النهاية حسم أمره وأجابها:

ـ بصراحة يا ماما، أنا كنت جاي النهارده عشان أقولك إني الحمد لله لاقيت الإنسانة اللي ممكن أكمل معاها حياتي.. الإنسانة اللي هتكون بنتك زي ما أنا أبنك.

حملقت في وجهه بنظرة مريبة تجمع ما بين الصدمة والتعجب، وشعرت بالجفاف يزحف على حلقها ويحيله لصحراء جرداء، فجاهدت كي تتلفظ بعبارة ما، أطلت المعاناة من ملامحها قبل أن تنجح في السيطرة على انفعالاتها وتسأله بلهجة جافة:

ـ إنسانة إيه اللي بتتكلم عليها؟ إيه الكلام العجيب ده؟

ـ ولا عجيب ولا حاجة... انتي مش عايزة تشوفي حبيبك عريس ولا إيه؟

تجاهلت سؤاله وأجابته بسؤال أخر:

ـ ودي شفتها فين وازاي؟

ـ في مكتبة عم عباس اللي في وسط البلد.

من جديد تصرخ ملامحها بالصدمة جراء حديث وحيدها عن محبوبته، قبل أن تهز رأسها متعجبة وهي تردد همساً:

ـ ازاي... ازاي.

اقترب منها ودنا برأسه للأمام وهو يسألها:

ـ بتقولي حاجة يا ماما؟

رفعت وجهها له وأطلت من عينيها عشرات الأسئلة لكن دون أن تبارح شفتيها، فانتظر أن تصارحه بما يدور بخاطرها لكن طال الصمت وكأن نبع الكلمات قد نضب، فمط شفتيه للأمام وأردف:

ـ أنا عارف إن الموضوع يعتبر مفاجأة بالنسبة لك، لكن صدقيني يا ماما... بلسم هي اللي كنت بدور عليها واللي هبقى مطمن وهي معايا ومعاكي.. بجد يا ماما هتخاف عليكي وتصونك زي بالظبط.

ـ مفيش حد هيخاف عليا ولا يصوني زيك يا عمرو.

ـ لا يا أمي، بلسم حاجة تانية... دي غير أي واحدة عرفتها، دي اللي هتبقى في وقت الشدة سند وعكاز لحضرتك.

ـ وحد قالك إني عايزة عكاز؟ إيه؟ شايفني خلاص عجزت ومش قادرة أخدمك ولا أخدم نفسي؟

ـ لا طبعاً يا ماما مش قصدي.. ربنا يديم عليك الصحة والعافية... أنا عارف إنك تقدري تشيلي البيت دا وعشر بيوت جنبه كمان، بس أنا قصدي.. إن...

ـ أنا فاهمة قصدك ومش محتاجة تشرحلي.

خيم الصمت على المكان بعد جملتها الأخيرة، وأخذت ترمقه بنظرات صارمة جعلته يطرق رأسه أرضاً، قبل أن تتنهد بصوت عال وتسأله:

ـ ويا ترى اتكلمت معاها عليا ولا خفت أحسن ترفضك وتقول أنا مش هتجوز واحد وأمه؟

ـ يا ماما بلسم عمرها ما هتفكر بالطريقة دي، أنا عارفها كويس، وانتي كمان لما تعرفيها هتحبيها أوي... دا يمكن تحبيها أكتر مني كمان.

ـ لا هي هتحبني ولا أنا هحبها.

ـ ليه يا أمي بتقولي كدا؟

ـ اسمع اللي بقولك عليه، ولو مش عاجبك كلامي طلعه من الودن التانية وأرميه وراء ظهرك... صدقني يا حبيبي، إحنا عشنا لبعض طول العمر، لكن خلاص مفيش فايدة... جه الوقت اللي هتدخل واحدة بينا وتفرقنا... عامة أنا

كنت عاملة حساب اليوم دا وعارفة أنه جي جي، فأنا مش زعلانة... ربنا يا بني يكرمك ويوفقك في حياتك سواء بقى كنت معاك أو مش معاك.

حاول أن يمسك يدها ويقبلها لكنها أسرعت ووضعتها على صدرها قائلة:

ـ قوم نام يا عمرو وسيبني أستريح شوية، وخلينا نكمل كلامنا بكرة.

ـ لا طبعاً مش هسيبك وانتي في الحالة دي.

فجأة نهضت من مقعدها وتوجهت لسريرها، ثم استلقت عليه في هدوء وأولت ظهرها لعمرو، الذي وقف حائراً لا يدري ماذا يفعل. كان معتاداً على هذه الطريقة من أمه، فبمجرد أن تشعر بأن النقاش بينهما لن يسير وفقاً لهواها تتحجج بالتعب وتفر من أمامه، لكن هذه المرة ليست مثل كل مرة؛ فاليوم لن يتراجع ولن يتخلى عن بلسم حتى ولو كان الثمن هو غضب أمه منه.

جلس عبد الرحمن خلف مكتبه، وقد انهمك في مراجعة عدد من الملفات، تناثرت الأوراق في الغرفة، وسقط بعضها على أرضية المكان، امتدت يده لتلتقط فنجان القهوة بحركة آلية، أرتشف منه رشفة صغيرة وأعاده لمكانه، غرق بكامل وعيه في العمل لدرجة أنه لم يسمع صوت الطرقات التي ارتفعت على باب غرفته، لحظات من الصمت قابلت الطارق، فأعاد الكرة ولكن هذه المرة بقوة أكبر، فجفل عبد الرحمن من الصوت ورفع رأسه مندهشاً، قبل أن يستعيد رباط جأشه ويصرخ في الطارق ليحثه على الدخول، وهنا فُتح الباب ليظهر خلفه مراد بابتسامته الهادئة، وما إن رآه عبد الرحمن، حتى ترك أوراقه ملوحاً له أن

تفضل بالدخول. تقدم مراد بخطوات ثابتة، ومد يده ليصافح صديقه الذي رحب به وباركله على خروجه بالسلامة، حينئذ ابتسم مراد وأطرق رأسه أرضاً للحظات قبل أن يقول:

ـ في حاجة غريبة حصلت وعارف إنك الوحيد اللي هلاقي عنده الرد.

ـ خير يا مراد؟

ـ أنا رحت القسم كالعادة، لكن اتفاجئت بالمأمور بيبلغني اني اتنقلت هنا.

ـ ودي حاجة تزعلك؟

ـ لا طبعاً مش قصدي، لكن أنا كنت مستريح في مكاني.

ـ بس احنا شايفين حاجة تانية، احنا عايزينك معنا يا مراد، وشايفين انك هتفيدنا هنا أكتر، وبعدين يا سيدي أعتبرها فترة نقاهة.

ـ (ضاحكاً): فترة نقاهة في أمن الدولة!!

ـ بص يا مراد، بصراحة كدا أنا اللي سعيت في نقلك، وشايف أن شخصك وطريقتك وملف خدمتك بيأكدوا وجهة نظري فيك... الجهاز هنا يا مراد محتاج أسلوب جديد يكون موازي للأسلوب القديم، وأنت من الناس اللي يقدروا يخدموا الأسلوب الجديد اللي بكلمك عنه... فهمت بقى ولا عايز تفهم حاجة تانية؟

ـ لا يا فندم.. أنا تحت أمر البلد في أي مكان.

ـ وأنا كنت متأكد من كدا.

الصدمة

ألقت بلسم بجسدها المنهك على كرسي مكتبها، وأرجعت رأسها للوراء ثم أغمضت عينيها، ودت لو تُخرس ألسنة من حولها، أصواتهم كالسياط تلهب رأسها، يوم آخر يمتلئ بالمشاكل، أرقام متداخلة كخيوط بكرة غزل لا تعرف لها أولاً من أخر، لحظات وشعرت بالخدر يتسلل لأطرافها، وفجأة

ـ هو احنا جايين الشغل عشان ننام ولا إيه؟

ـ حسام... يخرب بيت شيطانك، انت جيت امتى؟

ابتسم في هدوء وأراح جسده الذي نحف كثيراً على الكرسي المقابل لها ثم أجابها:

ـ لسة من شوية، عاملة إيه يا بلسم؟ والله وحشتني القعدة معاكي.

ـ وانت والله، متتصورش كنا عاملين ازاي أنا والبت هدير من غيرك، كنا حاسين أن الضلع الثالث بتاعنا مش موجود.

ـ ربنا يبارك فيكي، وتسلمي على كل اللي عملتيه في فترة غيابي... ماما قالتلي إنك روحتلها وكنتي بتسألي عليها وعليا باستمرار... بجد نعم الأخت انتي والمجنونة هدير.

ـ يا حسام أنت بتشكرني على إيه؟ دي طنط في مقام ماما والله، ربنا يبارك فيها وتفرحها كدا ومتزعلهاش... كفاية بقى اللي شافته الأيام اللي فاتت.. مش كدا ولا إيه؟

ـ عندك حق... يظهر أني لازم أغير من سلوكي، أحاول أبقى منحرف شوية، مادام الالتزام جابلي وجع الدماغ.

ـ يعني هنشوفك قريب من غير ذقن؟

ابتسم في مرارة وهو يجيبها:

ـ تصدقي اني فكرت في الموضوع دا فعلاً، لكن تراجعت في آخر ثانية.

ـ ليه؟

ـ عارفة لو كنت عملت كدا، كانت هتبقى دي النهاية بالنسبة لي... كنت ساعتها هحس إن المبادئ اللي مؤمن بيها وكل قناعتي اتهدوا.

ـ مش للدرجة دي يا حسام.

ـ لا للدرجة دي وأكتر... أنا عارف إنك هتقولي الإيمان مش بتربية الذقن وبس، هقولك كلامك مظبوط لكن مادام أنا مش مضايق حد ولا بفرض رأي على إنسان يبقى بتحجروا عليا وعلى قناعاتي ليه؟ أنا شايف الذقن بتكمل حاجة ناقصاني، وبحبها ومقتنع بيها، يبقى ليه وجع القلب دا؟!

ـ والله أنا فاهمة وجهة نظرك بس نقول إيه في العالم اللي بتستخبى وراء المظاهر الدينية عشان تعمل من وراها بلاوي سودة، للأسف الناس دي بتاخد في الرجلين العالم اللي زيك اللي ملهاش في أي حاجة.

ـ ربنا يهدي الجميع.. هقوم أنا بقى عشان أروح لمكتب المدير وأشوف إيه اللي هيتم معايا.

ـ خير إن شاء الله.

أنصرف من أمامها بهدوء، تتابعه بنظرات متحسرة، فقد آلمها أن تجده بهذا الشكل، وتمنت أن يوفق في لقائه مع المدير؛ وما إن دارت بمقعدها حتى تفاجأت بأحد السعاة، يقف أمامها ويناولها مظروفًا كبيرًا، قائلاً إن طفلاً صغيراً جاء إلى بوابة الأمن وقال أن نسلمه لكِ... ارتسم التعجب على وجهها، وعقدت حاجبيها وهي تمد يدها لتلتقط المظروف بحذر، قبل أن تأذن للساعي بالانصراف. أمسكت به وقلبته أكثر من مرة، فلم تجد عليه ما يدل على راسله، فقط اسمها المكتوب بخط عريض.

ازداد تعجبها أكثر فأكثر، وفي النهاية قامت بفتحه بحذر شديد وهي تبعد وجهها، وكأنه سينفجر فيها، وهنا انزلق من داخله ملف صغير يحتوي على عدد قليل من الورق، فوضعته على مكتبها وشرعت في قراءته.

التهمت عيناها السطور المكتوبة بخط منمق، وكلما نزلت ببصرها للسطر التالي كلما كانت عينيها تتسعان أكثر فأكثر؛ فقد كان الملف يحتوي على مفاجأة رهيبة... مفاجأة قد تغير مسار حياتها.

كادت القهوة تخلو من الزبائن، وكأنهم اتفقوا على عدم الحضور، فجلس عمرو كعادته وحيداً مع أفكاره يتأمل ما حوله مكتفياً بملء صدره من أبخرة البن المحوج التي تعبق المكان، فتكسبه انتعاشاً محبباً لنفسه. لحظات وشعر بأن عقله

ينادي عليه ويرجوه أن يتوقف للحظات كي يلتقط أنفاسه، فهز رأسه وكأنه يوافقه...

ـ وترجع تقولي أنت مبتسألش.

رفع عمرو رأسه ليجد جمال يقف أمامه، والابتسامة تملأ وجهه، فابتسم بدوره وأشار له كي يجلس على المقعد المجاور، فألقى بجسده على الكرسي وأردف قائلاً:

ـ طبعاً لازم تسكت، ما أنت مش لاقي حاجة تقولها.

ـ معلش... بس والله كنت مشغول الفترة اللي فاتت بشوية مشاكل في الشغل، وبعدين بصراحة من آخر مرة اتقابلنا فيها وأنا متغاظ منك ومش طايق أكلمك.

ـ يا ستار... ميبقاش قلبك أسود كدا، خلي صدرك رحب بالرأي الآخر.. أنت شايف حاجة وأنا شايف حاجة تانية خالص، مين صح ومين غلط مش مهم، لكن المهم إننا نستحمل بعض.

ـ صح... عندك حق يا حبيبي.

ـ ماشي يا أخويا، ويا ترى عملت إيه الأيام اللي فاتت؟ في جديد؟

تردد عمرو في الإجابة لثوان، وتساءل فيما بينه، هل يخبره بعلاقته مع بلسم أم لا؟ وهل هذا هو الوقت المناسب للكشف عن تلك العلاقة؟ تجهم وجهه وأطبق شفتيه بشكل دفع جمال أن يسأله:

ـ إيه يا بني مالك؟ هو السؤال صعب أوي كدا؟

ـ إيه؟ لا..لا صعب ولا حاجة... كل الموضوع أن كان في حوار بيني وبين زميل ليا ومكنتش عارف إذا كان مهم لدرجة اني أوجع دماغك به ولا بلاش من أساسه.

ـ يا سلام!! ما انت طول عمرك بتوجع دماغي في الفارغة والمليانة... ولا أنت بقى عندك إحساس فجأة، إخلص وقول يا عم الحج.

وفجأة ارتفع رنين الرسائل بهاتف عمرو، فأخرجه ونظر لشاشته ليجد رسالة من بلسم تخبره فيها بضرورة الحضور لمكانهم المعتاد بالكافيه. تجهم وجهه للحظات ثم رفع بصره لصديقه ليرتد صعقاً للخلف بعدما تفاجأ بعدم وجوده. تلفت حوله بمزيج من الفزع والدهشة، تعلق اسم صديقه بلسانه لكن فشل في نطقه، بعدما ألجمته المفاجأة، تسمر بمكانه مصدوماً مما حدث، ازدرد ريقه بصعوبة، قبل أن يتحامل على نفسه وينهض من مقعده، ويتحرك بخطوات سريعة مضطربة؛ عقله المشوش لم يسعفه في إيجاد مبرر لما وقع، وأمطر نفسه بأسئلة ليس لها إجابات، هل حضر جمال للقهوة؟هل كان يتحدث معه؟هل سارع بالانصراف حينما وجده مشغولاً بهاتفه؟ أم.. أم أنه لم يأت من الأساس وحضرت خيالاته فقط؟!

لم يشعر بالطريق، بعدما أخذت الأفكار تتلوي داخل رأسه مثل حية انفصل عنها ذيلها، حاول أن يتناسى ما حدث ويبعد واقعة جمال عن ذهنه ويشغل باله

بما أرسلته بلسم، أعاد حواراته معها طوال الأيام السابقة، لعله يجد سبباً لما حدث لكنه فشل، اكتفي بالصمت رفيقاً له حتى وصل للكافيه، وهناك وجدها جالسة شاردة النظرات، عيناها ذابلة كورقة شجر في فصل الخريف، مقدمة أنفها اكتست بحمرة خفيفة، تقدم منها بقلب منقبض، وجلس أمامها صامتاً. الغريب أنها لم تشعر به، إلي أن نقر بأصابعه على سطح الطاولة، فنظرت له بدهشة وكأنها تفاجأت بوجوده، وإذا بها تسأله عن سبب حضوره وكيف عرف بمكانها؟ تعاظمت دهشته جراء أسئلتها وشعر بالدماء تنسحب من وجهه وأطرافه فأخرج هاتفه وهو يجيبها بأنه حضر بناء على رسالتها، عقدت حاجبيها متعجبة ونفت ما يقول وهي ترد بلهجة عنيفة لم يعتدها منها وتساءلت إن كانت هذه كذبة أخرى من أكاذيبه. صعق من ردها وحاول أن يمد يده ويربت على كفها لكنها سحبته بسرعة، ومدت يدها لحقيبتها وأخرجت الملف ووضعته أمامه. ما إن وقعت عيناه عليه حتى اتسعتا بقوة، وانتابته دهشة ألجمت لسانه، فأخذ يشير للملف بيد مرتعشة، وهي تتابعه بنظرات خاوية، علق بحلقه ريقه المر، فازدرده بصعوبة ونظر لها متسائلاً:

ـ انتي جيبت الملف دا منين؟

ـ أنا مجبتش حاجة، الملف هو اللي جه لحد عندي.

اغرورقت عيناه بعبرات، حاول جاهداً ألا تفلت منه، ثم أراح رأسه على كفه وسمعها تسأله:

ـ أنا عايزة أعرف أنت خبيت عليا حاجة مهمة زي دي ليه؟

ـ والله كنت هقولك... بس مكنش وقته.

ـ أومال وقته كان هيجي امتى؟

ـ لما تعرفيني أكتر، وتعرفي ظروفي أكتر. يا بلسم أنا لما حكيتلك عن حياتي قلت الخطوط العريضة وبس، مكنش ينفع أقولك وإحنا لسة في البداية اني... اني كنت مريض نفسي وقعدت كذا شهر أتعالج، ولو أن السبب اللي دخلني المصحة ممكن أي حد يتعرض له... يا بلسم أنا كنت مرتبط بوالدي جداً ومقدرتش أتحمل فكرة موته، حسيت وقتها إن جزء مني مات ومش هيرجع تاني، ورغم ان والدتي حاولت كتير تعوضني عن غيابه وتخرجني من الحالة اللي كنت فيها، لكن للأسف فشلت وبدأت حالتي تتدهور أكتر وبقيت زي المجانين، لما أكون لوحدي أقعد أكلم نفسي ولما أقعد مع الناس أسكت، توهان وانفصال تام عن الواقع، لدرجة اني مش فاكر إيه اللي حصل بعد كدا... كل اللي فاكره أني قدرت اتغلب على مرضي وأرجع تاني لحياتي، وأكبر دليل على كلامي أنهم سمحولي بالخروج، وسمحولي أرجع الشغل تاني.. أنا عارف أني غلطان بس خفت، خفت تضيعي مني وأنا ماصدقت لاقيت واحدة زيك، واحدة مش موجودة أصلاً على خريطة البني أدمين... عشان خاطري أعذريني وسامحيني، دي أول غلطة واوعدك هتكون أخر غلطة... يا بلسم مش ذنبي أن

ربنا خلقني بقلب حساس زيادة عن اللزوم، لا قلبي ولا قلبك ولا قلوب الناس في أيدينا، دي في ايد اللي خلقها.

شعر بأنفاسه تتهدج، وبأن قطار كلامه نفذ منه الوقود، فجلس صامتاً في انتظار ما ستنطق به؛ أما هي فقد تسمرت عيناها عليه، وكأنها تحاول أن تنفذ إلى أعماق نفسه كي تتأكد من صدق كلامه ومشاعره. انتابها شعور بالتوتر، بعدما علقت ما بين مطرقة عقلها وبين سندان قلبها، ودت لو تحتضنه وتمسح عبراته التي تجمعت بجانبي عينيه، وودت لو تنصرف غير عابئة بما قال، وفي النهاية تغلب عقلها على قلبها، فالتقطت حقيبتها وهمت بالانصراف، لكنه أوقفها متوسلاً:

ـ حرام تظلميني... انتي مش متخيلة انتي إيه بالنسبة لي، والله لو تعرفي عمرك ما هتسبيني، عشان خاطري اقعدي، أنا محتاجلك.

ـ وأنا محتاجة أقعد مع نفسي شوية.

ـ ماشي يا بلسم..أنا مش هضغط عليكي أكثر من كدا.. أنا بس عايز أعرف حاجة أخيرة.. مين اللي جابلك الملف دا؟

ـ طفل صغير سابه عند موظف الأمن.

وهنا دارت على عقبيها وهمت بالانصراف فسألها بصوت عال:

ـ هتسبيني؟

توقفت في مكانها للحظات، وأطرقت رأسها أرضاً وكأنها تعاني صراعاً رهيباً، ثم حسمت أمرها وأومأت موافقة قبل أن تنصرف من المكان بخطوات سريعة

أقرب للعدو، بينما جلس هو وحيداً، يندب حظه العسر وفي ذهنه سؤال واحد تكرر عشرات المرات.. ترى من أرسل لبلسم الملف؟

جلست مي على الكنبة الكبيرة الكائنة أمام شاشة التلفاز، وأمسكت بجهاز التحكم، وأخذت تقلب القنوات بلا هدف، وكلما توقفت أمام فيلم أو مسلسل تتابعه للحظات ثم تشعر بالملل فتنتقل لقناة أخرى؛ ظلت هكذا إلى أن سمعت الباب ينفتح خلفها، فالتفتت لتجد بلسم تتقدم ناحيتها وتلقي بنفسها على المقعد المجاور وقد ظهر على وجهها الإجهاد الشديد، فانتابها شعور بالقلق ظهر جلياً على صوتها وهي تسألها عما ألم بها.

هزت بلسم رأسها غير مصدقة ما حدث، ثم عبأت صدرها بالهواء وزفرته بقوة، قبل أن تعتدل وتبدأ في قص ما دار خلال اليوم، استغرقت وقتاً ليس بالقليل، إذ كانت تتوقف بين لحظة وأخرى كي تلتقط أنفاسها المتقطعة، بينما جلست مي تطالعها في صمت، وعلى وجهها علامات التعجب والاستنكار، وما إن فرغت من حكايتها حتى باغتتها مي بسؤالها عمن أرسل الملف، فارتسمت ابتسامة مريرة على وجه بلسم وهي تسألها:

ـ هو دا اللي لفت نظرك في كل اللي حكيته لك؟

ـ آه طبعاً... عشان دي أهم حاجة لازم تسألي نفسك عليها؟

ـ مش فاهمة!! قصدك إيه؟

ـ بلسم..على حد علمي مفيش حد يعرف العلاقة اللي بينك وبين عمرو غيري أنا... لكن من ناحيته حد يعرف اللي بينكم؟

ـ مش عارفة... بس هو قالي قبل كدا أنه مش قايل لحد... حتى والدته لسة متعرفش.

ـ طيب لما الحكاية لسة مش معروفة يبقى مين اللي عايز يفشكل الموضوع ويوقع بينك وبين عمرو؟

ـ تصدقي أنا مفكرتش في الموضوع دا!!

ـ عشان ولا مؤاخذة غبية.. رايحة تسني السكاكين على الواد الغلبان وسايبة الحوار الأهم.

ـ يا مي يعني انتي شايفة إنه من الصح إنه يخبي عليا حاجة مهمة زي دي؟

ـ لا طبعاً غلطان... بس اللي حصل له دا ممكن يحصل لأي حد في الدنيا... واحد مرتبط بوالده ومقدرش يستحمل الصدمة فحصله شوية اكتئاب، عادي بتحصل.. هو صحيح دا معناه أنه حساس زيادة عن اللزوم لكن دا برضه حاجة مش وحشة، المهم في نظري فعلاً اننا نعرف مين اللي بعتلك الملف؟

ـ ودا هنعرفه منين؟

ـ بصراحة.. الليلة دي عند عمرو واللي عمل كدا أكيد من طرفه، لأن حوار المصحة النفسية دا محدش فينا يعرفه.

ـ عندك حق يا مي... طيب تفتكري أنا أعمل إيه دلوقتي؟ بصراحة أنا اتعاملت معاه بقسوة ومقدّرتش حالته، كل اللي كان شاغلني أنه خبى عليا حاجة مهمة زي دي.

ـ مش مهم.. اللي حصل حصل، خلينا في اللي جي، بلاش النهارده تكلميه..

ـ أنا أصلاً مش بعرف أكلمه

ـ يعني إيه؟ مش فاهمة؟

ـ أصل كل ما كنت بتصل به كنت بلاقي تليفونه غير متاح.

ـ غريبة؟! اومال كنتوا بتتقابلوا أزاي؟

ـ دايما بنبقى مرتبين قبلها.

ـ ما علينا... استني بكره وشوفي هيعمل إيه، ولو تواصل معاكي ياريت تهدي الموضوع وحاولي تعرفي مين اللي عمل كدا... خلاص.

ـ حاضر.

سؤال بلا جواب

منذ تركته بلسم وعقله لم يتوقف لحظة عن التفكير، صورة الملف لا تنفك أن تخرج من ذاكرته، صور من يعرفهم تراصت أمام عينيه، مثل طابور عرض المشبوهين، الكل يقف في قفص الاتهام، لا أحد مستثنى، فالكل على علم بدخوله المصحة، ولكن الغريب أن لا أحد على علم بعلاقته مع بلسم، إذا... من فعلها؟ من بلغه حقيقة العلاقة بينهما، بل وقرر أن يدمرها... من؟ توقف السؤال بحلقه حينما قفزت الإجابة أمام عينيه في صورة وجه مألوف.

كان قد وصل في ذلك الوقت لشقته، وحينما فتح الباب وجد الظلام يعم المكان، فخطى داخلها حتى وصل لأحد المقاعد وألقى عليه جسده المنهك، كانت الأفكار لاتزال تركض داخل رأسه دون هوادة، وهو يقف عاجزاً عن كبح لجامها، ثوان وشعر بخطوات أمه تدهس أرض المكان بهدوء، ولمح من بين الظلام الذي ألفته عيناه يدها وهي تمتد نحو الحائط وتضغط المفتاح ليرجع النور للشقة، وهنا انتفض جسدها وشعرت بقلبها يكاد يتوقف من فرط المفاجأة، بعدما وجدته جالساً على أحد المقاعد يتطلع لها في صمت، وبحركة لا إرادية وضعت كفها على الجانب الأيسر من جسدها، لعله يهديء من روع قلبها الذي تقافزت دقاته بشدة، فضحك في سخرية وسألها:

ـ إيه؟ أتخضيتي؟ مكنتش أعرف أن شكلي بقى يخض.

ـ لا طبعاً يا حبيبي مش قصدي.. أنا بس متوقعتش أنك تكون قاعد في الضلمة.

ـ معلش الوحدة بتعمل اكتر من كدا... وأنا من ساعة ما أبويا فارقني وأنا بحس بالخوف والوحدة.

ـ معقولة يا حبيبي تقول الكلام دا وأنا موجودة... قصدك يعني أني ماليش لازمة؟

ـ لا يا حبيبتي، دا انتي كل حاجة في حياتي... من قبل حتى ما أبويا يتوفى.. طول عمري وأنا شايفك أمي وأبويا وأختي وبنتي.

اقتربت منه وجلست قباله، وعيناها تحتضن تفاصيله ثم قالت:

ـ بس أنت خلاص ناوي تبعد عني.

ـ والنبي يا ماما بلاش الكلام دا... عشان دا عمره ما هيحصل.

ـ لا هيحصل.. هتمشي وتسبني.

ظهر الارتباك على ملامحه، وحاول أن يرسم ابتسامة على وجهه فخرجت مضطربة رغماً عنه:

ـ انتي ليه بس بتقولي كده؟

ـ عشان طول عمري وأنا مش بتخيل أنك تسيب البيت ده وواحدة تانية تاخدك مني... كنت بقول ازاي هقعد في البيت من غير نَفَسَك ما يكون فيه، من غير ضحكك وهزارك معايا، عيشت على أمل أن يومي يبقى قبل يومك.

ـ بعد الشر عنك يا حبيبة قلبي.

تحركت للأمام ونظرت إلى عينيه مباشرة وهي تقول:

ـ لحد لما... لما...

غالبتها دموعها وفكت أوصال عبارتها فالتزمت الصمت الباكي. اكتفى بالنظرات الحائرة المطلة من عينيه، تصرخ داخله عشرات الاسئلة وهو يجاهد في قبض لسانه، وفي النهاية وجدها تهم بالنهوض قائلة:

ـ أنا تعبانة وعايزة أنام... تصبح على خير.

ولكن قبل أن تتحرك فاجأها بسؤال ألزمها مقعدها وجعل أنفاسها تتلاحق وكأنها عادت لتوها من ماراثون طويل...

ـ عملتي كده ليه؟

اتسعت عيناها ولمعت العبرات بداخلهما أكثر فأكثر، جاهدت كي تكبتها لكن سرعان ما وجدت طريقها لوجنتيها، فبدت وكأن السنين قد اثقلت كاهلها، مال رأسها للأمام بعدما تقوس ظهرها.

بُهت من رد فعلها الذي لم يكن في الحسبان؛ كان ظنه أنها ستسأله عن فحوى عبارته، أو ماذا تعني جملته المبهمة، وقد تتمادى في الدفاع عن نفسها وتنفي ما يدعيه... لكن ذهبت ظنونه أدراج الرياح، خيوط الماء المالح خيل له أنها تتطاير وتحط على شفتيه كي تذيقه من مرارتها وقساوة طعمها، فأحس بالندم جراء ما تلفظ به وود لو يرجع بالزمن كي يمسك لسانه ولا يتسبب في ألمها، شعر بالندم يكبل يده ويضرب وجنتيه فهم بالتحرك نحوها لكنه وجدها ترشف من الهواء قدر استطاعتها وتطلقه بقوة وهي تجيبه دون أن تلتفت له:

ـ كنت فاكرة أن الدنيا هتمشي زي ما أنا عايزة، وكنت بضحك على روحي وأعشمها بأن اليوم الصعب ده لسة بعيد، لكن فعلا مفيش حاجة بتستمر... لا الحلو بيستمر ولا الوحش برضه بيستمر... كده ولا كده كان هيجي يوم وتعرف.

ـ أعرف! أعرف إيه؟

ـ هقولك يا بني... هقولك على كل حاجة...

أبواب خزائنها دوى صريرها بالمكان حينما كسرت أقفالها، فتسمر وحيدها من هول ما سمع، سوط لسانها لم يترك مكانًا بجسده إلا وأوجعه، فخرت قواه على مقعده وشفتاه تكتفيان برجفة محمومة تأبى أن تتوقف أو يعبر من بينها صوت.

وقف مراد أمام الباب في انتظار الإذن بالدخول، ثوان وجاءه صوت عبد الرحمن يأذن له بالدخول؛ دلف مراد للغرفة وتقدم نحو المكتب بخطوات ثابتة، قبل أن يجلس على المقعد المقابل متسائلاً:

ـ حضرتك طلبتني؟

نحى عبد الرحمن الملفات التي كان يطالعها جانباً ونظر مباشرة لمراد الذي أطلت من عينيه عشرات الأسئلة فأسرع بإطفاء نار فضوله بقوله:

ـ آه يا مراد... في حكاية سهلة المفروض يقوم بها رجالتنا الصغيرين، لكن أنا حابب تشوف طريقة الشغل معانا شكلها إيه وتقدر تكوّن فكرة كاملة تساعدك فيما بعد.. تمام؟

اعتدل مراد في جلسته وبدا على وجهه الاهتمام بعدما نجح رئيسه في جذب انتباه كافه حواسه:

ـ تحت أمرك يا فندم.

ـ بص يا سيدي.. أنت طبعاً عارف أن البلد اليومين دول بقى فيها شوية جماعات وحركات عاملين فيها ثوريين وبيطالبوا بالتغيير، أفراد الحركات دي بقوا منتشرين في كل مكان... أندية.. مصالح حكومية.. صحف... وطبعاً احنا لازم يكون لنا عيون في كل الأماكن دي.

ـ طبعاً.

ـ و أكيد برضه كل واحد من العالم دول له ملف عندنا، لكن من وقت للتاني بتحصل عليه شوية مستجدات بتخلينا نقفل بعضها.

ـ مستجدات زي إيه؟

ـ يعني مثلاً ممكن يكون الشخص مات أو اتسجن خلاص أو تكون المعلومات اللي وصلت من رجالتنا عنه مش مظبوطة.

ـ والمطلوب إيه يا فندم؟

ـ بص يا سيدي دي شوية ملفات اتقفلت، عايزك تفحصهم تاني وتبص عليهم من جديد، وتكتبلي تقرير مفصل عن كل ملف منهم.. جايز نظرتك تكون غير اللي كان ماسك القضية وقتها وتطلع انت بحاجة احنا مكناش وخدين بالنا منها... فاهمني يا مراد؟

ـ مفهوم سعادتك.

ـ تمام... عايزك دلوقتي تروح لمكتب النقيب عادل راشد وتنسقوا مع بعض طريقة الشغل.

ـ تمام يا فندم، وإن شاء الله هاجي لحضرتك بتقارير مفصلة ومعلومات جديدة.

ـ أنا متأكد يا مراد.. بالتوفيق إن شاء الله.

حملت السحب الشمس بين أحضانها وجرت بها نحو المغيب، فبدأ الظلام يحل على غرفة بلسم، والتي ظهر جسدها ممددًا على السرير، وقد سكن تماماً عن الحركة، حملقت عيناها في سقف الغرفة، شعرت بأفكارها تركض بين جنبات عقلها، مثل جواد تملص من سرجه الثقيل.

تناهي لمسامعها صوت جلبة بالدور الأرضي، فأعتقدت أن أختها قد عادت من عملها، فتعلقت عيناها بباب الغرفة، في انتظار أن تفتحه مي؛ لكن الغريب أن الدقائق مرت واحدة تلو الأخرى دون أن تظهر أختها، فعقدت حاجبيها مستغربة ونهضت من سريرها. تقدمت بخفة نحو الباب وفتحته بهدوء، وقفت

على عتبته تسترق السمع، صوت اقدام تتحرك بهدوء شديد وكأن صاحبها يجاهد في كتم صوتها، أحست بالخوف والقلق يتسلل لقلبها فتوجهت للمطبخ واستلت سكينا، ثم تحركت ببطء نحو درجات السلم المؤدي للدور الأرضي، تسارعت نبضات قلبها بشكل رهيب حتى كادت تتوقف من فرط الخوف، درجات السلم الخشبي تصرخ اسفل قدميها، ومن بعيد خيل لها بطرقات تهوى على باب الشقة.

حاولت أن تسيطر على رعشة يدها، وتقدمت نحو مفتاح النور وكبسته بهدوء شديد، لتطالعها الصالة الخاوية، صمت طويل قابلها وجعلها تتسمر مكانها، أحست بالجنون يضرب رأسها، للحظات خيل لها أن ما سمعته ما هو إلا وهم جراء تفكيرها المتواصل لكن عادت وحدثت نفسها بأنها لم تخطئ فيما سمعته، كان هناك صوت ط... من جديد تعاود اليد المجهولة الطرق على الباب، لينتفض معها جسدها، قدماها المرتعشة لم تعد تقوى على احتمال هذا الضغط، بصعوبة مدت يدها لمقبض الباب وأدارته بهدوء.

وهنا شعرت بلسم بأنها انتقلت لعالم أخر، مفاجأة هزت كيانها وألجمت لسانها، قشعريرة قوية سرت في جسدها، فأحست بقلبها يتحرك من مكانه، وكأنه يتمشى ما بين جانبيها الأيمن والأيسر.

كان من المفترض أن تطالعها حديقة المنزل، تفاصيل المكان لم تتغير باستثناء شيء واحد... عمرو الذي وقف مبتسماً عند باب الحديقة المعدني، ينظر لها بعين

يملؤها الأسف والتردد، تسمرت بمكانها من فرط المفاجأة، حاولت أن تسيطر على انفعالاتها وتهاجم تصرفه المجنون لكن رد فعله كان أسرع، تقدم منها بخطوات بطيئة يشوبها الارتباك، متنهداً بصوت عال قبل أن يلقي عن كاهله كلمات خرجت وكأنها تأتي من بئر عميق:

ـ أنا آسف.

صمتت فتقدم:

ـ أنا غلطان، بس والله كنت خايف... صدقيني مش هتتكرر تاني، أرجوك متسبنيش.

بعين تبللها الدموع نظرت له دون أن تجيبه، فعاد وتقدم ثانية وهو يهمس:

ـ والله بحبك ومش عايز غيرك جنبي.

سالت دموعها كخيوط من فضة، فلمعت تحت أضواء الشارع، وضعت أصابعها على فمها غير مصدقة ما تراه، أغمضت عينيها لثوان ثم فتحتهما لتتفاجأ به أمامها على بعد سنتيمترات متسائلاً:

ـ سامحتيني؟

انطلقت من بين شفتيها ضحكة مضطربة، وأومأت برأسها أكثر من مرة دون أن تتفوه بكلمة واحدة، شعرت بالفرحة تسري في دمائها وبأن السعادة تجسدت وطوقتها بذراعيها، فأسلمت نفسها لها وعلقت روحها باللذة المفرطة؛ اغمضت عينيها لثوان من شدة الرجفة التي انتابتها، وحينما عادت لدنياها

لمحت في عيني عمرو نظرة عجيبة لم تجد لها تفسيراً، نظرة توارت قبل حتى أن يرتد لها جفنها، لكن... وبالرغم من هذا، احست بها تنفذ لقلبها وتكسوه رهبة غريبة.

غرقت الغرفة في الظلام الدامس فغابت ملامحها، لم تفلح خطوط الضوء المتسلله من النافذة أن تحطم حصون العتمة، فصار المكان أقرب منه للقبر حينما يغلق على ساكنه، وبالكاد ظهرت حركة طفيفة لشخص يحفظ تفاصيل المكان عن ظهر قلب مما يسمح له بالتحرك دون أن يقيده ذاك الظلام العالق بالغرفة، ركبته تهتز بحركة عصبية من فرط الانفعال، أصابعه تنقر سطحاً خشبياً في تتابع مثير للأعصاب، وبين الحين والأخر يرفع يده أمام عينيه وينظر لشيء قابض عليه ثم يعيدها لجانبه وهو يتمتم بعبارت عصبية غير مفهومة، وفجأة يهتز ذلك الشيء فتدوي رجفته بالمكان جراء الصمت المطبق الذي يغلف الغرفة، يسرع الشخص ويرفع قبضته لأذنيه وينصت باهتمام لشخص يحدثه على الجانب الثاني، راسه تهتز بالموافقة، يعقبها تنهيدة حارة ضاق بها صدره فأطلق سراحها ليلفح لهيبها هواء المكان، صمت مطبق وإيماء... صمت وإيماء.. وفي النهاية...

ـ حاضر... هعمل كده فعلاً، مفيش غير الحل ده... مع السلامة.

صمت طويل ثم عاد المشهد ليكرر نفسه بعدما عادت اليد لوضعها... الركبة تهتز بشدة... الأصابع تنقر... أنفاس منتظمة... كل تفصيلة تعاد دون نقصان ولكن بزيادة واحدة، عين تلمع وسط الظلام.

لم يتوقف هاتفها عن الرنين ولو للحظة واحدة، كانت تشاهد شاشته وهي تنير بشكل مستمر دون أن تمد يدها له، أجهزت على صوته بعدما كادت تصاب بالجنون جراء صراخه المتواصل، للحظة شعرت وكأن مراد صار هو والهاتف شخصًا واحدًا، تخيلت صورته على الشاشة وهو ينظر إليها مستعطفاً، يرجوها أن ترد عليه، وهي عاجزة.. تضرب بيدها الهواء فتجرحه، تستنجد بسراب ينتشلها من حيرتها، لا تدري كيف ترد وقد أخرستها الحيرة، بماذا تجيب وقد نال من قلبها الحب بقرارته المستحيلة؟

أما مي فقد آثرت الصمت، لم تُرِد أن تزيد من حمل أختها، أكتفت بأن أعدت لها فنجان الشاي وتركتها في الشرفة كي تحتسيه بهدوء، نزلت مسرعة بعدما أطمأنت عليها، وقفت أمام سيارتها الصغيرة تلوح لها قبل أن تركبها وتختفي وسط الزحام.

طوال الطريق وعقلها لم يتوقف عن التفكير في أختها، شغلها الصراع الدائر ما بين عقلها وقلبها، أشفقت عليها من صعوبة الاختيار، وبالرغم من ميلها لمراد لكنها تعلم بأن عمرو هو الأقرب لقلب بلسم. التهم التفكير وقتها فتفاجأت

بوصولها لمقر عملها، ترجلت من سيارتها وتقدمت بخطوات متثاقلة من مبنى شركتها، وفجأة سمعت أحدهم يناديها، فالتفت لتجد مراد يقف على بعد خطوات منها وعلى شفتيه ابتسامة هادئة، تسمرت في مكانها وقد ألجمتها المفاجأة، صحيح أنها لم تره على الحقيقة من قبل، لكنها تتذكر صورته جيداً، التي أطلعتها عليها أختها.

مباراة صامتة دارت بينهما للحظات قبل أن يتبادلا عبارت الترحيب المعتادة والتي أعقبها سؤال مباشر باغت به مي:

ـ ممكن تعرفيني إيه اللي بيحصل بالظبط؟

ـ مش فاهمة تقصد إيه؟.

ـ لا... انتي فاهمة وعارفة... يا مي بلسم بقالها فترة متغيرة ومش بترد على تليفوناتي، ولو ردت بتتهرب مني وبتخلق أعذار وهمية عشان متقابلنيش.

ـ والله يا عمرو أنا... أنا مش عارفة أقولك إيه.

ـ قوليلي الحقيقة حتى لو صعبة، قوليهالي عشان أستريح، مينفعش أفضل كده... يا مي أنا محبتش إنسانة في حياتي كلها غير بلسم... اسألي كل الناس اللي يعرفوني، هيقولولك عمرنا ما شفناه حب حد ولا صاحب حد، عمري ما حسيت بواحدة زي ما حسيت ببلسم... عشان خاطري يا مي.. قوليلي

اعتصر الهم ملامحها بعدما نفذت كلماته لقلبها فأدمته، ألجمت الحيرة لسانها فأطبقت شفتيها عما يجول بصدرها، ترددت ومال جسدها كلاعب سيرك يسير

على حبل رفيع مشدود، ينتظر أن يسقط بين لحظة وأخرى، وفي النهاية تراجعت للخلف وأسندت جذعها للسيارة وهي تقول بلهجة خافتة:

ـ مراد... بلسم بتمر بحالة رهيبة من انعدام التوازن.

ـ يعني إيه مش فاهم؟

ـ أنت عارف طبعاً بلسم خجولة أد إيه وواحدة ملهاش أي تجارب وأنت فعلاً اول واحد يدخل حياتها، والموضوع ده مسببلها ارتباك... يعني شوية تلاقيها مطمنة وعايزة تكون جنبك وشوية تلاقيها خايفة وعايزة تبعد.

ـ وأنا ذنبي إيه؟

ـ حبك هو ذنبك... هتستحمله ولا؟

رمقها بنظرة حائرة وبشفاه تهمس صمتاً، وضع كفه على مقدمة رأسه ثم زفر بضيق قائلاً:

ـ هستحمل يا مي... هستحمل.

قالها وأسقط ذراعيه معلناً إستسلامه، ووضعت عبارته نهاية للنزال المحتدم بينهما، فوقف جانباً يلتقط أنفاسه بينما تراجعت مي فرحة بنصر واهٍ تعلم جيداً أنه لن يستمر طويلاً، فهي تكاد تكون متيقنة ممن سيرسو عليه سباق الفوز بقلب اختها، لكنها حاولت أن تبقي على حظوظ الطرف الذي تميل شخصياً له وتتمني فوزه... وهو مراد.

صوت الشارع يدوي كألف بوق، قطعان من البشر والسيارات، يصدح صراخهم بشكل يصم الآذان، ومن بعيد ظهرت بلسم وقد ترجلت من سيارتها وسارت نحو أحد الكافيهات التي تمتلئ بهم المنطقة. مرت من أمام واجهته الزجاجية فلمحت صديقتها جالسة كعادتها في آخر المكان، ابتسمت في هدوء ودلفت سريعاً للحاق بها، كانت هدير هائمة في عالم أخر وبجوارها فنجان القهوة، حتى أنها لم تشعر بوجود بلسم إلا حينما طرقت على الطاولة بأصابعها قائلة:

ـ مساء السعادة على أجدع صاحبة في الدنيا.

انتفضت هدير بقوة ورفعت رأسها متأملة صديقتها في دهشة، فمنذ وقت طويل لم ترها بهذا الشكل، فرحة غامرة تكاد تقفز من عينيها، ابتسامة عريضة صافية تكاد تضيء المكان كله، فخلعت نظارتها ووضعتها على الطاولة متعجبة مما تراه، قبل أن تبتسم بدورها وتسألها:

ـ أستاذة بلسم برضه ولا أنا اللي أختلط عليا الأمر؟

ـ لا... نظر حضرتك سليم يا فندم، احنا بس عملنا شوية تعديلات بسيطة على القلب والعقل.

ـ لالالا اهدي كدا عليا وقوليلي في إيه؟ أنا مش مصدقة اللي أنا شايفاه.. انتي كويس يا بت ولا شاربة حاجة؟

ـ شاربة أحلى حاجة ممكن الواحدة تدوقها في حياتها، شاربة حب صادق لأجمل وأرق إنسان خلقه ربنا.

اتسعت عينا هدير بقوة وارتفع حاجباها لأقصى حد غير مصدقة ما يلقى على مسامعها، فهزت رأسها وكأنها تتأكد من كونها مستيقظة، قبل أن تسأل صديقتها:

ـ معلش... أنت قولتي إيه عشان مسمعتش؟

ـ زي ما سمعتي كده... مش انتي كنتي بتلوميني على ترددي؟ أحب أقولك بقى أني خلاص متأكدة من مشاعري.

لم تقف بلسم عند تلك العبارة وإنما انطلق لسانها مثل جواد أزاحوا من أمامه الحواجز فأنطلق ينهب الأرض بحوافره، لم تتوقف للحظة واحدة كي تلتقط أنفاسها، بل أفرغت ما في جعبتها مرة واحدة وهي مستمتعة بكل تفصيلة تسردها، أما هدير فقد جلست صامتة وعلى وجهها علامات الدهشة الممزوجة بالسعادة، لم تقطع كلام صديقتها ولو للحظة بل انتظرت للنهاية، ثم قالت بفرحة:

ـ أقسم بالله دي أسعد حاجة حصلت وسمعتها من فترة... انتي مش متخيلة أنا فرحانة ازاي يا حبيبتي.

ـ بجد؟

ـ نعم!! انتي عبيطة يا بنتي؟ طبعاً فرحانة جداً ومن أول مرة حكتيلي فيها عن عمرو وأنا مبسوطة عشان أنتي مبسوطة... لكن اللي كان مزعلني حاجة واحدة بس... وأنتي أكيد عارفة قصدي إيه؟

ـ عارفة.

ـ طيب وناوية تعملي إيه؟

توارت الفرحة وراء الحيرة التي أطلت من عينيها وعجزت عن الرد، مما جعل الغضب يزحف على ملامح هدير وتتحول للنقيض وهي تسألها بحدة:

ـ أنتي لسة هتترددي تاني؟

ـ لا والله... كل الحكاية أني بقول أسيبه ومردش عليه وهو أكيد هيفهم لوحده أني خلاص.

كادت هدير تنفجر في وجه صديقتها لولا دلف فجأة للمكان رجل في الخمسين من عمره، يرتدي ملابس مهلهلة إلى حد كبير وتتدلى من رقبته صفارة معدنية، تقدم نحو بلسم مباشرة وهو يصرخ:

ـ يا أستاذة... الضابط مرخم عليا وعايز يكلبش العربيات المركونة.. طلعي عربيتك بسرعة بدل ما تاخدي غرامة بنت حرام.

انتفضت بلسم من مكانها والتقطت مفاتيح سيارتها من على الطاولة وهي تصرخ في وجه الرجل:

ـ الله يخربيتك... دا أنا لسة مستلمة العربية من التأمين... ثواني يا هدير وراجعلك.

اندفعت بسرعة للخارج وخلفها الرجل يحاول اللحاق بها، تتابعها هدير بعينيها حتى اختفت هي والرجل، تنهدت بعدها بصوت عال وهي تفكر فيما دار بينهما، وفجأة تعلقت عيناها بهاتف بلسم الملقى على المنضدة، تطلعت إليه طويلاً ثم نظرت مرة أخرى للباب وبعدها أمسكت بالهاتف وأخذت تقلب في الأسماء إلى أن استقرت على رقم معين، نقلته لهاتفها سريعاً، قبل أن تغلق هاتف صديقتها وتضعه مكانه مرة أخرى، وتتظاهر بالانشغال بما يجرى خارج المكان.

قسوة النهاية

أبراج شاهقة مبعثرة على طول المكان، تجاورها بيوت من طوب أحمر لا يتخطى ارتفاعها دورين أو ثلاثة، لوحة عبثية توضح التناقض الشديد بين طرفي المجتمع، مشهد اعتادت هدير أن يطالعها من نافذة مكتبها، وهي أمامه تقف عاجزة عن الكلام والتفسير، مطت شفتيها تعجباً ثم أخذت رشفة من فنجان القهوة وعادت للتفكير في حكاية صديقتها، وجدت نفسها تسترجع حوارهما كلمة كلمة، وما إن انتهت حتى دفست كفها في جيب معطفها وأخرجت هاتفها، عبثت به للحظات قبل أن تتوقف عند رقم ما، شردت للحظات وبدأ على وجهها التفكير العميق، ثم حسمت أمرها وضغطت على زر الاتصال، رنين متواصل دون رد، وقبل ان تنهي المكالمة أتاها الرد:

ـ ألو؟

ـ صباح الخير يا فندم... أستاذ مراد؟

ـ أيوة.. مين معايا؟

ـ أنا..أنا هدير صاحبة بلسم وزميلتها في الشغل.

جاوبها الصمت المطبق حتى تخيلت أن الاتصال قد انقطع، فهمت بالكلام مرة أخرى لولا سمعته يقول:

ـ أهلاً بيك يا فندم... خير؟ في حاجة؟ بلسم كويسة؟

ـ أه أه تمام... هي زي الفل مفيش حاجة، أنا اللي كنت عايزة حضرتك في حاجة مهمة.

ـ خير يا أستاذة هدير؟

ـ بص يا فندم جايز أنت متعرفنيش لان ممكن بلسم متكنش حكيتلك عني حاجة، لكن اللي لازم تعرفه أن بلسم مش بس زميلتي في الشركة.. أنا بعتبرها أختي الصغيرة، ويمكن ساعات بعتبرها مسئولة مني.

ـ أستاذة هدير ممكن تدخلي في الموضوع على طول عشان أنا بدأت أقلق.

سحبت هدير نفساً عميقاً من هواء المكان قبل أن تطلقه في صورة تنهيدة حارة أخرجت معها انفعالاتها وتوترها ثم أجابته بصوت خافت:

ـ حاضر..هدخل في الموضوع، لكن قبل ما اتكلم عايزاك متقاطعنيش وتسمعني للأخر.. ممكن؟

ـ ممكن... اتفضلي اتكلمي.

لا يدري كيف استطاع القيادة لمستشفى الشرطة، بل ولا كيف نجح في الوصول إليها، إذ كان الأمر بالنسبة له بمثابة المعجزة؛ دموعه الجارية لم تتوقف للحظة واحدة، جفونه كادت تصرخ من فرط جهدها في إزاحة هذا الماء المالح، صوت أنفاسه المتهدجة علا عن صخب الشارع من حوله، كلمات هدير ظلت تتكرر وتصرخ وتضرب وهو يقف امامها عاجزاً مطرق الرأس منكسراً، ضاقت به

الأرض بما رحبت وعجز أن يجد طريقاً للهروب، ضرب الظلام والعجز جنبات عقله حتى اهتدى لمكان واحد يسكن إليه... صديقه يوسف.

مبنى المستشفى كما هو في مكانه رابض في انتظار هذا المكلوم، فتح ذراعيه ليدوي بين ممراته حفيف خطواته الزاحفة، لحظات وكان واقفاً عند سرير يوسف، الذي تفاجأ بمنظر صديقه، تحول غريب طرأ على ملامحه، عيناه ذابلة كورقة شجر في فصل الخريف، بياض عينيه استحال للون الأحمر بعدما تشابكت بداخله عروق دموية كادت تنفجر من شدة الانفعال، تساقط كتفاه إلى جواره وكأن عليهما أطناناً من الهموم؛ اعتدل يوسف على سريره مفزوعًا من هيئته، قبل أن يسأله بلهجة متوترة:

ـ إيه دا؟ أنت عامل كدا ليه؟ إيه اللي حصل؟

ألقى مراد بجسده على الكرسي المجاور للسرير دون أن ينبس بكلمة واحدة، تطلع لصديقه بعين خاوية، شعر ببرودة عجيبة تجتاحه، فلم يتمالك نفسه وأخذ يرتجف بشدة، فتح فمه وحاول أن يتحدث ليوسف لكنه فشل، أحس بالضعف الشديد فهز رأسه متحسراً على ما آل إليه، تحرك يوسف ناحيته وأمسك بركبته وضغط عليها بقوة وهم بمعاودة سؤاله، لكن هذه المرة استطاع مراد أن يتكلم بصوت مبحوح و بكلمات متفرقة، كأنه شخص يتعلم النطق:

ـ معرفش... عملت.. كدا... ليه؟!

ـ قصدك مين يا مراد؟ قولي يا بني أنا مش فاهم حاجة؟

بالكاد وبكلمات مقتضبة روى ما حدث، ويوسف ينظر له مذهولاً مما يسمع، يود لو ينطق بشيء ما لكن المفاجأة ألجمت لسانه فصمت رغماً عنه، حتى انتهى مراد من روايته، وهنا استحال ذهول يوسف لغضب عارم دفعه للصياح في وجه صديقه قائلاً:

ـ وعملت إيه؟ أوعى تقولي إنك سكتت؟

ـ أومال كنت عايزني أعمل إيه؟

ـ تعمل إيه!! يعني ايه تعمل إيه!! دور عليها وشوف هي فين، كسّر دماغها ودوس عليها بأوسخ جزمة زي ما هي داست عليك.

ـ مكنش ينفع يا يوسف.

ـ ومينفعش ليه إن شاء الله؟

ـ مقدرش أكسر قلبها.

ـ نعم؟! أنت بتقول إيه؟ أنت يا بني في وعيك؟ يعني مستوعب اللي أنت بتقوله؟

ـ أكيد.

ـ قلب مين اللي أنت خايف تكسره! قلب واحدة زبالة لعبت بيك وفضلت منيماك لحد ما ارتبطت بواحد تاني؟! قلب واحدة مفكرتش فيك ولا في حبك ولا في وقوفك جنبها لحد ما خرجت من الزفت المستشفى؟ فوق بقى يا بني وبطل المثالية اللي أنت عايش فيها دي.

وهنا انفجر مراد في البكاء كالطفل الصغير، واختلطت كلماته بصوت نحيبه، وهو يقول:

ـ أنا اللي غلطان يا يوسف... أنا كنت عارف أنها مش بتحبني ومع ذلك أصريت اكمل... فاكر أنا كنت بقولك إيه؟ كنت بقولك حاسس أن في حاجز بينا... كنت شايف واحدة بتعزني لكن مش بتحبني، ومع ذلك مشيت وراء قلبي وقلت يمكن الوضع يتغير، ودا فعلاً اللي حسيته بعد الحادثة اللي حصلت لنا، ومش أنا وبس، أمي نفسها شافت بعينها ازاي بلسم كانت ملهوفة عليا وخايفة وقلقانة ولا كأني حبيبها او خطيبها... ساعتها قولت لنفسي أني خلاص ملكت قلبها، كنت بحاول أبرر لها وأخلق لها أعذار عشان أفضل متعلق بيها حتى ولو بالكذب... أنا مش زعلان إنها راحت لواحد تاني، بالعكس. أنا من أول ما عيني وقعت عليها وأنا أمنيتي أشوفها فرحانة ومبسوطة، لكن.. لكن كنت عايزها تكون صريحة معايا، تقولي إنها مش لاقية نفسها معايا... ليه تخدعني؟ ليه تفضل ساكتة وتعلقني بأمل ملوش وجود؟ ليه تخليني أشوفها وحشة؟ ليه؟ أنا... أنا مكنتش عايز كدا... أنا كنت عايزها تفضل في عيني أجمل وارق إنسانة... ليه يا يوسف؟ ليه؟

ـ عشان خاطري متعملش في نفسك كدا... دي واحدة ما تستاهلش، حرام تزعل عليها ولو ثانية... والله ما تستاهل قلبك دا ولا تستاهل تعيش مع راجل زيك... انساها.. انساها يا مراد وخلي عندك يقين أن فرحتك وسعادتك مش

مع الإنسانة دي، وإن ربنا كاتبلك الخير مع واحدة تانية، مع واحدة جديرة بيك وبحبك... والله يا مراد خدها مني كلمة... أقسم لك أنها هتندم على أنها فرطت فيك.

كلمات صديقه نزلت على قلبه المكلوم كماء بارد خفف من لوعته وألمه، فأرجع رأسه للوراء ونظر للسقف، وهو يحاول جاهداً أن يطرد كلمات هدير من عقله، لعله يرتاح ويلتقط أنفاسه، ولو بالكذب.

ما قبل النهاية

جلست بلسم على مكتبها وقد غرقت في عملها حتى النخاع، جرت أصابعها على لوحة مفاتيح الكمبيوتر لفترة ليست بالقليلة، قبل ان تتوقف وتذهب بخاطرها لعمرو الذي اختفى طوال اليومين الماضيين، فلم يعد يفاجئها بظهوره في المكتبة أو في مطعمهما المفضل، الأمر الذي أثار حيرتها؛ وكالعادة حاولت أن تتصل به لكن باءت محاولاتها بالفشل. أطلقت تنهيدة طويلة ونحت قلقها جانباً وانغمست في عالم أحلامها، أعادت شريط أيامها السابقة، وما دار بينهما قبل أن يختفي، فاضطرب قلبها بعدما استشعرت لحظات اللذة التي عاشتها كبطلة لإحدى الروايات الرومانسية.

حانت منها التفاتة لساعة يدها، فعقدت حاجبيها ونظرت للممر الذي يتنهي إلى المصعد، على أمل أن ترى هدير تطل من نهايته بضحكتها وقفشاتها، لكن غابت الصديقة وحضر سرابها. غياب أخر غير مبرر كاد يطير له عقلها، لولا تلك الرسالة التي فاجأتها من هدير تخبرها فيها بأن زوجها يعاني من نزلة برد شديد مما اضطرها للبقاء بجانبه؛ لكن ظنها بأن الأمر لن يتعدى غياب يوم قد خاب، فها هي تختفي لليوم الثاني على التوالي مثلها مثل عمرو، وكأن بينهما اتفاقاً على خلق حالة من الفراغ غير المألوف. مدت يدها وأمسكت بهاتفها واتصلت بها، رنين متواصل دون إجابة، أعادت المحاولة مرة ثانية وثالثة، وفي كل مرة يجيبها ذات الرنين الرتيب الذي أثار أعصابها أكثر فأكثر. بدأ القلق يتسرب

لنفسها، وأخذت تتلفت حولها لا تدري ماذا تفعل، وفجأة وجدت عمرو يتصل بها، تسمرت مكانها للحظات من فرط المفاجأة، إذ كانت المرة الأولى التي تراه يتصل بها، بالكاد استطاعت أن تنحي تعجبها جانباً وترد عليه بمزيج من اللهفة والقلق:

ـ إيه دا؟ انت فين يا عمرو؟ حرام عليك يا اخي... أنا بقالي يومين بحاول اتصل بيك ومش عارفة أوصلك، أنت فين؟

ـ معلش يا حبيبتي... بس حصل ظرف لعمرو خلاه مش عارف يكلمك ولا يقابلك.

تراجعت بلسم للوراء بعدما أبعدت الهاتف عن أذنها ونظرت لشاشته بتعجب قوي، فالصوت الذي أتاها من الجانب الاخر لم يكن صوت عمرو، وإنما صوت سيدة كبيرة في السن. عقدت بلسم حاجبيها وقربت الهاتف منها مرة أخرى وابتلعت ريقها بصعوبة وهي تسأل صاحبة الصوت بكلمات متقطعة:

ـ مين معايا؟

ـ أنا والدة عمرو.

زاد الرد من ارتباك بلسم الذي تحيرت في إيجاد كلمات تعبر عن دهشتها التي تعاظمت بدخلها، فاكتفت بصمت عاجز دفع والدة عمرو أن تردف:

ـ ألو... ألو... انتي لسة معايا يا حبيبتي؟

ـ أيوة يا طنط.. أنا مع حضرتك.. بس...

ابتلعت باقي عبارتها ولم تقو على أن تكمل أو تعبر عما يجول بداخلها، ففطنت والدة عمرو لحيرتها ووفرت عليها مشقة البحث عن إجابات لأسئلتها وقالت:

ـ أنا عارفة أنك مستغربة من مكالمتي وأنك مش عارفة تقوليلي إيه... عشان كده هوفر عليكي التعب والحيرة وأفهمك... عمرو حكى لي كل حاجة وفهمني انتي تبقي إيه بالنسبة له، وأنا بصراحة زعلت منه عشان كان مخبي عليا.

ـ والله يا طنط أنا أتكلمت معاه في الموضوع ده كتير، بس هو كان بيتهرب مني وبيقولي إنه مظبط كل حاجة وهيفاتح حضرتك في الوقت المناسب.

ـ عارفة يا بلسم.. انتي فعلاً ملكيش ذنب في اي حاجة، ولو في حد يتلام يبقى أكيد انا وعمرو.

ـ طيب حضرتك مالك.. ده عمرو هو اللي مكنش بيتكلم معاكي.

ـ مهي دي برضه غلطتي أنه ماتعودش يتكلم معايا أول بأول.. عامة ملحوقة، وأنا بكلمك مخصوص النهارده عشان كده... أنا من أول ما حكالي عمرو عنك وأنا عايزة أشوفك، وبصراحة كنت مفروض أقابلك اليومين اللي فاتوا لولا عمرو تعب جامد اوي ومكانش قادر يتكلم ولا يتحرك حتى من السرير.

شهقت بلسم بصوت مسموع وهي تصرخ باسمه متسائلة:

ـ عمرو تعبان؟ ماله يا طنط عنده إيه؟

ـ متخافيش يا حبيبتي، ده دور حساسية في الصدر بيجيله من وقت للتاني، بس المرة دي كان جاي شديد شوية.

ـ طيب وهو عامل إيه دلوقتي؟

ـ هو أحسن من الأول بس لسة تعبان.

ـ طيب هو ميقدرش يرد عليا؟

ـ للأسف لا، الدكتور منبه علينا أنه ميستخدمش الموبايل ولا يتكلم بشكل مستمر.

ـ يااااه للدرجة دي.

ـ أه والله، بس الحمد لله على كل حال.. أنا لما لاقيت الوضع بالشكل ده ولاقيته هيتجنن ويطمنك قلت اتصل بيكي وأفهمك على كل حاجة.

ـ ربنا يخليكي يا طنط، شكراً لحضرتك، أنا فعلا كنت هتجنن وكنت عايزة أعرف عمرو مختفي ليه.

ـ حبيبتي تسلمي... عامة لو تحبي تيجي وتطمني عليه بنفسك أنا معنديش مانع، بالعكس ده أنا اتمنى تيجي عشان أشوفك.

العرض المفاجئ عقد لسانها فتسمرت على مقعدها وهي عاجزة عن حسم أمرها، زاد حرجها بعدما طالت فترة الصمت وخشيت أن يتسبب هذا الأمر في أن تتخذ والدة عمرو موقفاً سلبياً تجاهها، فأسرعت في الرد دون تفكير وقالت:

ـ طيب يا طنط ممكن حضرتك تقوليلي العنوان بالظبط.

ـ طبعاً يا حبيبي.. أكتبي عندك.

استمعت للعنوان وكتبته بالتفصيل ثم أنهت المكالمة على وعد بعدم التأخير، وبالفعل سارعت بلملمة أشيائها من على المكتب، ثم اتصلت بأحد محلات الزهور كي يجهز لها باقة تصلح لمثل هذه المناسبة، ثم اتصلت بصديقتها هدير تخبرها بما حدث في عجالة. فجأة انقطع الاتصال، نظرت لهاتفها لتطالعها شاشته السوداء بعدما فرغت بطاريته، حاولت أن تبحث عن شاحنه، لكن مع عجلتها لم تعثر عليه، فوضعت الهاتف في حقيبتها وانصرفت مسرعة، وهي تحدث نفسها بانها ستعاود الاتصال بصديقتها بمجرد أن تشحن هاتفها.

السر

تراقصت الأبخرة المتصاعدة من فنجان القهوة أمام عيني مراد الدامعة، فتأملها بنظرات خاوية من أي تعبير، أمسك بالفنجان وأخذ يحركه يميناً ويساراً، قبل أن يرفعه ويرتشف منه رشفة صغيرة، حاول جاهداً أن يزيح صورة بلسم عن مخيلته لكنه فشل، مرارة الصدمة ظلت عالقة بحلقه فأفقدته حاسة التذوق، والأصعب أن عقله لم يستحضر سوى مشهد واحد من نسج خياله، وجدها فيه تسلم كفها لشاب كي يضع خاتمًا براقًا في أحد أصابعها.

أطلق تنهيدة قوية وجاهد كي يكبت دموعه، لم يدر كم مر من الوقت وهو على حاله، شعر وكأنه وسط أمواج عاتية يصارعها بكل قوته، تلفت حوله بحثاً عن طوق النجاة فلم يجد، وفجأة جاءت النجدة على شكل طرقات منتظمة على باب مكتبه، انتزعته من أفكاره وعادت به للواقع، مرر أصابعه سريعاً على وجنتيه ليزيل أي أثر لعبراته ونادى على الطارق كي يدخل.

دلف للمكان رجل قصير القامة، نحيف، يقترب عمره من الخمسين عاماً، تلمع صلعته السمراء بالرغم من ضعف الضوء داخل الغرفة، يرتدي ملابس بسيطة تعكس حالته المادية؛ تقدم نحو مراد بخطوات سريعة، وما إن وقف أمامه حتى سارع بتأدية التحية العسكرية في حزم، فأكتفى مراد بإيماء من رأسه وساله:

ـ خير يا صابر؟ في حاجة؟

ـ معلش يا فندم على الازعاج، بس عادل باشا كان قالي لو ملاقتوش في المكتب أسلم الملف ده لحضرتك.

ومد يده بملف صغير كان يمسك به ووضعه على سطح المكتب، فتناوله مراد وهو يسأله:

ـ ملف إيه ده؟

ـ مش عارف يا باشا، بس هو قالي إنه يخص باقي الملفات القديمة اللي كنت جبتها لحضرتك قبل كده.

تسمرت يد مراد القابضة على الملف بعدما كان يهم بفتحه، وتأفف بشكل واضح ولوى شفتيه قبل أن يلقى به مرة أخرى على سطح المكتب قائلاً:

ـ طيب يا صابر... روح هاتلي فنجان قهوة تاني.

ـ أوامرك يا باشا.

أنصرف صابر مسرعاً بتلبية طلب رئيسه الذي أرجع رأسه للوراء وحملق في سقف الغرفة وهو يهز كرسيه يميناً ويساراً، وكالعادة هاجمته صورة بلسم رغماً عنه فأغمض عينيه لعلها تبارح عقله لكن للأسف ظلت متشبثة به.

زفر بقوة وعاد يتطلع حوله لعله يجد ما يلهيه، وفجاة وقعت عيناه على الاسم الذي يتصدر الملف الذي جاء به صابر، مد يده ببطء نحو الملف وأمسك به ثم قربه من وجهه وهو ينطق الاسم بصوت مسموع:

ـ عمرو صالح البنا

ما إن انتهى من تلفظ الاسم حتى بدأ مؤشر البحث في الدوران والتنقيب في الدفاتر والغرف المغلقة داخل عقله لعله يهتدي للمكان الذي سمعه فيه، وفجأة.. أنارت لمبة الذاكرة في رأسه معلنة انتهاء البحث والنجاح في الوصول لمبتغاها. مر أمامه الحوار الذي دار بينه وبين هدير كلمة كلمة، ليجد هذا الاسم يبرق وسط الكلمات بلون مختلف، بلون الغضب والحزن والأسى، فهو اسم الشخص الذي قلب الطاولة واستطاع الفوز بقلب بلسم، أحرف لن تمحى من ذاكرته حتى الممات، اسم تسبب صاحبه في وجع له، لم ولن يمر عليه. سحب نفساً طويلاً وأخرجه بهدوء محاولاً أن يسكب على مشاعره ماءً بارداً يرطب من لهيبها المستعر، فتح الملف ببطء لتطالعه صورة عمرو في أعلى الصفحة وقد سُطرت تحتها جميع بياناته، قرأها سريعاً حتى يتأكد من كونه نفس الشخص، وبالفعل تبين له سلامة ذاكرته، فالاسم هو نفسه والمهنة كذلك ومقر عمله أيضاً... كلها معلومات تطابق ما روته هدير.

نزل بعينيه سريعاً لباقي السطور ليعرف ما هو السبب في تتبعه أمنياً حتى يصبح له ملف بأمن الدولة، التهم السطور بلهفة حتى وجد تفريغاً لمكالمة هاتفية بين مصدر للجهاز يدعى شريف العسال وبين أحد الضباط:

ـ أزيك يا شريف.. خير.. في حاجة؟

ـ منستغناش عن حضرتك يا فندم، بس في معلومة كدا كنت حابب أوصلها لسيادتك.

ـ إيه هي؟

ـ في صحفي عندنا اسمه عمرو صالح البنا كان بيشتغل في التحقيقات وبعد كدا طلب نقله للقسم الخارجي، ولما سألته عن سبب الطلب قعد يهاجم الحكومة والنظام، وخّبط جداً في الكلام لدرجة إن الزملاء اللي في صالة التحرير خدوا بالهم... أنا حاولت أعرف معلومات أكتر لكن مقدرتش، بس الطريقة والأسلوب تدل على أنه مع الناس اللي حضرتك عارفهم.

ـ مفهوم مفهوم... طيب عايزك تبعتلي بياناته في رسالة وأنا هتصرف.

ـ حاضر معاليك.. ربنا يبارك في سعادتك... في حفظ الله يا باشا في حفظ الله.

ما إن انتهى من قراءة المكالمة حتى عقد حاجبيه متعجباً، وشرد ببصره بعيداً قبل أن يعاود النظر لأوراق الملف مستكملاً ما بدأ، لم يكن هناك المزيد بل بضعة تقارير للمراقبة وتفريغ لمكالمات شخصية وبعدها انتهت السطور بعبارة:

ـ تم غلق الملف لــ...

وهنا اتسعت عيناه بقوة وفرغ فاه من فرط المفاجأة. أخذ يعيد قراءة العبارة مرة ومرة ومرة حتى كاد يصاب بالجنون، وكلما أحال عينيه بعيداً عن الملف عاد إليه وهو يردد كلمة واحدة.

ـ مستحيل... مستحيل.

وقفت بلسم أمام عمارة عمرو تتأملها في صمت، وفي يدها باقة كبيرة من الورد أمسكتها بحرص شديد، شعرت بخفقات قلبها تزداد بقوة، وبأنها غير قادرة على التنفس بشكل طبيعي، فحاولت أن تعبئ صدرها بالهواء وتكتمه لثوان قبل أن تطلق سراحه مرة أخرى، وتتجه بخطوات مترددة إلى داخل البناية. لا تدري لم أحست بقلق مبهم منذ وطأت قدماها المكان، حتى أنها وقفت أمام الشقة لبعض الوقت غير قادرة على طرق بابها، لكن في النهاية حسمت أمرها وهزت رأسها وكأنها تنفض عنه ما يعتريه من هواجس غير مفهومة، ثم طرقت الباب ووقفت تنتظر الرد، ثوان وتناهى لمسامعها صوت خطوات تقترب، وبصرير مزعج فُتح الباب.

طالعها وجه والدة عمرو بابتسامتها المريحة، فتسمرت في مكانها للحظات من المفاجأة، رغم علمها بصعوبة أن يتحرك عمرو ويقابلها بنفسه لمعاناته من المرض، لاحظت الأم ما تعانيه فعمدت على زيادة ابتسامتها حتى صارت ضحكة هادئة بعثت الارتياح في نفس بلسم التي بادلتها الضحكة الرقيقة.

تنحت الأم جانباً وأفسحت لها المجال كي تدخل، دلفت للشقة ووقفت في منتصف الصالة حائرة لا تدري إلى أي مكان تتجه، ومن خلفها صفقت والدة عمرو الباب بقوة مما جعلها تنتفض وتلتفت لها بارتباك، فنظرت لها متعجبة واشارت نحو الصالون قائلة:

ـ اتفضلي يا بلسم واقفة ليه.

تقدمت نحو أحد الكراسي وجلست عليه بهدوء، ثم وضعت باقة الورد على المنضدة الصغيرة المقابلة لها، وهي تنظر لها بارتباك شديد، فحاولت والدة عمرو أن ترسم على وجهها ابتسامة مطمئنة وهي تقول:

ـ عمرو في أوضته بيغير هدومه... تحبي تشربي إيه لحد ما يخلص؟

ـ ولا حاجة تسلم ايدين حضرتك، متتعبيش نفسك.. أنا مش عايزة أشرب حاجة اصلاً والله.

ـ مفيش الكلام ده لازم تشربي حاجة، وبعدين أنا أم شديدة وبحب ولادي يسمعوا الكلام، ولا أنتي مش بتعتبريني زي ماما؟

ـ لا طبعاً ازاي... ده يكون لي الشرف لو حضرتك أعتبرتيني زي بنتك.

ـ مادام دخلتي قلب عمرو يبقى دخلتي قلبي أنا كمان وبقيتي في غلاوته، ها.. أنا بعمل نسكافيه حلو أوي، تحبي تجربيه ولا أعملك حاجة تانية؟

ـ لا كده حلو أوي... بس ممكن أطلب من حضرتك حاجة كمان؟

ـ انتي تؤمري.

ـ عايزة شاحن عشان الموبيل بتاعي فصل شحن.

ـ تحت أمرك... هعملك النسكافية وأجيبلك الشاحن معاه.

تحركت مسرعة نحو المطبخ وغابت عن عينيها، فدارت برأسها في المكان تتأمل تفاصيله بمزيج من اللهفة والفضول؛ كان أثاث المنزل ينم عن بساطة صاحبه، وعدم اهتمامه بالتفاصيل، توقفت عيناها عند منضدة متوسطة الحجم موضوعة

بجوار طاولة السفرة، تراصت عليها مجموعة من البراويز. تقدمت نحوها لتجد مجموعة كبيرة من الصور تجمع عمرو بوالديه؛ وقفت تتأملها بهدوء، فلاحظت الشبه الكبير ما بين عمرو ووالدته وكأنهما شخص واحد، وفجأة تناهى لمسامعها صوت لحن تعرفه جيداً ينبعث من اللامكان وكأنه يخرج من حوائط الشقة

الشوارع حواديت

حوداية الحب فيها

وحوداية عفاريت

اسمعي يا حلوة لما اضحكك...

صوت صلاح جاهين الرخيم يشدو بالكلمات، اللحن الشجن يتسلل إلى أعماق روحها؛ ارتسمت على شفتيها ابتسامة حالمة، وتذكرت والديها، شعرت بهما يراقبانها عن كثب، تسرب لنفسها إحساس بأن عمرو هو الذي أدار الأغنية، شردت في كلمات الأغنية للحظات ثم عادت وأخذت تتفحص باقي البراويز

ـ عجبتك الصور؟

انتفض جسدها وحانت منها التفاتة نحو الصوت فكادت تطيح بالصينية وبالأكواب الموضوعة عليها، لولا سرعة ردة فعل والدة عمرو وقدرتها أن تبتعد للخلف بعيداً عنها، وقفت على بعد خطوات تلتقط أنفاسها وعلى وجهها ابتسامة عريضة، ثم قالت وهي تشير برأسها للبراويز:

ـ شايفاكي أتفرجتي على الصور... ها إيه رأيك؟

ـ زي القمر طبعاً... بس سبحان الله حضرتك شبه عمرو بشكل مش طبيعي.

ـ آه فعلاً... خدي بقى أشربي النسكافية وبعد كدا ندخل نطمئن عليه عشان هو مش هيقدر يقوم من على السرير.

ـ طيب خلي حضرتك النسكافية دلوقتي وندخل لعمرو الأول.

ـ لا.. أشربي الأول، الدنيا مش هتطير.

ـ حاضر والله، بس كل الحكاية أني مش عايز أتأخر أكتر من كدا.

ـ مفيش تأخير ولا حاجة، وبعدين أنا ملحقتش أقعد معاكي.

ـ أكيد طبعاً هقعد مع حضرتك، بس عشان مقولتش لاختي وممكن تقلق عليا.

ـ خلاص يا حبيبي براحتك..اشربي وندخله على طول.

ارتشفت بعضاً من كوب النسكافيه، وألقت على مسامع والدة عمرو كلمات المدح والثناء على حلاوة مذاقه وجمال صنعه، فقابلتها الأم بابتسامة هادئة وهي تشكرها على روحها الحلوة وأدبها، قبل أن تتقدمها وتسير بها نحو غرفة عمرو. طرقت الباب وانتظرت لثوان ثم دفعته برفق وأفسحت المجال لبلسم كي تتقدمها، دلفت للغرفة بهدوء وتوقفت على بعد خطوتين من الباب، جالت ببصرها في المكان فوقعت عيناها على الكرسي الجلدي الخاص به ومكتبه، وبجواره منضدة صغيرة تراصت عليها العديد من الكتب، كان كل شيء

موجودًا كما وصفه لها من قبل، باستثناء شيء واحد فقط كان غير موجود... عمرو نفسه.

النهاية

أبواق السيارات تصرخ من حوله، سباب أصحابها يصل لمسامعه، أشخاص يفرون من أمامه في فزع ولعناتهم تلاحقه، بينما سيارته تنهب الطريق بجنون، وعيناه لا ترى الشارع؛ كلمات الملف أفقدته عقله، وصار كالمجنون يبحث عن بلسم في كل مكان، ذهب في أول الأمر لمقر عملها، فعلم أنها حصلت على إذن بالانصراف، اتصل بها فوجد هاتفها مغلقًا، طار عقله اكثر وأخذ يسأل كل من في الشركة لعل أحدهم يعرف مكانها، في البداية لم يصل لنتيجة، إلى أن هداه تفكيره وأخذ يبحث في هاتفه عن رقم هدير حتى وجدها واتصل بها، فأخبرته بما حدث وكيف دعتها والدة عمرو لزيارة ابنها المريض، وهنا تحول مراد لشخص آخر، شخص هو نفسه لم يره من قبل.

استقل سيارته وطار بها نحو منزل عمرو، وطوال الطريق كان يسترجع سطور الملف كلمة كلمة؛ في البداية تبين أن المدعو عمرو كان يعاني من حالة نفسية بعد موت أبيه ودخل على أثرها المستشفى، ثم خرج منها بعد فترة وزاول عمله بشكل طبيعي، وبالمراقبة الدقيقة اتضح أن كلام المصدر ـ شريف العسال ـ ينطوي على كثير من المبالغة وأن المذكور لا يمثل خطرًا على الأمن العام، ولكن من باب الاطمئنان تقرر مد فترة المراقبة، وبعد فترة بسيطة وقع ما جعل المراقبة لا محل لها من الإعراب، ثم تبعها حدث أغلق الملف نهائياً، إذ تعرض عمرو

لحادث عنيف أدى لدخوله في غيبوبة طويلة، انتهت بالأمر الذي أطار عقل مراد، وهو وفاة المدعو عمرو صالح البنا.

حينما حضرت تلك العبارة في ذهن مراد أحس بالجنون يضرب عقله وقلبه، وصارت الأسئلة أكثر شراسة وهي تنبش كل قطعة من جسده، كيف لبلسم أن تلتقي بشخص فارق الحياة منذ فترة؟ وإن كانت تقابل أحدهم بالفعل فمن يكون؟ ولماذا ينتحل صفة المدعو عمرو؟ وهل الشخص الذي تقابله مشترك مع والدة عمرو في تلك اللعبة غير المفهومة؟ وإن كان مشتركاً، ما الذي يدفع أم عمر للإيتان بمثل هذه الحركة العجيبة؟

بدأ ضجيج الأسئلة يعلو أكثر فأكثر حينما لاحت البناية من بعيد، الطريق المزدحم جعل حركته أبطأ، وفجأة أوقف السيارة في منتصف الطريق ونزل منها مسرعاً تطارده صرخات الشارع، وما إن دلف للعمارة حتى نهب درجات السلم في خطوتين أو ثلاثة، وعند باب الشقة وقف بأنفاسه المتقطعة يطرق الباب بيد ويقرع الجرس باليد الاخرى وحينما لم يصله رد، تراجع خطوتين للوراء واندفع بكل قوته ناحية الباب ودفعه بكتفه، لكن لم يتزحزح الباب من مكانه فأعاد المحاولة مرة وثانية وثالثة حتى خر الباب صريعاً أمام ضرباته، دلف للشقة وهو لا يدري إلى أين يتجه. دار بعينيه في المكان وصرخ مناديا على بلسم لكنها لم تُجب، فأسرع نحو الممر الذي يضم غرف الشقة، وبدأ يفتح أبوابها واحداً تلو

الأخر، وعند أحد الأبواب لمح دخانًا يتصاعد من تحت عقب الباب، فوقف متردداً لثوان ثم أمسك بالمقبض وأداره.

خلف الباب طالعه أقسى مشهد مر عليه.. مشهد لن ينمحي من ذاكرته طوال العمر؛ والدة عمرو جالسة على الارض وأمامها صحن فخاري تتصاعد منه أبخرة كثيفة وحوله رسم عجيب على الارض ممزوج بكلمات وأحرف غريبة.. أما بلسم، فقد تمدد جسدها على الأرض وقد خبى نور الحياة من عينيها، حاول أن يقترب لكنه اصطدم بعيني والدة عمرو وهي تبرق في الغرفة شبة المظلمة بنظرة لم ير مثيلها، نظرة تجمدت لها الدماء في عروقه، وبمجرد أن شاهدته انبعث من فمها صوت كفحيح الأفاعي:

ـ معلش... جيت متأخر... خلاص... بلسم لعمرو، وعمرو لبلسم.

حدجها بنظرات ملتاعة وقد أخرسته المفاجأة وأطبقت على شفتيه، فتسمر في مكانه مذهولاً يحرك لسانه دون أن ينطق، بينما ضحكاتها المجنونة تدوي في المكان أكثر وأكثر وأكثر.

أطلت الغيوم من السماء ونسجت قطنها الأبيض المغمس بلون أكثر قتامة، لتضرب موعداً مع المطر الذي ينتظر الإشارة كي يلثم الارض وتفاصيلها؛ تمايلت الأشجار مع الهواء البارد فأرغمها على الرقص دون إرادتها، ومع اشتداد الصقيع سارع الممرضون في إخلاء حديقة المستشفى من المرضى.

ومن بعيد وقف مراد بوجه زاده الحزن عمراً على عمره، يتأمل والدة عمرو وهي جالسة على أحد المقاعد الخشبية، وقد لاحظ شفتاها تتحرك وكانها تتكلم مع شخص ما رغم جلوسها بمفردها. مط شفتيه وهز رأسه متعجباً، قبل أن يتناهى لمسامعه صوت خطوات تقترب منه فالتفت ليجد أحد الأطباء يقترب منه قائلاً:

ـ افتكر كده حضرتك تقدر تقفل قضية الموسم.

عاد مراد ينظر إلى والدة عمرو ويسأله دون أن ينظر له:

ـ تفتكر؟

ـ طبعاً يا فندم... احنا حطيناها تحت الملاحظة خمسة وأربعين يوم، والفحوصات اللي اتعملت لها بتثبت إنها مجنونة، وبعدين من غير حتى فحوصات ولا مراقبة هو في واحدة تعمل اللي هي عملته ولا يصدق الكلام اللي هي بتقوله.

ـ مش عارف.

تنهد بصوت مسموع واستأذن الطبيب في الانصراف، وبينما هو متجه لباب المستشفى ندت منه التفاتة نحو والدة عمرو فوجدها تنظر له بسخرية، أو هكذا خيل له، قبل أن تشيح بوجهها بعيداً وتستمر في حديثها للعدم. عقد حاجبيه وابتلع ريقه بصعوبة ثم هز رأسه أسفاً وتعجباً ومضى لطريقه، أما والدة عمرو

فقد جاءها أحد الممرضين يأمرها بالعودة للعنبر مرة أخرى، فهزت راسها بالموافقة ثم عادت تتحدث للفراغ قائلة:

ـ أوعوا تتأخروا عليا تاني، متسبونيش كل ده لوحدي... مفهوم؟ يلا مع السلامة، خدوا بالكم من بعض.

لوحت بكفها في الهواء وكأنها تودع شخصاً ما، مما جعل الممرض يبتسم ساخراً وهو يصحبها للداخل وعيناه لا تلتقط المشهد الذي تعلقت به وجعلها تلتفت خلفها بين الحين والآخر. فخلفهما كان عمرو يقف مبتسماً وبجواره بلسم تطل من عينيها نظرة عجيبة تمتزج فيها السعادة بالحزن، وحينما التفت لها ووجدها على تلك الحالة قبض على كفها الرقيق بقوة قائلاً:

ـ متزعليش من ماما يا بلسم، هي عملت اللي معرفناش نعمله أنا وأنتي، جمعتنا بعد ما كان لقائنا مستحيل... تفتكري لو كنا زي الأول روح وجسد كنا ممكن نتجمع؟ لكن دلوقتي أرواحنا عمرها ما هتفترق أبداً.

هزت رأسها موافقة واستسلمت لكفه وهو يمضي بها نحو العدم، لتتلاشى أجسادهما رويداً رويداً، وتتصاعد أبخرتهما للسماء.

(تمت بحمد الله)

الفؤاد
للنشر والتوزيع